أصول العقيدة الإسلامية

التي قررها الإمام

أبو جعفر أحمد بن سلامة الأزدي الطحاوي

مع منتخبات اختارها

عبد المنعم صالح العلي العزي

من شرح العلامة

علي بن أبي العز الأذرعي

وهو شرح شامل للعقيدة الإسلامية وفق مفاهيم السلف الصالح

واعتمادا على صحاح النصوص بلا تأويل ولا تعطيل



الطبعـــة الاولى

١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

دار الوفاء للطباعة والنشر
شارع الجامعة - تقسيم السنودى
المنصورة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر :

إن نقطة البداية فى مسيرة الإصلاح الإسلامى الحاضر إنما تتمثل فى التعريف بعقيدة التوحيد الخالصة من الشوائب والمبتدعات ، وإن المنطلق الصحيح للصحوة الإسلامية المعاصرة لابد أن ينبعث من هذه الحقيقة ، ليربى الجيل الجديد المقدام من شباب الإسلام وفق المعالم الأصيلة لهذه العقيدة ، وليستدرك على العامة من الناس ما قد يكون علق بموازينهم من الإختلاطات والأوهام .

وما كان لمجددى فكر الأمة أن يغفلوا عن إدراك هذا البعد الأساسى والرئيسى فى مسيرة الإصلاح والإعداد الجديد للعقل المسلم الذى غفل عن عقيدته فترة من الزمان فهوت صروحه العالية وبعد عن التحليق .

وليس هناك من سبب يعطى هذه الصحوة قوتها ، وبعدها الإيمانى العميق فى أعماق النفوس ، ويمنحها قوتها التى يكون بها نفاذها ، ويضمن لها استمرارها الذى يرفعها عن الهبوط إلى مستوى الفورات الهامشية الطارئة ، إلا أن تعمق العقيدة فى النفس وتستقر فى القلب وتجرى من صاحبها مجرى الدم فى عروقه .

ولهذا حرص الأستاذ عبد المنعم صالح - جزاه الله خيراً - على أن يقوم بتهذيب هذا الكتاب وإخراجه فى صورة يسيرة يستضىء به ناشئة الدعوة وشبابها فى طريقهم الطويل .

وقد أجمع علماء الأمة وثقات الفقهاء على أن عقيدة الإمام الطحاوى - رحمه الله - عقيدة سليمة صحيحة تلتزم الفهم السلفى السنى القديم الأول ، البرىء من التأويل والتمثيل والتعطيل ويكادون يجمعون كذلك على أن هذا الشرح الذى دونه القاضى ابن أبى العز الأذرعى قد أصاب فهم مراد الإمام الطحاوى ، وفيه حرص تام على القرب من نصوص القرآن والحديث ، مع تغليب قول جمهور الفقهاء فى مسائل الخلاف ، بعيداً عن الشذوذ والتكلف .

وقد طبع الشرح للمرة الأولى سنة ١٣٤٩ هـ بمكة المكرمة وعنى بتصحيحه والإشراف على طبعه لجنة من المشايخ والعلماء برياسة العلامة الكبير الشيخ عبد الله بن حسن بن حسين آل الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - ثم أعيد طبع هذا الشرح فى مصر بعناية الشيخ المحدث العلامة أحمد محمد شاكر - رحمه الله - وأعيد طبعه ثالثة بعناية الشيخ المحقق محمد ناصر الدين الألبانى - حفظه الله - وكلهم قد اجتهد فى ضبطه وزاد خيراً ، ولكن اعتماد الأستاذ عبد المنعم صالح كان على طبعة الشيخ أحمد محمد شاكر ومقدماتها .

والطحاوى صاحب هذه العقيدة هو إمام محدث فقيه ولد سنة تسع وثلاثين ومائتين بمصر وتلقى العلم على خاله إسماعيل بن يحيى المزنى أفقه أصحاب الشافعى ، ولكنه أصبح بعد ذلك من أتباع مذهب أبى حنيفة وترك خاله ، دون أن يمنعه ذلك من مخالفة بعض أقوال أبى حنيفة وترجيح ما ذهب إليه غيره .

وقد تخرج الطحاوى بكثير من الشيوخ حتى أربى عددهم على ثلاثمائة شيخ ، وأثنى عليه غير واحد من أهل العلم .

قال ابن يونس : كان الطحاوى ثقة ثبتاً فقيهاً عاقلاً ، لم يخلف مثله .

وهذه الشهادة كافية وحدها .. فإن أقوال ابن يونس فى المصريين هى أوثق الأقوال .

وقال الذهبى فى تاريخه الكبير : الفقيه المحدث الحافظ أحد الأعلام ، وكان ثقة ثبتاً فقيهاً عاقلاً .

وقال ابن كثير فى البداية والنهاية : هو أحد الثقات الأثبات ، والحفاظ الجهابذة .

وأما تصانيفه – رحمه الله – فهى غاية فى التحقيق والجمع وكثرة الفوائد وحسن العرض .

فمن مصنفاته « العقيدة الطحاوية » ، وهى التى نقدمها مع منتخبات من شرحها ، وهى على صغر حجمها غزيرة النفع ، سلفية المنهج ، من غير حيدة عنه ، ولا تمحل .

ومنها كتاب « معانى الآثار » ويعرض فيه الأبحاث الفقهية مقرونة بدليلها ، ويذكر فى غضون بحثه المسائل الخلافية ، ويسرد أدلتها ويناقشها ، ثم يرجح ما استبان له من الصواب منها ، وهذا الكتاب يدرب صاحب العلم على التفقه ويربى فيه ملكة الإستنباط ، ويكون له شخصية مستقلة . ومنها : كتاب « مشكل الآثار » وهو كتاب جليل القدر عظيم النفع ، يسوق الأحاديث التى تبدو لأول وهلة أنها متعارضة ، ثم يأخذ فى دفع التعارض بطريقة فذة ، وبراعة فائقة .
ومنها : مختصر فى الفقه على فروع الحنفية .

وكل هذه الكتب مطبوعة مشهورة ، وله تصانيف أخرى .

وقد توفى رحمه الله سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة .

وأما الشارح فهو العلامة صدر الدين على بن على بن محمد بن أبى العز الأذرعى الحنفى ، قاضى القضاة بدمشق ، ثم بالديار المصرية ، ثم بدمشق ، ولد سنة ٧٣١ هـ ، ومات سنة ٧٩٢ هـ ، وهو من تلامذة الحافظ بن كثير ، وله ترجمة فى الجزء الثالث من كتاب « الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » لابن حجر العسقلانى .

والذى يلاحظ ويلفت الإنتباه فى هذا الشرح : كثرة اعتماد ابن أبى العز - رحمه الله - على كلام الإمام ابن قيم الجوزية ، دون أن يشير صراحة إلى ذلك ، حتى إنه لينقل منه صفحات أحياناً ، مما ينبي عن طبيعة شخصيته المتحررة من التقليد ، المنتسبة إلى النهضة الإصلاحية التى قادها شيخ الإسلام ابن تيميه - رحمة الله .

ولكن الأستاذ عبد المنعم صالح رأى أنه من تمام إتقان دوره الإصلاحى فى مسيرة المد الإسلامى الحاضر أن يقوم بتهذيب وتنقيح وإختصار بعض الفصول فى هذا الكتاب ، ليكون أكثر تناسباً مع الحاجة التربوية الملحة لناشئة الإسلام وشبابه ، ويكون كذلك أيسر فهماً وأعمق تأثيراً فى نفوس شباب الدعوة الإسلامية فحذف كثيراً من حوار الشارح مع أصحاب البدع المضمحلة التى تكاد أن تنقرض من المعتزلة وأمثالهم ، مع التخلص من بعض التكرار أو الإطناب ، والإكتفاء بشواهد قليلة توضح المقصود إذ أكثر الشارح من إيراد الشواهد وأما كلام الإمام الطحاوى فقد تم إيراده كاملاً دونما نقص حرف واحد .

و « دار الوفاء » إذ ترى فى تمام رسالتها أن تسهم فى تقديم هذا الكتاب إلى الشعوب الإسلامية والمسلمين فى أنحاء المعمورة سائلين الله تعالى أن ينفع به الإسلام والمسلمين وحتى يسهل على القارىء أن يستوعب المعانى المختلفة فى الكتاب ويميز بين المتن والشرح فى الطباعة فقد كان أصل متن الإمام الطحاوى بحرف كبير أسود فى بدايته نقطة سوداء كبيرة ، وكان كلام الشارح بحرف صغيراً أبيض ، ومتون الأحاديث النبوية الشريفة بحرف صغير أسود ، والآيات مستلة من المصحف بحركات كاملة وبعلامات التلاوة . والله من وراء القصد .

الناشر

شَرْحُ العَقِيدَةُ الطَّحَاوِيَّةُ

قال الشيخ العلامة قاضيَ القضاة علي بن ابي العِز رحمه الله :

الحمد لله ، نستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور انفسنا ، ومن سيئات اعمالنا . من يَهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له . ونشهد ان لا اله الا الله وحده ، لا شريك له ، ونشهد ان سيدنا محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى اله وصحبه وسلم تسليما .

اما بعد .

فان علم أُصول الدين اشرف العلوم ، وحاجة العباد اليه فوق كل حاجة ، لانه لا حياة للقلوب الا بان تعرف ربها ومعبودها وفاطرها ، باسمائه وصفاته وافعاله .

ومن المحال ان تَستقل العقول بمعرفة ذلك وادراكه على التفصيل ، فاقتضت رحمة العزيز الرحيم بعث الرسل به معرفين ، واليه داعين ، ولمن اجابهم مبشرين ، ولمن خالفهم منذرين ، وجعل مفتاح دعوتهم ، وزبدة رسالتهم : معرفة المعبود سبحانه ، باسمائه وصفاته وافعاله ، اذ على هذه المعرفة تبنى مطالب الرسالة كلها ، من اولها الى اخرها .

ثم يتبع ذلك اصلان عظيمان :

احدهما : تعريف الطريق الموصل اليه ، وهي شريعته المتضمنة لامره ونهيه .

والثاني : تعريف السالكين ما لهم بعد الوصول اليه من النعيم المقيم .

فأعرفُ الناس بالله عز وجل ؛ أتبعُهم للطريق الموصل اليه ، واعرفهم بحال السالكين عند القدوم عليه ، ولهذا سمى الله ما انزل على رسوله روحا ، لتوقف الحياة الحقيقية عليه ، ونورا ، لتوقف الهداية عليه ، فقال الله تعالى :

(يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ) ١٥/ غافر .

وقال تعالى :

(وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) الشورى

ولا ريب انه يجب على كل احد أن يؤمن بما جاء به الرسول ايمانا عاما مجملا ، واما ما يجب على اعيان المؤمنين فهذا يتنوع بتنوع حاجاتهم

ومعرفتهم ، ولا يجب على العاجز عن سماع بعض العلم ، او عن فهم دقيقه ، ما يجب على القادر على ذلك . ويجب على من سمع النصوص وفهمها من علم التفصيل ما لا يجب على من لم يسمعها ، ويجب على المفتي المحدِّث والحاكم ما لا يجب على من ليس كذلك

وينبغي ان يُعرف ان عامة من ضل في هذا الباب او عجز فيه عن معرفة الحق ، فانما هو لتفريطه في اتباع ما جاء به الرسول ، وترك النظر والاستدلال الموصل الى معرفته ، فلما اعرضوا عن كتاب الله : ضلوا ، كما قال تعالى :

(فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ) ١٢٢ـ١٢٦/ طه

وقد نزّه الله تعالى نفسه عما يصف به العباد ، الا ما وصفه به المرسلون ، بقوله سبحانه : (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) ١٨٠ ـ ١٨٢/ الصافات

فنزه نفسه سبحانه عما يصفه به الكافرون ، ثم سلم على المرسلين ، لسلامة ما وصفوه به من النقائص والعيوب ، ثم حمد نفسه على تفرده بالاوصاف التي يستحق عليها كمال الحمد .

ومضى على ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم خيرُ القرون ، وهم الصحابة والتابعون لهم باحسان ، يوصي به الاولُ الآخرَ ، ويقتدي فيه اللاحقُ بالسابق ، وهم في ذلك كله بنبيهم محمد صلى الله عليه وسلم مقتدون ، وعلى منهاجه سالكون ، كما قال تعالى في كتابه العزيز :

(قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي) ١٠٨/ يوسف

ثم خلف من بعدهم خلف اتبعوا اهواءهم ، وافترقوا ، فاقام الله لهذه الامة من يحفظ عليها اصول دينها ، كما اخبر الصادق صلى الله عليه وسلم : « لا تزال طائفة من امتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم » .

وممن قام بهذا الحق من علماء المسلمين : الامام ابو جعفر احمد بن محمد بن سلامة الازدي الطحاوي ، فاخبر رحمه الله عما كان عليه السلف ، ونقل عن الامام ابي حنيفة النعمان ابن ثابت الكوفي ، وصاحبيه ـ ابي يوسف يعقوب بن ابراهيم الحِميري الانصاري ، ومحمد بن الحسن الشيباني رضي الله عنهم ـ ما كانوا يعتقدون من اصول الدين ، ويدينون به رب العالمين .

وكلما بَعُدَ العهدُ : ظهرت البدع ، وكثر التحريف ، الذي سماه اهله

تأويلا ليُقبل ، وقَلّ من يهتدي الى الفرق بين التحريف والتأويل ، اذ قد يسمى صرف الكلام عن ظاهره الى معنى آخر يحتمله اللفظ في الجملة « تأويلا » وان لم يكن ثم قرينة توجب ذلك ، ومن هنا حصل الفساد ، فاذا سموه تأويلا قُبِلَ وراجَ على من لا يهتدي الى الفرق بينهما .

وكلٌّ من التحريف والانحراف على مراتب ، فقد يكون كفرا ، وقد يكون فِسقا ، وقد يكون معصية ، وقد يكون خطأ .

فالواجب : اتّباع المرسلين ، واتباع ما انزل الله عليهم ، وقد ختمهم الله بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فجعله آخرَ الانبياء ، وجعل كتابه مهيمنا على ما بين يديه من كتب السماء ، وجعل طاعتَه طاعة له ، ومعصيته معصية له ، واقسم بنفسه انهم لا يؤمنون حتى يحكموه فيما شجر بينهم .

وانما وقع التقصير من كثير من المسلمين ، فلم يعلم ما جاء به الرسول في كثير من الامور الكلامية الاعتقادية ، ولا في كثير من الاحوال العبادية ، ولا في كثير من الامارة السياسية ، او نَسَبوا الى شريعة الرسول ، بظنهم وتقليدهم ، ما ليس منها ، واخرجوا عنها كثيرا مما هو منها .

فبسبب جهل هؤلاء وضلالهم وتفريطهم ، ولَبْس عدوان اولئك وجهلهم ونفاقهم : كثر النفاق ، ودَرَسَ كثير من علم الرسالة .

وان كان العبد عاجزا عن معرفة بعض ذلك ، او العمل به ، فحسبه ان يسقط عنه اللوم لعجزه ، وعليه ان يفرح بقيام غيره به ، ويرضى بذلك ، ويَود ان يكون قائما به ، وان لا يؤمن ببعضه ويشرك ببعضه ، بل يؤمن بالكتاب كله ، وان يصان عن ان يدخل فيه ما ليس منه ، من رواية او رأي ، او يتبع ما ليس من عند الله ، اعتقادا او عملا ، كما قال تعالى :

(وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ) ٤٢/ البقرة

وقد احببت ان اشرح عقيدة الامام الطحاوي ، سالكا طريق السلف في عباراتهم ، وانسج على منوالهم ، متطفلا عليهم ، لعلّي ان أُنظمَ في سلكهم ، وأُدخل في عِدادهم ، واحشر في زمرتهم ، (مع الذين انعمَ الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن اولئك رفيقا) .

وقد ابتدأ الشيخ الطحاوي كلامه فقال رحمه الله :

● (نقول في توحيد الله معتقدين بتوفيق الله : إن الله واحد لا شريك له) .

فأقول : اعلم ان التوحيد اول دعوة الرسل ، واول منازل الطريق ، واول

مقام يقوم فيه السالك الى الله . قال تعالى :

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ) ٥٩/ الاعراف

وقال هود عليه السلام لقومه :

(ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ) ٦٥/ الاعراف .

وهو قول صالح عليه السلام ، وقول شعيب عليه السلام .

وقال تعالى :

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ) ٣٦/النحل .

وقال تعالى :

(وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ) ٢٥/ الانبياء

وقال صلى الله عليه وسلم : « **امرت ان اقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا اله الا الله ، وان محمداً رسول الله** » .

ولهذا كان الصحيح : ان اول واجب يجب على المكلف : شهادة ان لا اله الا الله .

فالتوحيد اول ما يدخل به المرء ان اراد الاسلام ، وهو اخر ما يخرج به من الدنيا ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « **من كان اخر كلامه : لا اله الا الله : دخل الجنة** » . فهو اول واجب واخر واجب .

ونعني به : توحيد الالهية ، فان التوحيد يتضمن ثلاثة انواع :

احدها : الكلام في الصفات .

والثاني : توحيد الربوبية ، وبيان ان الله وحده خالق كل شيء .

والثالث : توحيد الالهية ، وهو استحقاقه سبحانه وتعالى ان يعبد وحده لا شريك له .

اما الاول : فان نُفاة الصفات ادخلوا نفي الصفات في مُسَمّى التوحيد ، كالجَهْم بن صفوان ومَن وافقه ، وهذا النفي معلوم الفساد ، فان اثبات ذات مجردة عن جميع الصفات لا يتصور لها وجود في الخارج ، وانما الذهن قد يفرض المحال ويتخيله ، وهذا غاية التعطيل .

واما الثاني : فهو توحيد الربوبية ، كالاقرار بانه خالق كل شيء ، وهذا التوحيد حق لا ريب فيه ، ولم يذهب الى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم ، بل القلوب مفطورة على الاقرار به اعظم من كونها مفطورة على الاقرار بغيره من الموجودات ، كما قالت الرسل فيما حكى الله عنهم

(قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) ١٠/ ابراهيم .

واشهر من عرف تجاهله وتظاهره بانكار الصانع : فرعون ، وقد كان مستيقنا به في الباطن ، كما قال موسى :

(لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ) ١٠٢/ الاسراء .

وقال تعالى ، عنه وعن قومه :

(وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) ١٤/ النمل

فليس في الطوائف من يُثبت للعالَم صانعين متماثلين . ويستدل على ذلك بدليل« التمانع » وهو : انه لو كان للعالم صانعان ، فعند اختلافهما ، مثل ان يريد احدهما تحريك جسم وآخر تسكينه ، او يريد احدهما أحياءه والآخر اماتته ، فاما ان يحصل مُرادهما ، او مراد احدهما ، أو لا يحصل مراد واحد منهما ، والاول ممتنع ، لأنه يستلزم الجمع بين الضدين ، والثالث ممتنع ، لأنه يلزم خلو الجسم عن الحركة والسكون ، وهو ممتنع ويستلزم ايضا عجز كل منهما ، والعاجز لا يكون الها ، واذا حصل مراد احدهما دون الآخر :كان هذا هو الاله القادر ، والآخر عاجزا لا يصلح للالهية . وكثير من اهل النظر يزعمون ان دليل التمانع هو معنى قوله تعالى :

(لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) ٢٢/ الانبياء .

وسبب ذلك اعتقادهم ان توحيد الربوبية الذي قرروه هو توحيد الالهية الذي بينه القرآن ، ودعت اليه الرسل عليهم السلام ، وليس الامر كذلك ، بل التوحيد الذي دعت اليه الرسل ، ونزلت به الكتب ، هو توحيد الالهية المتضمن توحيد الربوبية ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، فان المشركين من العرب كانوا يُقرّون بتوحيد الربوبية ، وان خالق السموات والارض واحد ، كما اخبر تعالى عنهم بقوله :

(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) ٢٥/لقمان .

(قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

٨٤ ، ٨٥/ المؤمنون .

ومثل هذا كثير في القرآن ، ولم يكونوا يعتقدون في الاصنام انها مشاركة لله في خلق العالم ، بل كان حالهم فيها كحال امثالهم من مشركي الامم من الهند والترك وغيرهم ، يعتقدون ان هذه تماثيل قوم صالحين ، ويتخذونهم شفعاء ، ويتوسلون بهم الى الله ، وهذا كان اصل شرك العرب ، كما قال تعالى حكاية عن قوم نوح :

(وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا) ٢٣/ نوح .

وقد ثبت في صحيح البخاري ، وكتب التفسير ، ان هذه اسماء قوم صالحين في قوم نوح . فلما ماتوا : عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم ، ثم طال عليهم الامد ، فعبدوهم .

وهؤلاء كانوا مقرين بالصانع ، وانه ليس للعالَم صانعان ، ولكن اتخذوا هؤلاء شفعاء ، كما اخبر عنهم تعالى بقوله :

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ) ٣/ الزمر .

وقال تعالى :

(وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ) ١٨/ يونس .

وبهذا نعلم ان التوحيد المطلوب هو توحيد الالهية ، الذي يتضمن توحيد الربوبية ، قال تعالى :

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ
لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) ٣٠/ الروم .

وقال تعالى

﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾
مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ ٣١ ـ ٣٢/ الروم ..

والقرآن مملوء من تقرير هذا التوحيد وبيانه وضرب الامثال له ، ومن ذلك : انه يقرر توحيد الربوبية ، ويبين انه لا خالق الا الله ، وان ذلك مستلزم ان لا يعبد الا الله ، فيجعل الاول دليلا على الثاني ، اذ كانوا يسلمون في الاول ، وينازعون في الثاني ، فيبين لهم سبحانه : انكم اذا كنتم تعلمون انه لا خالق الا الله وحده ، وانه هو الذي يأتي العباد بما ينفعهم ، ويدفع عنهم ما يضرهم ، لا شريك له في ذلك ، فلم تعبدون غيره ، وتجعلون معه آلهة اخرى ؟ كقوله تعالى :

(قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ
بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ) ٥٩/ النمل .

ففي هذه الآيات يقول الله تعالى في آخر كل آية : (أإله مع الله) ، اي إله مع الله فعل هذا ؟ وهذا استفهام انكار ، يتضمن نفي ذلك ، وهم كانوا مقرين بانه لم يفعل ذلك غير الله ، فاحتج عليهم بذلك ، وليس المعنى انه استفهام ، هل مع الله اله ؟ كما ظنه بعضهم ، لان هذا المعنى لا يناسب سياق الكلام ، والقوم كانوا يجعلون مع الله آلهة اخرى ، كما قال تعالى :

(أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ) ١٩/ الانعام .

واذا كان توحيد الربوبية داخلا في التوحيد الذي جاءت به الرسل ، ونزلت به الكتب ، فليعلم ان دلائله متعددة ، كدلائل اثبات الصانع ، ودلائل صدق الرسول ، فان العلم كلما كان الناس اليه احوج كانت ادلته اظهر ، رحمة من الله بخلقه .

والقرآن قد ضرب الله للناس فيه من كل مثل ، وهي المقاييس العقلية المفيدة للمطالب الدينية ، لكن القرآن يبين الحق في الحكم والدليل ، فماذا بعد الحق الا الضلال ؟

واما ما كان من المقدمات المتفق عليها ، المعلومة بالضرورة ، فيَستدِل بها ، ولم يَحتج الى الاستدلال عليها .
ولما كان الشرك في الربوبية معلوم الامتناع عند الناس كلهم ، باعتبار اثبات خالقين متماثلين في الصفات والافعال ــ وانما ذهب بعض المشركين الى ان ثم خالقا خلق بعض العالم ، وكما يقول القدرية في نسبة الشر الى غير الله تعالى ، وكما يقول الفلاسفة في حركة الافلاك ــ فان هؤلاء يثبتون امورا محدثة بدون احداث الله اياها ، فهم مشركون في بعض الربوبية ، وكثير من مشركي العرب وغيرهم قد يظن في آلهته شيئا من نفع او ضر ، بدون ان يخلق الله ذلك .

فلما كان هذا الشرك في الربوبية موجودا في الناس : بين القرآن بطلانه ، كما في قوله تعالى : (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ) ٩٢/ المؤمنون .
فتأمل هذا البرهان الباهر ، بهذا اللفظ الوجيز الظاهر ، فان الاله الحق لا بد ان يكون خالقا فاعلا ، يوصل الى عابده النفع ، ويدفع عنه الضر ، فلو كان معه سبحانه اله آخر يشركه في ملكه ، لكان له خلق وفعل ، وحينئذ فلا يرضى تلك الشركة ، بل ان قدر على قهر ذلك الشريك وتفرده بالملك والالهية دونه فعل ، وان لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب بذلك الخلق ، كما ينفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض بملكه ، اذا لم يقدر المنفرد منهم على قهر الآخر والعلو عليه .
فلا بد من احد ثلاثة امور اما ان يذهب كل اله بخلقه وسلطانه ، واما ان يعلو بعضهم على بعض ، واما ان يكونوا تحت قهر ملك واحد يتصرف فيهم كيف يشاء ، ولا يتصرفون فيه ، بل يكون وحده هو الاله ، وهم العبيد المربوبون المقهورون .

وانتظام امر العالم كله واحكام امره من ادل الادلة على ان مُدبّره إله واحد ، وملك واحد ، ورب واحد ، لا إله للخلق غيره ، ولا رب لهم سواه ، كما قد دل دليل التمانع على ان خالق العالم واحد لا رب غيره ، فذلك تمانع في الفعل والايجاد ، وهذا تمانع في العبادة والالهية ، وكما يستحيل ان يكون للعالم ربان

خالقان متكافئان . كذلك يستحيل ان يكون لهم الهان معبودان .

فالعلم بان وجود العالم عن صانعين متماثلين ممتنع لذاته ، فكذا تبطل الهية اثنين ، فالآية الكريمة موافقة لما ثبت واستقر في الفِطر من توحيد الربوبية ، دالة مثبتة مستلزمة لتوحيد الالهية .

وقريب من معنى هذه الآية قوله تعالى :

(لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا) ٢٢/ الانبياء .

وقد ظن البعض ان هذا دليل التمانع الذي تقدم ذكره ، وغفلوا عن مضمون الآية ، فانه سبحانه اخبر انه لو كان فيهما آلهة غيره ، ولم يقل ارباب .

وايضا ، فانه قال : لفسدتا ، وهذا فساد بعد الوجود ، ولم يقل : لم يوجدا .

وتوحيد الالهية متضمن لتوحيد الربوبية ، دون العكس ، فمن لا يقدر على ان يخلق يكون عاجزا ، والعاجز لا يصلح ان يكون الها . قال تعالى :

(أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ) ١٩١/ الاعراف .

ثم التوحيد الذي دعت اليه رسل الله ونزلت به كتبه نوعان : **توحيد في الاثبات والمعرفة ، وتوحيد في الطلب والقصد .**

فالاول هو اثبات حقيقة ذات الرب تعالى وصفاته وافعاله واسمائه ، ليس كمثله شيء في ذلك كله ، كما اخبر عن نفسه ، وكما اخبر رسوله صلى الله عليه وسلم .

والثاني : وهو توحيد الطلب والقصد ، مثل ما تضمنته سورة :

(قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ) ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ / الكافرون .

وكذلك قوله تعالى : (قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ) ٦٤/ آل عمران .

وغالب سور القرآن متضمنة لنوعي التوحيد ، بل كل سورة في القرآن ، فان القرآن اما خبر عن الله واسمائه وصفاته ، وهو التوحيد العلمي الخبري ، واما دعوة الى عبادته وحده لا شريك له ، وخلع ما يعبد من دونه ، فهو التوحيد الارادي الطلبي ، واما امر ونهي والزام بطاعته ، فذلك من مكملات التوحيد ، واما خبر عن اكرامه لاهل توحيده ، وما فعل بهم في الدنيا ، وما يكرمهم به في الآخرة ، وهو جزاء توحيده ، واما خبر عن اهل الشرك ، وما فعل بهم في الدنيا

من النكال ، وما فعل بهم في العقبى من العذاب ، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد .

وقد شهد الله لنفسه بهذا التوحيد ، وشهدت له به ملائكته وانبياؤه ورسله . قال تعالى :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ ١٨ و ١٩ / ال عمران .

فتضمنت هذه الآية الكريمة اثبات حقيقة التوحيد ، والرد على جميع طوائف الضلال ، فتضمنت اجل شهادة واعظمها ، واعدلها واصدقها ، من اجل شاهد ، باجل مشهود به .

وعبارات السلف في « شهد » تدور على الحكم ، والقضاء ، والأعلام ، والبيان ، والأخبار . وهذه الاقوال كلها حق لا تَنافيَ بينها ، فان الشهادة تتضمن كلام الشاهد وخبره ، وتتضمن اعلامه واخباره وبيانه .

فلها اربع مراتب :

فاول مراتبها : علم ومعرفة واعتقاد لصحة المشهود به وثبوته .

وثانيها : تكلمه بذلك ، وان لم يعلم به غيره ، بل يتكلم بها مع نفسه ويتذكرها وينطق بها او يكتبها .

وثالثها : ان يُعْلِمَ غيرَه بما يشهد به ويخبره به ويبينه له .

ورابعها : ان يلزمه بمضمونها ويأمره به .

فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية والقيام بالقسط تضمنت هذه المراتب الاربع : علمه بذلك سبحانه ، وتكلمه به ، واعلامه واخباره لخلقه به ، وامرهم والزامهم به .

والمهم من هذه الشهادات الاربع : مرتبة الامر بذلك والالزام به ، فانه سبحانه شهد به شهادة من حكم به وقضى وامر والزم عباده به ، كما قال تعالى :

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ ٢٣/الاسراء .

وقال الله تعالى : ﴿ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ ٥١/ النحل .

ووجه استلزام شهادته سبحانه لذلك : انه اذا شهد انه لا اله الا هو ، فقد اخبر ونبأ واعلم وحكم وقضى ان ما سواه ليس باله ، وان الهية ما سواه باطلة ، فلا يستحق العبادة سواه ، كما لا تصلح الالهية لغيره ، وذلك يستلزم الامر باتخاذه وحده الها ، والنهي عن اتخاذ غيره معه الها ، وهذا يفهمه

المخاطب من هذا النفي والاثبات .

والحكم والقضاء بانه لا اله الا هو متضمن الالزام ، ولو كان المراد مجرد شهادة : لم يتمكنوا من العلم بها ، ولم ينتفعوا بها ، ولم تقم عليهم بها الحجة ، بل قد تضمنت البيان للعباد ودلالتهم وتعريفهم بما شهد به ، كما ان الشاهد من العباد اذا كانت عنده شهادة ولم يبينها ، بل كتمها لم ينتفع بها احد ، ولم تقم بها حجة .

واذا كان لا ينتفع بها الا ببيانها فهو سبحانه قد بينها غاية البيان بطرق ثلاثة : السمع ، والبصر ، والعقل .

اما السمع فبسمع آياته المتلوة المبينة لما عرَّفنا إيَّاه من صفات كماله كلها ، الوحدانية وغيرها ، غاية البيان ، كما قال تعالى

(هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ) ١٣٨/ال عمران .

وقال تعالى (فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ) ٩٢/المائدة .

وقال (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) ٤٤/النحل .

وكذلك السُّنة ، تأتي مبينة ومقررة لما دلّ عليه القرآن ، لم يحوجنا ربنا تعالى الى رأي فلان في اصول ديننا ، ولهذا تجد من خالف الكتاب والسنة مختلفين مضطربين ، بل قد قال تعالى (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) ٣/المائدة .

واما آياته العيانية الخَلقية : فالنظر فيها والاستدلال بها يدل على ما تدل عليه اياته القولية والسمعية ، والعقل يجمع بين هذه وهذه ، فيجزم بصحة ما جاءت به الرسل ، فتتفق شهادة السمع والبصر والعقل والفطرة .

فهو سبحانه لكمال عدله ورحمته واحسانه وحكمته ومحبته للعذر واقامة الحجة لم يبعث نبيا الا ومعه آية تدل على صدقه فيما اخبر به ، قال تعالى

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ)
٢٥/الحديد .

وقال تعالى (وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ) ٢٥/فاطر .

ومن اسمائه تعالى « المؤمن » وهو في احد التفسيرين : المصدق الذي يصدق الصادقين بما يقيم لهم من شواهد صدقهم . فانه لا بد ان يُري العِباد من الآيات الافقية والنفسية ما يبين لهم ان الوحي الذي بلغه رسل الله حق . قال تعالى

سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ٥٣/فصلت ، اي القرآن .

وذلك ان القرآن هو المتقدم في قوله .

(قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ) ٥٢/فصلت .

ثم قال : (او لم يكف بربك انه على كل شيء شهيد) .

فشهد سبحانه لرسوله بقوله ان ما جاء به حق ، ووعد انه يري العباد من آياته الفعلية الخلقية ما يشهد بذلك ايضا ، ثم ذكر ما هو اعظم من ذلك كله واجل ، وهو شهادته سبحانه بانه على كل شيء شهيد ، فان من اسمائه « الشهيد » الذي لا يغيب عنه شيء ، ولا يغرب عنه ، بل هو مطلع على كل شيء ، مشاهد له ، عليم بتفاصيله ، وهذا استدلال باسمائه وصفاته ، والاول استدلال بقوله وكلماته ، واستدلاله بالآيات الافقية والنفسية استدلال بافعاله ومخلوقاته .

● ثم قال الامام الطحاوي : (ولا شيء مثله)

وذلك ان اهل السنة قد اتفقوا على ان الله ليس كمثله شيء ، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في افعاله ولكن لفظ « التشبيه » قد صار في كلام الناس لفظا مجملا يراد به المعنى الصحيح ، وهو ما نفاه القرآن ودل عليه العقل ، من أن خصائص الرب تعالى لا يوصف بها شيء من المخلوقات ، ولا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفاته ، و « ليس كمثله شيء » رد على الممثلة المشبهة ، و « وهو السميع البصير » رد على النفاة المعطلة .

فمن جعل صفات الخالق مثل صفات المخلوق فهو المشبه المبطل المذموم ، ومن جعل صفات المخلوق مثل صفات الخالق ، فهو نظير النصارى في كفرهم .

ومن خلال نفي التشبيه دخل التعطيل الذي لا يُثبت لله اسماءه اذ يقولون لا نقول له قدرة ، ولا علم ، ولا حياة ، لأن العبد موصوف بهذه الصفات ، ولازم هذا القول انه لا يقال له قدير ، عليم ، حي ، لأن العبد يسمى بهذه الاسماء ، وكذلك كلامه وسمعه وبصره وغير ذلك ، مع انهم يوافقون اهل السنة على انه موجود ، عليم ، قدير ، حي ، والمخلوق يقال له : موجود حي عليم ، ولا يقال هذا تشبيه يجب نفيه

وهذا مما دل عليه الكتاب والسنة وصريح العقل ، ولا يخالف فيه عاقل ، فان الله سمى نفسه باسماء ، وسمى بعض عباده بها . وكذلك سمى صفاته باسماء وسمى ببعضها صفات خلقه ، فسمى نفسه حيا ، رؤوفا ، رحيما ، عليما ، سميعا ، بصيرا ، عزيزا ، متكبرا ، جبارا ، فقال

(يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ) ١٩/الروم .

وقال : (بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) ١٢٨/التوبة .

وقال . (وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ) ٢٨/الذاريات .

وقال : (فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا) ٢/الانسان .

وقال : (قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ) ٥١/يوسف .

وقال : (كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ) ٣٥/غافر .

ومعلوم انه لا يماثل الحيُّ الحيَّ ، ولا العليمُ العليمَ ، ولا العزيزُ العزيزَ . وكذلك سائر الاسماء،ونظائر هذا كثيرة ، وهذا لازم لجميع العقلاء .

فان نفى احد صفة من صفاته التي وصف بها سبحانه نفسه ، كالرضا والغضب ، والحب والبغض ، ونحو ذلك ، وزعم ان ذلك يستلزم التشبيه والتجسيم ، قيل له فانت تثبت له الارادة والكلام والسمع والبصر ، مع ان ما تثبته له ليس مثل صفات المخلوقين ، فقل فيما نفيته واثبته الله ورسوله مثل قولك فيما اثبتّه ، اذ لا فرق بينهما .

فان قال انا لا اثبت شيئا من الصفات .

قيل له فانت تثبت له الاسماء الحسنى ، مثل : حي ، عليم ، قدير ، والعبد يسمى بهذه الاسماء ، وليس ما يثبت للرب من هذه الاسماء مماثلا لما يثبت للعبد ، فقل في صفاته نظير قولك في مسمى اسمائه .

واصل الخطأ والغلط توهمهم ان هذه الاسماء العامة الكلية يكون مسماها المطلق الكلي هو بعينه ثابتا في هذا المعيّن وهذا المعين ، وليس كذلك ، فان ما يوجد في الخارج لا يوجد مطلقا كليا ، بل لا يوجد الا معينا مختصا ، وهذه الاسماء اذا سُمّي الله بها : كان مسماها مختصا به ، واذا سُمّي بها العبد كان مسماها مختصا به ، فوجود الله وحياته لا يشاركه فيها غيره ، بل وجود هذا الموجود المعين لا يشاركه فيه غيره ، فكيف بوجود الخالق ؟ الا ترى انك تقول هذا هو ذاك ، فالمشار اليه واحد ، لكن بوجهين مختلفين .

وبهذا ومثله يتبين لك ان المشبهة اخذوا هذا المعنى وزادوا فيه على الحق فضلوا ، وان المعطلة اخذوا نفي المماثلة بوجه من الوجوه وزادوا فيه على الحق حتى ضلوا ، وان كتاب الله دل على الحق المحض الذي تعقله العقول السليمة الصحيحة ، وهو الحق المعتدل الذي لا انحراف فيه ، فالنفاة احسنوا في تنزيه الخالق سبحانه عن التشبيه بشيء من خلقه ، ولكن اساءوا في نفي المعاني الثابتة لله تعالى في نفس الامر ، والمشبهة احسنوا في اثبات الصفات ولكن اساءوا بزيادة التشبيه .

● قال الطحاوي : (ولا شيء يُعْجِزه) .

وذلك لكمال قدرته .

قال تعالى (أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) ١٢/الطلاق .

وقال سبحانه .

وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا) ٤٤/فاطر .

وقال عز وجل :

(وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ) ٢٥٥/ البقرة .

وقوله : لا يؤوده : اي لا يُثقله ولا يعجزه . فهذا النفي لثبوت كمال ضده ، وكذلك كل نفي يأتي في صفات الله تعالى في الكتاب والسنة انما هو الثبوت كمال ضده ، كقوله تعالى : (وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) ٤٩/ الكهف ، لكمال عدله .

وكقوله : (لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ)
٣/سبأ ، لكمال علمه .

وقوله :(لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ) ٢٥٥/ البقرة ، لكمال حياته وقيوميته والا فالنفي الصرف لا مدح فيه .

● قال : (ولا إله غيره)

وهذه كلمة التوحيد التي دعت اليها الرسل ، واثبات التوحيد بهذه الكلمة باعتبار النفي والاثبات المقتضي للحصر ، فان الاثبات المجرد قد يتطرق اليه الاحتمال . ولهذا ـ والله اعلم ـ لما قال تعالى (والهكم اله واحد) قال بعده : (لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ) ١٦٣/البقرة .

وذلك انه قد يخطر ببال احد خاطر شيطاني ، هَبْ ان الهنا واحد ، فلغيرنا اله غيره ، فقال تعالى (لا اله الا هو) .

●قال الطحاوي : (قديم بلا ابتداء ، دائم بلا انتهاء) .

وذلك هو قول الله تعالى (هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ) ٣/الحديد . وقال صلى الله عليه وسلم « **اللهم انت الاول فليس قبلك شيء ، وانت الآخِر فليس بعدك شيء** » .

فقول الشيخ (قديم بلا ابتداء ، دائم بلا انتهاء) هو معنى اسمه (الاول والآخر) .

والعلم بثبوت هذين الوصفين مستقر في الفطرة ، فان الموجودات لا بد ان تنتهي الى واجب الوجود لذاته ، قطعا للتسلسل ، فانت تشاهد حدوث الحيوان والنبات والمعادن وحوادث الجو ، كالسحاب والمطر ، وغير ذلك ، وهذه الحوادث وغيرها ليست ممتنعة ، فان الممتنع لا يوجد ، ولا واجبة الوجود

بنفسها ، فان واجب الوجود بنفسه لا يقبل العَدم ، وهذه كانت معدومة ثم وجدت ، فعدمها ينفي وجودها ، ووجودها ينفي امتناعها ، وما كان قابلا للوجود والعدم لم يكن وجوده بنفسه ، كما قال تعالى :

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ) ٣٥/ الطور .

يقول سبحانه : أَحَدَثوا من غير مُحدِث ، ام هم احدثوا انفسهم ؟ ومعلوم ان الشيء المحدث لا يوجد نفسه . فالممكن الذي ليس له من نفسه وجود ولا عدم لا يكون موجودا بنفسه ، بل ان حصل ما يوجده والا كان معدوما ، وكل ما امكن وجوده بدلا من عدمه ، وعدمه بدلا عن وجوده ، فليس له من نفسه وجود ولا عدم لازم .

واذا تأمل الفاضل غاية ما يذكره المتكلمون والفلاسفة من الطُرق العقلية : وجد الصواب منها يعود الى بعض ما ذكر في القرآن من الطرق العقلية باوضح عبارة واوجزها ، وفي طرق القرآن من تمام البيان والتحقيق ما لا يوجد عندهم مثله ، قال تعالى :

(وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا) ٣٣/ الفرقان .

ولا نقول : لا ينفع الاستدلال بالمقدمات الخفية والادلة النظرية ، فان الخفاء والظهور من الامور النسبية ، فربما ظهر لبعض الناس ما خفي على غيره ، ويظهر للانسان الواحد في حال ما خفي عليه في حال اخرى . وايضا : فالمقدمات وان كانت خفية فقد يُسَلِّم بها بعض الناس وينازع فيما هو اجَلّ منها ، وقد تفرح النفس بما علمته بالبحث والنظر ما لا تفرح بما علمته من الامور الظاهرة ، ولا شك ان العلم باثبات الصانع ووجوب وجوده امر ضروري فطري ، وان كان يحصل لبعض الناس من الشُبَه ما يخرجه الى الطرق النظرية .

وقد ادخل المتكلمون في اسماء الله تعالى « القديم » وليس هو من اسماء الله تعالى الحسنى ، فان القديم في لغة العرب التي نزل بها القرآن ، هو المتقدم على غيره ، فيقال : هذا قديم ، للعتيق ، وهذا حديث ، للجديد ، ولم يستعمل هذا الاسم الا في المتقدم على غيره ، لا فيما يسبقه عدم ، كما قال تعالى :

(حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ) ٣٩/يس .

والعُرجون القديم : الذي يبقى الى حين وجود العرجون الثاني ، وهو العِذق الحامل للرُطَب في النخلة ، فاذا وجد الحديث قيل للاول : قديم .

وقال تعالى :

(وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ) ١١/ الاحقاف ، اي متقدم في الزمان .

واما ادخال « القديم » في اسماء الله تعالى فهو مشهور عند اكثر اهل الكلام ، وقد انكر ذلك كثير من السلف والخلف ، منهم : ابن حزم ، ولا ريب انه اذا كان مستعملا في نفس التقدم ، فان ما يقدم على الحوادث كلها فهو احق بالتقدم من غيره ، لكن اسماء الله تعالى هي الاسماء الحسنى التي تدل على خصوص ما يمدح به ، والتقدم في اللغة مطلق لا يختص بالتقدم على الحوادث كلها ، فلا يكون من الاسماء الحسنى ، وجاء الشرع باسمه « الاول » وهو احسن من « القديم » لأنه يشعر بان ما بعده آيل اليه وتابع له بخلاف القديم ، والله تعالى له الاسماء الحسنى .

● وقوله : (لا يفنى ولا يبيد)

اقرار بدوام بقائه سبحانه وتعالى ، قال عز من قائل: (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) ٢٧،٢٦ / الرحمن . والفناء والبيد متقاربان في المعنى ، والجمع بينهما في الذكر للتأكيد ، وهو ايضا مقرر ومؤكد لقوله : دائم بلا انتهاء .

● قال : (ولا يكون الا ما يريد) .

وهذا رد لقول القدرية والمعتزلة ، فانهم زعموا ان الله اراد الايمان من الناس كلهم ، والكافر اراد الكفر . وقولهم فاسد مردود ، لمخالفته الكتاب والسنة والمعقول الصحيح ، وهي مسألة القَدَر المشهورة ، وسيأتي لها زيادة بيان ان شاء الله تعالى .

وسموا « قَدَرية » لانكارهم القدر ، وكذلك تُسمى الجَبْرية المحتجون بالقدر : قدرية ايضا ، والتسمية على الطائفة الاولى اغلب .

واما اهل السنة فيقولون : ان الله وان كان يريد المعاصي قدراً ، فهو لا يحبها ولا يرضاها ولا يأمر بها ، بل يبغضها ويسخطها ويكرهها وينهى عنها ، وهذا قول السلف قاطبة ، فيقولون : ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .

ان المحققين من اهل السنة يقولون : الارادة في كتاب الله نوعان : ارادة قدرية كونية خلقية ، وارادة دينية امرية شرعية ، فالارادة الشرعية هي المتضمنة للمحبة والرضا ، والكونية هي المشيئة الشاملة لجميع الحوادث .

وهذا كقوله تعالى :

(فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ) ١٢٥ / الانعام .

وقوله تعالى عن نوح عليه السلام (ولا ينفعكم نصحي ان اردت ان انصح لكم ان كان الله يريد ان يغويكم) ٣٤ / هود .

وقوله تعالى (وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ) ٢٥٣ / البقرة

واما الارادة الدينية الشرعية الامرية فكقوله تعالى
(يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ) ١٨٥/ البقرة .

وقوله تعالى :
(وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا) ٢٧/ النساء.

فهذه الارادة هي المذكورة في مثل قول الناس لمن يفعل القبائح هذا يفعل ما لا يريده الله ، اي ما لا يحبه ولا يرضاه ولا يأمر به .

واما الارادة الكونية فهي الارادة المذكورة في قول المسلمين . ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

والفرق ثابت بين ارادة المريد ان يفعل ، وبين ارادته من غيره ان يفعل ، فاذا اراد الفاعل ان يفعل فعلا فهذه الارادة معلقة بفعله ، واذا اراد من غيره ان يفعل فعلا ، فهذه الارادة لفعل الغير ، وكلا النوعين معقول للناس ، والامر يستلزم الارادة الثانية دون الاولى ، فالله تعالى اذا امر العباد بامر فقد يريد اعانة المأمور على ما أُمِر به ، وقد لا يريد ذلك ، وان كان مريدا منه فعله ، وهو سبحانه ــ اذ امر فرعون وابا لهب وغيرهما بالايمان ــ كان قد بين لهم ما ينفعهم وما يصلحهم اذا فعلوه ، ولا يلزم اذا امرهم ان يعينهم .

وكما انه يمكن في حق المخلوق الحكيم ان يأمر غيره بامر ولا يعينه عليه ، فالخالق اولى بامكان ذلك في حقه مع حكمته ، فمن امره واعانه على فعل المأمور : كان ذلك المأمور به قد تعلق به خَلقه وامره ، فكان مرادا بجهة الخلق ومرادا بجهة الامر ، ومن لم يُعِنه على فعل المأمور : كان ذلك المأمور قد تعلّق به امره ولم يتعلق به خلقه ، لعدم الحكمة المقتضية لتعلق الخلق به ، ولحصول الحكمة المقتضية لخلق ضده ، وخلق احد الضدين ينافي خلق الضد الآخر ، فان خلق المرض ــ الذي يحصل به ذل العبد لربه ودعاؤه وتوبته وتكفير خطاياه ويرقّ قلبه به ويذهب عنه الكبرياء ــ يضاد خلق الصحة التي لا تحصل معها هذه المصالح ، وتفصيل حكمة الله في خلقه وامره تعجز عن معرفتها عقول البشر .

● قال الطحاوي : (لا تبلغه الاوهام ، ولا تدركه الأفهام) .

وهو معنى قوله الله تعالى : (وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا) ١١٠/طه .

قال الجوهري في صحاح اللغة : توهمت الشيء : ظننته ، وفهمت الشيء علمته .

فمراد الشيخ رحمه الله : انه لا ينتهي اليه وهم ، ولا يحيط به علم .

قيل : الوهم ما يُرجى كونه ، اي يُظن انه على صيغة كذا ، والفهم هو ما يحصله العقل ويحيط به ، والله تعالى لا يعلم كيف هو سبحانه الا هو سبحانه ، وانما نعرفه سبحانه بصفاته ، وهو انه احد ، صمد ، لم يلد ولم يولد .

● قال : (ولا يشبه الأنام) .

وهذا رد لقول المشبهة ، الذين يشبهون الخالق بالمخلوق ، سبحانه وتعالى .

قال عز وجل : (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ) ١١/ الشورى .

وليس المراد نفي الصفات كما يقول أهل البدع ، فمن كلام ابي حنيفة رحمه الله في الفقه الاكبر : لا يشبه شيئا من خلقه . ثم قال بعد ذلك : وصفاته كلها خِلاف صفات المخلوقين ، يعلم لا كعلمنا ، ويقدر لا كقدرتنا ، ويرى لا كرؤيتنا .

وقال نُعَيم بن حمّاد المحدِّث الثقة : من شَبّه الله بشيء من خلقه فقد كفر ، ومن انكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصفَ اللهُ بهِ نفسَه ولا رسولُه تشبيه .

والمشهور من استعمال هذا اللفظ عند علماء السنة المشهورين : انهم لا يريدون بنفي التشبيه نفي الصفات ، ولا يصفون به كل من اثبت الصفات ، بل مرادهم انه لا يشبه المخلوق في اسمائه وصفاته وافعاله ، كما تقدم من كلام ابي حنيفة ، وهذا معنى قوله تعالى في الآية المتقدمة ، فقد نفى الله تعالى المثل واثبت الوصف .

وسيأتي في كلام الطحاوي اثبات الصفات ، تنبيها على ان نفي التشبيه لا يستلزم نفي الصفات .

ومما يوضح هذا : ان العلم الالهي لا يجوز ان يُستدلّ فيه بقياس تمثيلي يستوي فيه الاصل والفرع ، ولا بقياس شمولي يستوي افراده ، فان الله سبحانه ليس كمثله شيء ، فلا يجوز ان يمثل بغيره ، ولا يجوز ان يدخل هو وغيره تحت قضية كلية يستوي افرادها . ولهذا لما سلكت طوائف المتفلسفة والمتكلمة مثل هذه الاقيسة في المطالب الالهية : لم يصلوا بها الى اليقين ، بل تناقضت ادلتهم ، وغلب عليهم الاضطراب .

ولكن يُستعمل في ذلك قياس « الأوْلى » سواء كان تمثيلا او شمولا ، كما قال تعالى : ولله المثل الاعلى ، مثل ان يعلم ان كل كمال ثبت للممكن او للمُحدَث ، لا نقص فيه بوجه من الوجوه ــ وهو ما كان كمالا للوجود غير مستلزم للعدم بوجه ــ فالواجب القديم اولى به . وكل كمال لا نقص فيه بوجه من الوجوه ، ثبت نوعه للمخلوق والمربوب المدبر ، فانما استفاده من خالقه وربه ومدبّره ، وهو احق به منه . وان كل نقص وعيب في نفسه ــ وهو ما تضمن سلب هذا الكمال ، اذا وجب نفيه عن شيء من انواع المخلوقات والممكنات والمحدثات ــ فانه يجب نفيه عن الرب تعالى بطريق الاولى .

● واما قوله : (حي لا يموت ، قيّوم لا ينام) .

فذلك هو قول الله تعالى :
(اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ) ٢٥٥ / البقرة .

فنفي السنة والنوم دليل على كمال حياته وقيوميته .

وقال صلى الله عليه وسلم : « **ان الله لا ينام ، ولا يَنبغي له ان ينام** » .

فلما نفى الشيخ رحمه الله التشبيه : اشار الى ما تقع به التفرقة بينه وبين خلقه ، بما يتصف به تعالى دون خلقه . فمن ذلك . انه حي لا يموت ، لان صفة الحياة الباقية مختصة به تعالى ، دون خلقه ، فانهم يموتون . ومنه : انه قيوم لا ينام ، اذ هو مختص بعدم السنة والنوم ، دون خلقه ، فانهم ينامون . وفي ذلك اشارة الى ان نفي التشبيه ليس المراد به نفي الصفات ، بل هو سبحانه موصوف بصفات الكمال ، لكمال ذاته ، فالحي بحياة باقية لا يشبه الحي بحياة زائلة ، ولهذا كانت الحياة الدنيا متاعا ولهوا ولعبا:

(وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ) ٦٤ / العنكبوت .

فالحياة الدنيا كالمنام ، والحياة الآخرة كاليقظة ، ولا يقال فهذه الحياة الآخرة كاملة ، وهي للمخلوق ، لأنا نقول : الحي الذي الحياة من صفات ذاته اللازمة لها هو الذي وَهَبَ المخلوقَ تلك الحياة الدائمة ، فهي دائمة بادامة الله لها ، لا ان الدوام وصف لازم لها لذاتها ، بخلاف حياة الرب تعالى . وكذلك سائر صفاته ، فصفات الخالق كما يليق به ، وصفات المخلوق كما يليق به .

واعلم ان هذين الاسمين (الحي القيوم) مذكوران في القرآن ، معا في ثلاث سور ، وهما من اعظم اسماء الله الحسنى ، حتى قيل : انهما الاسم الاعظم ، فانهما يتضمنان اثبات صفات الكمال اكمل تَضَمُّنٍ واصدَقه ، ويدل (القيوم) على معنى الازلية والابدية ما لا يدل عليه لفظ (القديم) . ويدل ايضا على كونه موجودا بنفسه ، وهو معنى كونه واجب الوجود . واقترانه بالحي يستلزم سائر صفات الكمال ، ويدل على بقائها ودوامها ، وانتفاء النقص والعدم عنها أزلا وابدا ، ولهذا كان قوله : (الله لا اله الا هو الحي القيوم) اعظم آية في القرآن ، كما ثبت ذلك في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم .

فعلى هذين الاسمين مدار الاسماء الحسنى كلها ، واليها ترجع معانيها ، فان الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال ، ولا يتخلف عنها صفة منها الا لضعف الحياة فاذا كانت حياته تعالى اكمل حياة واتمها : استلزم اثباتها اثبات كل كمال يضادّ نفيه كمال الحياة . و (القيوم) متضمن كذلك كمال غناه ، وكمال قدرته ، فانه القيوم بنفسه ، فلا يحتاج الى غيره بوجه من الوجوه .

● **قال الطحاوي : (خالقٌ بلا حاجة ، رازق بلا مؤونة) .**

فقد قال تعالى :

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) ٥٦ و٥٧ و٥٨/الذاريات.

وقال : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ) ١٥/فاطر .

وقال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تعالى من الحديث القدسي :

« يا عبادي : لو ان اوّلكم وآخركم ، وانسكم وجنكم ، كانوا على اتقى قلب رجل منكم ، ما زاد ذلك في ملكي شيئا . يا عبادي لو ان اولكم وآخركم ، وانسكم وجنكم ، كانوا على افجر قلب رجل واحد منكم : ما نقص ذلك في ملكي شيئا » . رواه مسلم .

وقوله بلا مؤونة : بلا ثقل ولا كلفة .

● ثم قال : (مميتٌ بلا مخافة ، باعثٌ بلا مَشقّة) .

وذلك ان الموت صفة وجودية ، خلافا للفلاسفة ومن وافقهم . قال تعالى : (ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) ٢/الملك .

والعدم لا يوصف بكونه مخلوقا .

وفي الحديث انه : **« يُؤتى بالموت يوم القيامة على صورة كبش املح ، فيُذبح بين الجنة والنار »** وهو وان كان عرضا ، فالله تعالى يقلبه عينا .

وورد في الاعمال انها توضع في الميزان ، والاعيان هي التي تقبل الوزن دون الاعراض . وورد في سورة البقرة وآل عمران : انهما يوم القيامة **« يُظلان صاحبهما كأنهما غمامتان ، او غيابتان ، او فِرقان من طيرٍ صوافّ »** وفي الصحيح : ان اعمال العباد تصعد الى السماء .

● قال : (ما زال بصفاته قديما قبل خلقه ، لم يَزْدَدْ ـ بكَونهم ـ شيئا لم يكن قبلهم من صفته ، كما كان بصفاته ازليًا ، كذلك لا يزال عليها ابديًا) .

اي ان الله سبحانه وتعالى لم يزل متصفا بصفات الكمال ، صفات الذات وصفات الفعل ، ولا يجوز ان يعتقد ان الله وُصِف بصفةٍ بعد ان لم يكن متصفا بها ، لأن صفاته سبحانه صفات كمال ، وفقدها صفة نقص ، ولا يجوز ان يكون قد حصل له الكمال بعد ان كان متصفا بضده .

والصفات الاختيارية وصفات الفعل كلها ازلية ايضا ، كالخلق والتصوير ، والاحياء والاماتة ، والقبض والبسط والطي ، والاستواء والاتيان والمجيء والنزول ، والغضب والرضا ، ونحو ذلك مما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ، وان كنا لا ندرك كنهه وحقيقته التي هي تأويله ، ولا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين باهوائنا ، ولكن اصل معناه معلوم لنا ، كما قال الامام مالك رضي الله عنه ، لما سئل عن قوله تعالى (ثم استوى على العرش) : كيف استوى ؟ فقال : **الاستواء معلوم ، والكيف مجهول** ، وان كانت هذه الاحوال تحدث في وقت دون وقت ، كما في حديث الشفاعة : **« انّ ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله »** لان

هذا الحدوث بهذا الاعتبار غير ممتنع ، ولا يطلق عليه انه حدث بعد ان لم يكن . الا ترى ان الكاتب في حال الكتابة هو كاتب بالفعل ، ولا يخرج عن كونه كاتبا في حال عدم مباشرته للكتابة ؟

وحلول الحوادث بالرب تعالى ، المنفي في علم الكلام المذموم : لم يُرد نفيه ولا اثباته في كتاب ولا سنة . وفيه اجمال ، فان اريد بالنفي انه سبحانه لا يحل في ذاته المقدسة شيء من مخلوقاته المحدثة ، ولا يحدث له وصف متجدد لم يكن ، فهذا نفي صحيح . وان اريد به نفي الصفات الاختيارية ، من انه لا يفعل ما يريد ، ولا يتكلم بما شاء اذا شاء ، ولا انه يغضب ويرضى ــ لا كأحد من الورى ــ ولا يوصف بما وصف به نفسه من النزول والاستواء والاتيان كما يليق بجلاله وعظمته ، فهذا نفي باطل .

وكذا مسألة « الصِفَة » : هل هي زائدة على الذات ام لا ؟ لفظها مجمل .

وكذلك لفظ « الغير » فيه اجمال : فقد يراد به ما ليس هو اياه ، وقد يراد به ما جاز مفارقته له .

ولهذا كان ائمة السُنّة لا يطلقون على صفات الله وكلامه انه « غيره » ولا انه « ليس غيره » لأن اطلاق الاثبات قد يشعر ان ذلك مباين له ، واطلاق النفي قد يشعر بانه هو ، اذ كان لفظ « الغير » فيه اجمال ، فلا يُطلق الا مع البيان والتفصيل ، فان أريد به ان هناك ذاتا مجردة قائمة بنفسها منفصلة عن الصفات الزائدة عليها ، فهذا غير صحيح ، وان اريد به ان الصفات زائدة على الذات التي يفهم من معناها غير ما يفهم من معنى الصفة ، فهذا حق ، ولكن ليس في الخارج ذات مجردة عن الصفات ، بل الذات الموصوفة بصفات الكمال الثابتة لها لا تنفصل عنها ، وإنما يعرض للذهن ذات وصفة ، كل وحده ، ولكن ليس في الخارج ذات غير موصوفة ، فان هذا محال ، ولو لم يكن الا صفة الوجود فانها لا تنفك عن الوجود ، وان كان الذهن يفرض ذاتا ووجودا ، يتصور هذا وحده ، وهذا وحده ، لكن لا ينفك احدهما عن الآخر في الخارج .

وقد يقول بعضهم : الصفة لا عين الموصوف ولا غيره . وهذا له معنى صحيح ، وهو . ان الصفة ليست عين ذات الموصوف التي يفرضها الذهن مجردة بل هي غيرها ، وليست غير الموصوف ، بل الموصوف بصفاته واحد غير متعدد . فاذا قلت : اعوذ بالله ، فقد عُذت بالذات المقدسة الموصوفة بصفات الكمال المقدسة الثابتة التي لا تقبل الانفصال بوجه من الوجوه ، واذا قلت : اعوذ بعزة الله ، فقد عذت بصفة من صفات الله ، ولم تعذ بغير الله . وهذا المعنى يفهم من لفظ « الذات » فان « ذات » في اصل معناها لا تستعمل الا مضافة ، اي : ذات وجود ، ذات قدرة ، ذات عِز ، ذات علم ، ذات كرم ، الى غير ذلك من الصفات . فـ « ذات كذا » بمعنى : صاحبة كذا ، من تأنيث « ذو » هذا اصل معنى الكلمة ، فعُلِم ان الذات لا يتصور انفصال الصفات عنها بوجه من الوجوه ، وأن كان الذهن قد يفرض ذاتا مجردة عن الصفات ، كما يفرض المحال . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « اعوذ بعزة الله وقدرته من

شر ما اجدُ واُحاذِر » وقال صلى الله عليه وسلم « **اعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق** » . وكذا قال صلى الله عليه وسلم اللهم اني اعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، واعوذ بك منك » ولا يعوذ النبي صلى الله عليه وسلم بغير الله .

● قال ابو جعفر الطحاوي : (ليس بعد خلق الخلق استفاد اسم « الخالق » ولا باحداثه البَرية استفاد اسم « الباري »)

وظاهر كلام الشيخ رحمه الله انه يمنع تسلسل الحوادث في الماضي ، ويأتي في كلامه ما يدل على انه لا يمنعه في المستقبل ، وهو قوله « والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان ابداً ولا تبيدان » ، وهذا مذهب الجمهور ، ولا شك في فساد قول من منع ذلك في الماضي والمستقبل ، كما ذهب اليه الجهم واتباعه ، وقال بفناء الجنة والنار ، لما يأتي من الادلة ان شاء الله تعالى .

واما قول من قال بجواز حوادث لا اول لها ، من القائلين بحوادث لا آخر لها ، فاظهر في الصحة من قول من فرّق بينهما ، فانه سبحانه لم يزل حيا ، والفعل من لوازم الحياة ، فلم يزل فاعلاً لما يريد ، كما وَصَف بذلك نفسَه ، حيث يقول (ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ) ١٥ و١٦ / البروج .

والآية تدل على امور

احدها . انه تعالى يفعل بارادته ومشيئته .

الثاني انه لم يزل كذلك ، لأنه ساق ذلك في معرض المدح والثناء على نفسه .

الثالث . انه اذا اراد شيئا : فَعَلَه ، فان « ما » موصولة عامة ، اي يفعل كل ما يريد ان يفعله ، وهذا في ارادته المتعلقة بفعله ، واما ارادته المتعلقة بفعل العبد فتلك لها شأن آخر ، فان اراد فعل العبد ولم يرد من نفسه ان يعينه عليه ويجعله فاعلا لم يوجد الفعل ، وان اراده حتى يريد من نفسه ان يجعله فاعلا اعانه واوجد الفعل ، وهذه هي النكتة التي خفيت على القدرية والجبرية ، وخبطوا في مسألة القدر ، لغفلتهم عنها .

الرابع . ان فعله وارادته متلازمان ، فان اراد ان يفعل فَعَل ، وما فعله فقد اراده ، بخلاف المخلوق ، فانه يريد ما لا يفعل ، وقد يفعل ما لا يريده ، فما ثَمّ فَعّال لما يريد الا الله وحده .

الخامس اثبات ارادات متعددة ، بحسب الافعال ، وان كل فعل له ارادة تخصه ، هذا هو المعقول في الفطر ، فشأنه سبحانه انه يريد على الدوام ويفعل ما يريد .

السادس ان كل ما صح ان تتعلق به ارادته جاز فعله ، فاذا اراد ان ينزل كل ليلة الى سماء الدنيا ، وان يجيء يوم القيامة لفصل القضاء ، وان يُرِيَ عبادَه نفسَه ، وان يتجلى لهم كيف شاء ، ويخاطبهم ، ويضحك اليهم ، وانما

يتوقف صحة ذلك على اخبار النبي صلى الله عليه وسلم به

والقول بان الحوادث لها اول يلزم التعطيل قبل ذلك ، وان الله سبحانه لم يزل غير فاعل ثم صار فاعلا ، ولا يلزم من ذلك قِدَم العالَم ، لأن كل ما سوى الله محدث ممكن الوجود ، موجود بايجاد الله تعالى له ، ليس له من نفسه الا العدم ، والفقر والاحتياج وصف ذاتي لازم لكل ما سوى الله تعالى ، والله تعالى واجب الوجود لذاته ، غني لذاته ، والغنى وصف ذاتي لازم له سبحانه وتعالى .

وللناس قولان في هذا العالم : هل هو مخلوق من مادة ام لا ؟ واختلفوا في اول هذا العالم ما هو ؟ وقد قال تعالى :
(وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ) ٧/هود .
وروى البخاري وغيره عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : قال اهل اليمن لرسول الله صلى الله عليه وسلم : جئناك لنتفقه في الدين ، ولنسألك عن اول هذا الامر . فقال : « **كان الله ولم يكن شيء قبله** » . وفي رواية « ولم يكن شيء معه . وفي رواية غيره : « **وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء ، وخلق السموات والارض** » ، وفي لفظ « ثم خلق السموات والارض » وقوله كتب في الذكر ، يعني : اللوح المحفوظ .

والناس في هذا الحديث على قولين ، منهم من قال . ان المقصود اخباره بان الله كان موجودا وحده ولم يزل كذلك دائما ، ثم ابتدأ احداث جميع الحوادث ، فجنسها واعيانها مسبوقة بالعدم ، وان جنس الزمان حادث لا في زمان ، وإن الله صار فاعلا بعد ان لم يكن يفعل ممكنا . والقول الثاني : المراد اخباره عن مبدأ خلق هذا العالم المشهود الذي خلقه الله في ستة ايام ثم استوى على العرش ، كما اخبر القرآن بذلك في غير موضع . وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « **قدر الله تعالى مقادير الخلق قبل ان يخلق السموات والارض بخمسين الف سنة ، وكان عرشه على الماء** ». فاخبر صلى الله عليه وسلم ان تقدير هذا العالم المخلوق في ستة ايام كان قبل خلق السموات بخمسين الف سنة ، وان عرش الرب تعالى حينئذ على الماء .

دليل صحة هذا القول الثاني ان قول اهل اليمن « جئناك لنسألك عن اول هذا الامر » هو اشارة الى حاضر مشهود موجود ، والامر هنا بمعنى المأمور ، اي الذي كونه الله بامره . وقد اجابهم النبي صلى الله عليه وسلم عن بدء هذا العالم الموجود ، لا عن جنس المخلوقات ، لأنهم لم يسألوه عنه ، وقد اخبرهم عن خلق السموات والارض حال كون عرشه على الماء ، ولم يخبرهم عن خلق العرش ، وهو مخلوق قبل خلق السموات والارض .

وايضا فانه قال : « كان الله ولم يكن شيء قبله ، وقد روي « معه » وروي « غيره » والمجلس كان واحدا ، فعُلِم انه قال احد الالفاظ ، والآخران رويا بالمعنى ... ولفظ « القبل » ثبت عنه في غير هذا الحديث ، ففي صحيح مسلم عن ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه كان يقول في دعائه « **اللهم انت الاول فليس قبلك شيء** » ، واللفظان الآخران لم يثبت

واحد منهما في موضع آخر ، ولهذا كان كثير من اهل الحديث انما يرويه بلفظ القبل ، كالحُمَيدي ، والبَغوي ، وابن الاثير ، واذا كان كذلك ، لم يكن في هذا اللفظ تعرّض لابتداء الحوادث ولا لأول مخلوق .

● **قال ابوجعفر : (له معنى الربوبية ولا مربوب ، ومعنى الخالق ولا مخلوق) .**

يعني ان الله تعالى موصوف بانه الرب قبل ان يوجد مربوب ، وموصوف بانه خالق قبل ان يوجد مخلوق .

● **قال : (وكما انه محيي الموتى بعدما احيا ، استحق هذا الاسم قبل احيائهم ، كذلك استحق اسم الخالق قبل انشائهم) .**

يعني انه سبحانه وتعالى موصوف بانه « محيي الموتى » قبل احيائهم ، فكذلك يوصف بانه « خالق » قبل خلقهم ، إلزاما للمعتزلة ومن قال بقولهم ، وتقدم تقرير انه تعالى لم يزل يفعل ما يشاء .

● **قال : (ذلك بانه على كل شيء قدير ، وكل شيء اليه فقير ، وكل امر اليه يسير ، لا يحتاج الى شيء ، ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير) .**

وذلك اشارة الى ثبوت صفاته في الازل قبل خلقه .

وقد حرّفت المعتزلة المعنى المفهوم من قوله تعالى
(وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ٦/الحشر .

قالوا انه قادر على كل ما هو مقدور له ، واما نفس افعال العباد فلا يقدر عليها ولو كان هذا المعنى صحيحا لكان بمنزلة ان يقال هو عالم بكل ما يعلمه ، وخالق لكل ما يخلقه ، ونحو ذلك من العبارات التي لا فائدة فيها ، فسلبوا صفة كمال قدرته على كل شيء

واما اهل السُّنّة فعندهم ان الله على كل شيء قدير ، وكل ممكن فهو مُندَرِج في هذا ، واما المحال لذاته ــ مثل كون الشيء الواحد موجودا معدوما في حال واحدة ــ فهذا لا حقيقة له ، ولا يتصور وجوده ، ولا يسمى شيئا ، باتفاق العقلاء

وهذا الاصل هو الايمان بربوبيته العامة التامة ، فانه لا يؤمن بانه رب كل شيء الا من آمن انه قادر على تلك الاشياء ، ولا يؤمن بتمام ربوبيته وكمالها الا من آمن بانه على كل شيء قدير

وقوله « ليس كمثله شيء » رد على المشبهة وقوله « وهو السميع البصير » رد على المعطلة فهو سبحانه موصوف بصفات الكمال ، وليس له فيها شبه ، فالمخلوق وان كان يوصف بانه سميع بصير فليس سمعه وبصره كسمع الرب وبصره ، ولا يلزم من اثبات الصفة تشبيه اذ صفات المخلوق كما يليق

به ، وصفات الخالق كما يليق به ، وقد وصف الله تعالى نفسه بان له المثل الاعلى ، فقال تعالى :

(لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ) ٦٠/ النحل.

وقال تعالى : (وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) ٢٧/ الروم .

فجعل سبحانه مثل السوء ـ المتضمن للعيوب والنقائص وسلب الكمال ـ لاعدائه المشركين واوثانهم ، واخبر ان المثل الاعلى ـ المتضمن لاثبات الكمال كله ـ لله وحده ، فمن سلب صفات الكمال عن الله تعالى فقد جعل له مثل السوء ، ونفى عنه ما وصف به نفسه من المثل الاعلى ، وهو الكمال المطلق ، المتضمن للامور الوجودية ، والمعاني الثبوتية ، التي كلما كانت اكثر في الموصوف واكمل : كان بها اكمل واعلى من غيره .

ولما كانت صفات الرب تعالى اكثر واكمل ، كان له المثل الاعلى ، وكان احق به من كل ما سواه ، بل يستحيل ان يشترك في المثل الاعلى اثنان ، لأنهما ان تكافآ من كل وجه : لم يكن احدهما اعلى من الآخر ، وان لم يتكافآ : فالموصوف به احدهما وحده ، فيستحيل ان يكون لمن له المثل الاعلى مثل او نظير .

● قال : (خلق الخلق بعِلمه) .

وخلق : اي اوجد وانشأ وابدع . ويأتي خلق ايضا بمعنى : قدر . والخلق مصدر ، وهو هنا بمعنى المخلوق . وقوله : « بعلمه » في محل نصب على الحال ، اي خلقهم عالما بهم . قال تعالى : (وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ) ٥٩ ، ٦٠ / الانعام .

والدليل العقلي على علمه تعالى : انه يستحيل ايجاده الاشياء مع الجهل ، ولأن ايجاده الاشياء بارادته ، والارادة تستلزم تصوُّر المراد ، وتصور المراد هو العلم بالمراد ، فكان الايجاد مستلزما للارادة ، والارادة مستلزمة للعلم ، فالايجاد مستلزم للعمل ، ولأن المخلوقات فيها من الاحكام والاتقان ما يستلزم علم الفاعل لها ، لأن الفعل المحكم المتقن ، يمتنع صدوره عن غير علم ، ولأن من المخلوقات ما هو عالم ، والعلم صفة كمال ، ويمتنع ان لا يكون الخالق عالما .

وهذا له طريقان :

احدهما : ان يقال : نحن نعلم بالضرورة ان الخالق اكمل من المخلوق ، وان الواجب اكمل من الممكن ، ونعلم ضرورةً أنْ لو فرضنا شيئين ، احدهما عالم ، والآخر غير عالم : كان العالم اكمل ، فلو لم يكن الخالق عالما لزم ان

يكون الممكن اكمل منه ، وهو ممتنع .

الثاني : ان يقال كل علم في الممكنات ، التي هي المخلوقات ، فهو منه ، ومن الممتنع ان يكون فاعل الكمال ومبدعه عاريا منه ، بل هو احق به ، والله تعالى له المثل الاعلى ، ولا يستوي هو والمخلوق ، لا في قياس تمثيلي ، ولا في قياس شمولي ، بل كل ما ثبت للمخلوق من كمال فالخالق به احق ، وكل نقص تنزه عنه مخلوق ما فتنزه الخالق عنه اولى .

● قال : (وقدّر لهم اقدارا) .

فقد قال تعالى : (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا) ٢/ الفرقان .

وقال سبحانه : (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ) ٤٩/ القمر .

● قال : (وضرب لهم آجالا) .

يعني ان الله سبحانه وتعالى قدر آجال الخلائق ، بحيث اذا جاء اجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون .

قال تعالى :

(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا) ١٤٥/ آل عمران .

وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : قالت ام حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم : اللهم امتعني بزوجي رسول الله ، وبأبي ابي سفيان ، وبأخي معاوية . فقال النبي صلى الله عليه وسلم . **« قد سألتِ اللهَ لآجالٍ مضروبة ، وأيامٍ معدودة ، وارزاق مقسومة . لن يعجل شيئاً قبل اجله ، ولن يؤخر شيئا عن اجله ، ولو كنتِ سألتِ الله ان يعيذك من عذاب في النار ، وعذاب في القبر : كان خيرا وافضل » .**

فالمقتول ميت باجله ، فعلم الله تعالى وقدّر ان هذا يموت بسبب المرض ، وهذا بسبب القتل ، وهذا بسبب الهدم ، الى غير ذلك من الاسباب ، والله سبحانه خلق الموت والحياة ، وخلق سبب الموت والحياة .

وعند المعتزلة : المقتول مقطوع عليه اجله ، ولو لم يقتل لعاش الى اجله ، فكأن له اجلان !! وهذا باطل ، لأنه لا يليق ان ينسب الى الله تعالى انه جعل له اجلا يعلم انه لا يعيش اليه البتّة ، او يجعل اجله احد الامرين ، كفعل الجاهل بالعواقب ، واوجب القصاص والضمان على القاتل لارتكابه المنهي عنه ومباشرته السبب المحظور ، وعلى هذا يخرج قوله صلى الله عليه وسلم **« صِلة الرحم تزيد في العمر »** اي سبب طول العمر ، وقد قدر الله ان هذا يصل رحمه فيعيش بهذا السبب الى هذه الغاية ، ولولا ذلك السبب لم يصل الى هذه الغاية ، ولكن قدر هذا السبب وقضاه . وكذلك قدر ان هذا يقطع رحمه فيعيش الى كذا ، كما

قلنا في القتل وعدمه .

فان قيل : هل يلزم من تأثير صلة الرحم في زيادة العمر ونقصانه تأثير الدعاء في ذلك ام لا ؟

فالجواب : ان ذلك غير لازم ، لقوله صلى الله عليه وسلم لام حبيبة : قد سألت الله تعالى لآجال مضروبة ، كما تقدم ، فعلم ان الاعمار مقدرة ، لم يشرع الدعاء بتغييرها ، بخلاف النجاة من عذاب الآخرة ، فان الدعاء مشروع له نافع فيه . الا ترى ان الدعاء بتغيير العمر لما تضمن النفع الاخروي شرع في الدعاء الذي رواه النسائي من حديث عمار بن ياسر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « **اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق : احيني ما كانت الحياة خيرا لي ، وتوفني اذا كانت الوفاة خيرا لي** »

ويؤيد هذا ما رواه الحاكم في صحيحه من حديث ثَوبان عن النبي صلى الله عليه وسلم : « **لا يرد القَدَرَ الا الدعاء ، ولا يزيد في العمر الا البر ، وان الرجل ليُحرم الرزقَ بالذنب يصيبه** » وفي الحديث رد على من يظن ان النذر سبب في دفع البلاء وحصول النعماء ، وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم : انه نهى عن النذر ، وقال . « **انه لا ياتي بخير ، وانما يُستخرَج به من البخيل** » .

واعلم ان الدعاء يكون نافعا مشروعا في بعض الاشياء دون بعض ، وكذلك هو ولهذا لا يجيب الله المعتدين في الدعاء ، وكان الامام احمد يكره ان يدعى له بطول العمر ويقول : هذا امر قد فرغ منه .

واما قوله تعالى: (وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ) . ١١/فاطر .

فقد قيل في الضمير المذكور في قوله تعالى (من عمره) انه بمنزلة قولهم : عندي درهم ونصفه ، اي ونصف درهم آخر ، فيكون المعنى : ولا ينقص من عمر معمر آخر . وقيل : الزيادة والنقصان في الصحف التي في ايدي الملائكة .

وقال تعالى :

(لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۝٣٨ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ) ٣٨ و٣٩ / الرعد .

وقد حمل ذلك على ان المحو والاثبات من الصحف التي في ايدي الملائكة ، وان قوله : وعنده ام الكتاب : اللوح المحفوظ .

● قال الطحاوي : (لم يَخْفَ عليه شيء قبل ان يخلقهم ، وعلم ما هم عاملون قبل ان يخلقهم) .

فانه سبحانه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن ان لو كان كيف يكون ، كما قال تعالى : (وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ) ٢٨/الانعام

وان كان يعلم انهم لا يردون ، ولكن اخبر انهم لو ردوا لعادوا .
وقال سبحانه

(وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ) ٢٣/الانفال .

● قال : (وامرهم بطاعته ، ونهاهم عن معصيته) .

فذكر الشيخ الامر والنهي ، بعد ذكر الخلق والقدر ، اشارة الى ان الله تعالى خلق الخلق لعبادته ، كما قال تعالي :

(وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) ٥٦/الذاريات .

● قال : (وكل شيء يجري بتقديره ، ومشيئتُه تنفذ لا مشيئة للعباد ، الا ما شاء لهم ، فما شاء لهم : كان ، وما لم يشأ لم يكن) .

وذلك من قول الله تعالى :

(وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا) ٣٠/الدهر .

وقال سبحانه :

(وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ) ٢٩/التكوير .

الى غير ذلك من الادلة على انه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وكيف يكون في ملكه ما لا يشاء ! ومن اضل سبيلا واكفر ممن يزعم ان الله شاء الايمان من الكافر ، والكافر شاء الكفر ، فغلبت مشيئةُ الكافر مشيئةَ الله ! تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا . .

فان قيل . يشكل على هذا قوله تعالى

(سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا) ١٤٨/الانعام .

وقوله تعالى

(وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ) ٣٥/النحل .

قيل قد اجيب عن هذا باجوبة ، من احسنها : انه انكر عليهم ذلك لأنهم احتجوا بمشيئته على رضاه ومحبته ، وقالوا لو كره ذلك وسخطه لما شاءه ، فجعلوا مشيئته دليل رضاه ، فردّ الله عليهم ذلك ، او انه انكر عليهم اعتقادهم ان مشيئة الله دليل على امره به ، او انه انكر عليهم معارضتهم شرعه وامره الذي ارسل به رسله وانزل به كتبه بقضائه وقدره ، فجعلوا المشيئة العامة دافعة للامر ، فلم يذكروا المشيئة على جهة التوحيد ، وانما ذكروها معارضين بها لامره ، دافعين بها لشرعه ، كفعل الزنادقة والجهال اذا امروا

او نهوا : احتجوا بالقدر ، وقد احتج سارق على عمر رضي الله عنه بالقدر ، فقال : وانا اقطع يدك بقضاء الله وقدره .

● قال : (يهدي مَن يشاء ، ويعصم ويعافي : فضلا . ويضل من يشاء ، ويَخذِل ويبتلي : عَدلا) .

وهذا رد على المعتزلة حين يقولون بوجوب فعل الاصلح للعبد على الله ، وهي مسألة الهدى والضلال .

قالت المعتزلة : الهدى من الله : بيان طريق الصواب ، والاضلال : تسمية العبد ضالا ، وحكمه تعالى على العبد بالضلال عند خلق العبد الضلال في نفسه .

وهذا مبني على اصلهم الفاسد : ان افعال العباد مخلوقة لهم .

والدليل على ما قلناه قوله تعالى :

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ) ٥٦ / القصص .

ولو كان الهدى بيان الطريق لما صح هذا النفي عن نبيه ، لأنه صلى الله عليه وسلم بين الطريق لمن احب وابغض ، ولو كان الهدى من الله البيان ــ وهو عام في كل نفس ــ لما صح التقييد بالمشيئة .

● قوله : (وكلهم يتقلبون في مشيئته ، بين فضله وعدله) .

فانهم كما قال تعالى :

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ) ٢ / التغابن .

فمن هداه الى الايمان فبفضله ، وله الحمد ، ومن اضله فبعدله ، وله الحمد . وسيأتي لهذا المعنى زيادة ايضاح ، ان شاء الله تعالى ، فان الشيخ رحمه الله لم يجمع الكلام في القدر في مكان واحد ، بل فرقه ، فاتيت به على ترتيبه .

● قوله : (وهو مُتَعال عن الاضداد والانداد) .

الضد : المخالف ، والند : المثل ، وهو سبحانه لا معارض له ، بل ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولا مثل له ، كما قال تعالى

(وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ) ٤ / الاخلاص .

● قال : (لا رادَّ لقضائه ، ولا مُعَقِّب لحكمه ، ولا غالب لأمره) .

اي لا يرد قضاء الله راد ، ولا يعقب ، اي لا يؤخر حكمه مؤخر ، ولا

يغلب امره غالب ، بل هو الله الواحد القهار .

● قال : (آمنا بذلك كله ، وايقنا ان كلا من عنده) .

●ثم قال : (وإن محمدا عبده المصطفى ، ونبيه المجتبى ، ورسوله المرتضى).

الاصطفاء والاجتباء والارتضاء : متقارب المعنى ، واعلم ان كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله تعالى ، وكلما ازداد العبد تحقيقا للعبودية ازداد كماله وعلت درجته ، ومن توهم ان المخلوق يخرج عن العبودية بوجه من الوجوه ، وان الخروج عنها اكمل ، فهو من اجهل الخلق واضلهم . قال تعالى : (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ) ٢٦/الانبياء .

وذكر الله نبيه صلى الله عليه وسلم باسم « العبد » في اشرف المقامات ، فقال في ذكر الاسراء : (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ) ١/ الاسراء .

وقوله : (وأنّ محمدا) بكسر الهمزة عطفا على قوله (ان الله وحده لا شريك له) لأن الكل معمول القول ، اعني قوله (نقول في توحيد الله) .

والطريقة المشهورة عند اهل الكلام والنظر : تقرير نبوة الانبيـاء بالمعجزات .

ولا ريب ان المعجزات دليل صحيح ، لكن الدليل غير محصور في المعجزات ، فان النبوة يدعيها اصدق الصادقين او اكذب الكاذبين ، ولا يلتبس هذا الا على اجهل الجاهلين ، بل قرائن احوالهما تعرب عنهما ، وتعرف بهما ، والتمييز بين الصادق والكاذب له طرق كثيرة فيما دون دعوى النبوة ، فكيف بدعوى النبوة ؟ وما احسن ما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه :

لو لم يكن فيـــه آيـــات مبيّنةٌ ... كانـت بديهتُـه تأتيـــك بالخبر

وما من احد ادعى النبوة من الكاذبين الا وقد ظهر عليه من الجهل والكذب والفجور واستحواذ الشياطين عليه ما ظهر لمن له ادنى تمييز ، فان الرسول لا بد ان يخبر الناس بامور ويأمرهم بامور ، ولا بد ان يفعل امورا يبين فيها صدقه . والكاذب يظهر في نفس ما يأمر به ويخبر عنه وما يفعله ما يتبين به كذبه من وجوه كثيرة ، والصادق ضده . بل كل شخصين ادعيا امرا احدهما صادق والآخر كاذب لا بد ان يظهر صدق هذا وكذب هذا ولو بعد مدة ، اذ الصدق مستلزم للبر ، والكذب مستلزم للفجور . كما في الصحيحين عن النبي

صلى الله عليه وسلم انه قال « **عليكم بالصدق ، فان الصدق يهدي الى البر ، وان البر يهدي الى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صِدِّيقا ، واياكم والكذب ، فان الكذب يهدي الى الفجور ، وان الفجور يهدي الى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عندالله كذابا** » .

فاذا كان صدق المخبر وكذبه يعلم بما يقترن من القرائن ، فكيف بدعوى المدعي انه رسول الله ؟ كيف يخفى صدق هذا من كذبه ؟ وكيف لا يتميز الصادق في ذلك من الكاذب بوجوه من الادلة ؟

ولهذا لما كانت خديجة رضي الله عنها تعلم من النبي صلى الله عليه وسلم انه الصادق البار ، وقال لها لما جاءه الوحي : « **اني قد خشيت على نفسي** » ، فقالت : « **كلا ، والله لا يخزيك الله ، انك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكَلّ ، وتقري الضيف ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الحق** » .

وكذلك قال النجاشي لما استخبرهم عما يخبر به واستقرأهم القرآن فقرأوا عليه . « **ان هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة** » .

وكذلك ورقة بن نوفل ، لما اخبره النبي صلى الله عليه وسلم بما رآه ، ــ وكان ورقة قد تَنَصَّر ، وكان يكتب الانجيل بالعربية ــ وقالت له خديجة رضي الله عنها : اي عم ، اسمع من ابن اخيك ما يقول ، فاخبره النبي صلى الله عليه وسلم بما رأى قال : « **هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى** » .

وايضا : فان الله سبحانه ابقى في العالم الآثار الدالة على ما فعله بانبيائه والمؤمنين من الكرامة ، وما فعله بمكذبيهم من العقوبة ، كثبوت الطوفان ، واغراق فرعون وجنوده ، ولما ذكر سبحانه قصص الانبياء نبيا بعد نبي ، في سورة الشعراء ، كقصة موسى وابراهيم ونوح ومن بعده ، يقول في آخر كل قصة :

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) ٨ و٩ / الشعراء .

ونحن اليوم علمنا بالتواتر من احوال الانبياء واوليائهم واعدائهم علما يقينا انهم كانوا صادقين من وجوه متعددة

منها : انهم اخبروا الامم بما سيكون من انتصارهم وخذلان اولئك وبقاء العاقبة لهم .

ومنها ما احدثه الله لهم من نصرهم واهلاك عدوهم ، اذا عرف الوجه الذي حصل عليه ــ كغرق فرعون وغرق قوم نوح ــ عرف صدق الرسل

ومنها ان من عرف صدق ما جاءت به الرسل من الشرائع وتفاصيل احوالها تبين له انهم اعلم الخلق . وانه لا يحصل مثل ذلك من كذاب جاهل

بل انكار رسالته صلى الله عليه وسلم طعن في الرب تبارك وتعالى ، ونسبة له الى الظلم ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، بل جحدٌ للرب بالكلية وانكارٌ .

وبيان ذلك انه اذا كان محمد عندهم ليس بنبي صادق ، بل ملك ظالم ، فقد تهيأ له ان يفتري على الله ، ويتقول عليه ، ويستمر حتى يحلل ويحرم ، ويفرض الفرائض ، ويشرع الشرائع ، وينسخ الملل ، ويضرب الرقاب ، ويقتل اتباع الرسل وهم اهل الحق ، ويتم ذلك حتى تفتح له الارض ، وينسب ذلك كله الى امر الله له به ، والرب تعالى يشاهده وهو يفعل باهل الحق ، وهو مستمر بالافتراء عليه ثلاثا وعشرين سنة . وهو مع ذلك كله يؤيده وينصره ، ويعلي امره ويمكن له من اسباب النصر الخارجة عن عادة البشر ، وابلغ من ذلك انه يجيب دعوته ، ويهلك اعداءه ، ويرفع له ذكره ، هذا وهو عندهم في غاية الافتراء والظلم ، والله تعالى يقره على ذلك ، فيلزمهم ان يقولوا لا صانع للعالم ولا مدبر ، ولو كان له مدبر قدير لأخذ على يديه وجعله نكالا للعالمين ، اذ لا يليق بالملوك غير ذلك ، فكيف بملك الملوك واحكم الحاكمين ؟

ونحن لا ننكر ان كثيرا من الكذابين قائم في الوجود ، وظهرت له شوكة ، ولكن لم يتم امره ، ولم تطل مدته ، بل يسلط الله عليه رسله واتباعه .

هذه سنة الله قد خلت من قبل ، حتى ان الكفار يعلمون ذلك . قال تعالى (أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ۝ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ) ٣٠ ـ ٣١ / الطور .

● قال الطحاوي : (وانه خاتم الانبياء) .

وذلك قول الله تعالى

(وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ) ٤٠ / الاحزاب .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم « **ان مثلي ومثل الانبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فاحسنه واجمله الا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ قال : فانا اللبنة ، وانا خاتم النبيين** » . رواه البخاري

وقال صلى الله عليه وسلم « لي خمسةُ اسماءٍ انا محمد واحمد ، وانا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر ، وانا الحاشِر الذي يُحشر الناس على قدمي ، وانا العاقِب » رواه البخاري . والعاقب الذي ليس بعده نبي

● قال : (وامام الاتقياء) .

والامام : الذي يؤتم به ، اي يقتدون به ، والنبي صلى الله عليه وسلم انما بعث للاقتداء به ، لقوله تعالى :

(قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ) ٣١/آل عمران .

وكل من اتبعه واقتدى به فهو من الاتقياء .

● قال : (وسيد المرسلين) .

فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « انا سيد ولد آدم يوم القيامة ، واول من ينشق عنه القبر ، واول شافع ، واول مشفّع » . رواه مسلم .

فان قيل : يشكل على هذا قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تفضلوني على موسى ، فان الناس يصعقون يوم القيامة ، فاكون اول من يفيق ، فاجد موسى باطشا بساق العرش ، فلا ادري : هل افاق قبلي ؟ او كان ممن استثنى الله ؟ » خرّجاه في الصحيحين . فكيف يجمع بين هذا وبين قوله « انا سيد ولد آدم » ؟

فالجواب ان هذا كان له سبب . فانه كان قد قال يهودي : لا والذي اصطفى موسى على البشر . فلطمه مسلم وقال : اتقول هذا ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين اظهرنا ؟ فجاء اليهودي فاشتكى من المسلم الذي لطمه . فقال النبي صلى الله عليه وسلم . لأن التفضيل اذا كان على وجه الحمية والعصبية وهوى النفس - كان مذموما . بل نفس الجهاد اذا قاتل الرجل حمية وعصبية : كان مذموما . فان الله حرم الفخر . وقد قال تعالى :

(تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ) ٢٥٣/البقرة .

فعلم ان المذموم انما هو التفضيل على وجه الفخر ، او على وجه الانتقاص بالمفضول .

واما ما يروى ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا تفضلوني على يونس بن مَتّى » ، فان هذا الحديث بهذا اللفظ لم يروه احد من اهل الكتب المعتمدة ، وانما اللفظ الذي في الصحيح : « لا ينبغي لعبد ان يقول : انا خير من يونس بن متى » وفي رواية : « من قال : اني خير من يونس بن متى فقد كذب » . وهذا اللفظ يدل على العموم . لا ينبغي لاحد ان يفضل نفسه على يونس ، ليس فيه نهي المسلمين ان يفضلوا محمدا على يونس ، وذلك لأن الله تعالى قد اخبر عنه انه التقمه الحوت وهو مليم ، اي فاعل ما يلام عليه ، ثم ذكر

الله خبره من بعد فقال

(وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّٰلِمِينَ) ٨٧/الانبياء ..

فقد يقع في نفس بعض الناس انه اكمل من يونس ، فلا يحتاج الى هذا المقام ، مقام الاستغفار والاعتراف والتسبيح ، فمن ظن هذا فقد كذب ، بل كل عبد من عباد الله يقول ما قال يونس ان : (لا اله الا انت سبحانك اني كنت من الظالمين) ، كما قال اول الانبياء وآخرهم ، فاولهم آدم . قال :

(رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الۡخَٰسِرِينَ) ٢٣/الاعراف .

وآخرهم وافضلهم وسيدهم : محمد صلى الله عليه وسلم : قال في الحديث الصحيح : « اللهم انت الملك لا اله الا انت ، انت ربي وانا عبدك ، ظلمت نفسي ، واعترفت بذنبي ، فاغفر لي ذنوبي جميعا ، لا يغفر الذنوب الا انت » .

وفي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « أُوحِيَ إليَّ ان تواضعوا ، حتى لا يفخر احد على احد ، ولا يبغي احد على احد » .

فالله تعالى نهى ان يفخر على عموم المؤمنين ، فكيف على نبي كريم ؟

وانما اخبر صلى الله عليه وسلم انه سيد ولد آدم لأنا لا يمكننا ان نعلم ذلك الا بخبره ، اذ لا نبي بعده يخبرنا بعظيم قدره عند الله ، كما اخبرنا هو بفضائل الانبياء قبله ، صلى الله عليهم اجمعين ، ولهذا اتبعه بقوله « ولا فخر » كما جاء في رواية .

وهل يقول من يؤمن بالله واليوم الآخر : ان مقام الذي اسري به الى ربه ، وهو مقرب مكرم ، كمقام الذي القي في بطن الحوت وهو مليم ؟

● ثم قال الطحاوي : (وحبيب رب العالمين) .

فقد ثبت له صلى الله عليه وسلم اعلى مراتب المحبة ، وهي الخُلة ، كما صح عنه صلى الله عليه وسلم انه قال « ان الله اتخذني خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا » ، وقال : « ولو كنت متخذا من اهل الارض خليلا لاتخذت ابا بكر خليلا ، ولكن صاحبكم خليل الرحمن » .

والحديثان في الصحيح ، وهما يُبطلان قول من قال الخلة لابراهيم والمحبة لمحمد ، فقد ثبتت المحبة لغيره من المؤمنين ، كما قال الله تعالى

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ الۡمُتَطَهِّرِينَ) ٢٢٢/البقرة

واما حديث « ان ابراهيم خليل الله ، الا وانا حبيب الله ولا فخر » الذي رواه الترمذي فانه لم يثبت ، لضعف راويه زمعة بن صالح .

● **قال : (وكل دعوى النبوة بعده فغيّ وهوى) .**

وذلك لأنه خاتم النبيين ، فعلم ان من ادعى النبوة بعده فهو كاذب .

ولا يقال : فلو جاء المدعي للنبوة بالمعجزات الخارقة والبراهين الصادقة كيف يقال بتكذيبه ؟ لأنّا نقول : هذا لا يتصور ان يوجد ، وهو من باب فرض المحال ، لأن الله تعالى لما اخبر انه خاتم النبيين ، فمن المحال ان يأتي مدع يدعي النبوة ولا يظهر كذبه .

والغي : ضد الرشاد .

والهوى : عبارة عن شهوة النفس .

● **قال : (وهو المبعوث الى عامة الجن وكافة الورى ، بالحق والهدى ، وبالنور والضياء) .**

فاما كونه مبعوثا الى عامة الجن فثابت في قوله تعالى :
(يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) ٣١/الاحقاف .
والذين يخاطبون الجن هنا ويقولون : يا قومنا ، هم نفر من انفسهم ، وهم الذين صرفهم الله الى النبي صلى الله عليه وسلم لاستماع القرآن، ثم ولوا الى قومهم منذرين .
وكذا سورة الجن تدل على انه ارسل اليهم .

وظاهر القرآن يدل على ان موسى عليه السلام مرسل اليهم ايضا ، والله اعلم ، وذلك قوله تعالى : (قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ) ٣٠/الاحقاف .
واما كونه مبعوثا الى كافة الورى فقد قال الله تعالى :

(وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) ٢٨/سبأ .
وقال سبحانه :

(قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا) ١٥٨/الاعراف)
وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « اعطيت خمسا لم يُعطهن احد من الانبياء قبلي : نُصِرتُ بالرعب مسيرةَ شهر ، وجُعِلَتْ لي الارض مسجدا

وطهورا ، فايما رجل من امتي ادركته الصلاة فليصل . واُحلتْ لي الغنائم ، ولم تحل لاحد قبلي ، واُعطيتُ الشفاعة ، وكان النبي يبعث الى قومه خاصة ، وبُعِثتُ الى الناس عامة » رواه البخاري ومسلم في الصحيحين .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يسمع بي رجل من هذه الامة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي الا دخل النار » . رواه مسلم .

وكونه صلى الله عليه وسلم مبعوثا الى الناس كافة معلوم من دين الاسلام بالضرورة .

واما قول النصارى : انه رسول الى العرب خاصة فظاهر البطلان ، فقد قال انه رسول الله الى الناس عامة ، والرسول لا يكذب ؛ فلزم تصديقه حتما ، فقد ارسل رسله وبعث كتبه في اقطار الارض ، الى كسرى وقيصر والنجاشي والمقوقس وسائر ملوك الاطراف ، يدعوهم الى الاسلام .

● قال الطحاوي رحمه الله :

(وان القرآن كلام الله ، منه بدا بلا كيفيةٍ ، قولاً ، وانزله على رسوله ، وحياً ، وصدقه المؤمنون على ذلك ، حقاً ، وايقنوا انه كلام الله تعالى بالحقيقة ، ليس بمخلوق ككلام البرية ، فمن سمعه فزعم انه كلام البشر فقد كفر ، وقد ذمه الله وعابه واوعده بسقر ، حيث قال تعالى : « ساصليه سقر » ، فلما اوعد الله بسقر لمن قال « ان هذا الا قول البشر » : علمنا وايقنا انه قول خالق البشر ، ولا يشبه قول البشر) .

قال ابن ابي العز الاذرعي الشارح رحمه الله

وهذه قاعدة شريفة ، واصل كبير من اصول الدين ، ضل فيه طوائف كثيرة من الناس . وهذا الذي حكاه الطحاوي رحمه الله هو الحق الذي دلت عليه الادلة ، من الكتاب والسنة ، لمن تدبرهما ، وشهد به الفطرة السليمة التي لم تغير بالشبهات والشكوك والآراء الباطلة .

وقوله « منه بدا بلا كيفية قولا » رد على المعتزلة وغيرهم ، فان المعتزلة تزعم ان القرآن لم يبد منه . قالوا واضافته اليه اضافة تشريف ، كبيت الله ، وناقة الله ، يحرفون الكلام عن مواضعه ، وقولهم باطل ، فان المضاف الى الله تعالى مَعانٍ واعيانٌ ، فاضافة الاعيان الى الله للتشريف ، وهي مخلوقة له ، كبيت الله ، بخلاف اضافة المعاني ، كعلم الله ، وقدرته ، وعزته ، وكلامه ، فان هذا كله من صفاته ، لا يمكن ان يكون شيء من ذلك

مخلوقا .

والوصف بالتكلم من اوصاف الكمال ، وضده من اوصاف النقص . قال تعالى : (وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا) ١٤٨/الاعراف .

فكان عُبّاد العِجل ـ مع كفرهم ـ اعرف بالله من المعتزلة ، فانهم لم يقولوا لموسى : وربك لا يتكلم ايضا .

وقد قال تعالى عن العجل ايضا :

(أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا) ٨٩/طه .

فعُلم ان نفي رجوع القول ونفي التكلم نقص يُستدل به على عدم الوهية العجل .

وغاية شبهتهم انهم يقولون : يلزم منه التشبيه والتجسيم . فيقال لهم : اذا قلنا انه تعالى يتكلم كما يليق بجلاله : انتفت . الا ترى انه تعالى قال : (ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم) ٦٥/يس .

فنحن نؤمن انها تتكلم ، ولا نعرف كيف تتكلم .

وكذا قوله تعالى :

(وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ) ٢١/ فصلت .

والى هذا اشار الشيخ رحمه الله بقوله : « منه بدا بلا كيفية قولا » ، اي : ظهر منه ولا ندري كيفية تكلمه به . واكد هذا المعنى بقوله : « قولا » اتى بالمصدر المعرف للحقيقة ، كما اكد الله تعالى بالمصدر المثبت النافي للمجاز في قوله : (وكلم الله موسى تكليما) فماذا بعد الحق الا الضلال ؟

ولقد قال بعضهم لابي عَمرو بن العلاء ـ احد القراء السبعة ـ اريد ان تقرأ:وكلّم الله موسى ، بنصب اسم الله ، ليكون موسى هو المتكلم لا الله؟ ، فقال له ابو عمرو : هب اني قرأت هذه الآية كذا ، فكيف تصنع بقوله تعالى . (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربُّه) ؟ فبهت المعتزلي .

وكم في الكتاب والسنة من دليل على تكلم الله تعالى لاهل الجنة وغيرهم ؟

قال تعالى : (سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ) ٥٨/يس .

وقال سبحانه : (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ) ٧٧/ آل عمران .

فاهانهم بترك تكليمهم . والمراد انه لا يكلمهم تكليم تكريم ، وهو الصحيح ، اذ قد اخبر في الآية الاخرى انه يقول لهم في النار :

(اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ) ١٠٨/المؤمنون .

فلو كان لا يكلم عباده المؤمنين لكانوا في ذلك هم واعداؤه سواء ، ولم يكن في تخصيص اعدائه بانه لا يكلمهم فائدة اصلا .

وقال البخاري في صحيحه : باب كلام الرب تبارك وتعالى مع اهل الجنة . وساق فيه عدة احاديث .

فافضل نعيم اهل الجنة : رؤية وجهه تبارك وتعالى ، وتكليمه لهم ، فانكار ذلك : انكار لروح الجنة واعلى نعيمها وافضله الذي ما طابت لاهلها الا به .

واما استدلالهم بقوله تعالى : « الله خالق كل شيء » والقرآن شيء فيكون داخلا في عموم « كل » ، فيكون مخلوقا !! فمن اعجب العجب . وذلك ان افعال العباد كلها عندهم غير مخلوقة لله تعالى ، وانما يخلقها العباد جميعا ، لا يخلقها الله ، فاخرجوها من عموم « كل » وادخلوا كلام الله في عمومها ، مع انه صفة من صفاته ، به تكون الاشياء المخلوقة ، اذ بأمره تكون المخلوقات . قال تعالى :

(وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) ٥٤/الاعراف .

ففرّق بين الخلق والامر ، فلو كان الامر مخلوقا للزم ان يكون مخلوقا بامر آخر ، والآخر بآخر ، الى ما لا نهاية له ، فيلزم التسلسل ، وهو باطل .

وعموم « كل » في كل موضع بحسبه ، ويعرف ذلك بالقرائن . الا ترى الى قوله تعالى : (تدمر كل شيء بامر ربها فاصبحوا لا يرى الا مساكنهم) ، ومساكنهم شيء ، ولم تدخل في عموم كل شيء دمرته الريح ؟ وذلك لأن المراد تدمر كل شيء يقبل التدمير بالريح عادة وما يستحق التدمير .

وكذا قوله تعالى حكاية عن بلقيس : (وأوتيت من كل شيء) ، المراد : من كل شيء يحتاج اليه الملوك ، وهذا القيد يفهم من قرائن الكلام ، اذ مراد الهدهد انها ملكة كاملة في امر الملك .

ولهذا نظائر كثيرة .

والمراد من قوله تعالى : (خالق كل شيء) اي : كل شيء مخلوق ، وكل موجود سوى الله فهو مخلوق ، فدخل في هذا العموم افعال العباد حتما ، ولم يدخل في العموم الخالق تعالى ، وصفاته ليست غيره ، لأنه سبحانه وتعالى هو

الموصوف بصفات الكمال ، وصفاته لازمة لذاته المقدسة ، لا يتصور انفصال صفاته عنه .

واما استدلالهم بقوله تعالى : (انا جعلناه قرآنا عربيا) فما افسده من استدلال ! فان « جعل » اذا كان بمعنى خلق يتعدى الى مفعول واحد ، كقوله تعالى : (وجعل الظلمات والنور) ، وقوله تعالى : (وجعلنا من الماء كل شيء حي) . واذا تعدى الى مفعولين : لم يكن بمعنى خلق . قال تعالى (وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا) ٩١/النحل .

وقال تعالى : (الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ) ٩١/الحجر .

ونظائره كثيرة .

فكذا قوله تعالى : (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) ٣/الزخرف .

فان قيل : قد قال الله تعالى : (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) ١٩/التكوير .

وهذا يدل على ان الرسول احدثه ، اما جبريل او محمد . قيل : ذكر الرسول معرِّف انه مُبلِّغ عن مرسله ، لأنه لم يقل انه قول ملك او نبي ، فعلم انه بلغه عمن ارسله به ، لا انه انشأه من جهة نفسه .

وايضا : فالرسول في احدى الآيتين : جبريل ، وفي الاخرى : محمد ، فاضافته الى كل منهما تُبيِّن ان الاضافة للتبليغ ، اذ لو احدثه احدهما ، امتنع ان يُحدثه الآخر .

وايضا : فقوله « امين » دليل على انه لا يزيد في الكلام الذي أُرسِل بتبليغه ولا ينقص منه ، بل هو امين على ما أُرسِل به ، يبلغه عن مرسله .

وايضا : فان الله قد كفّر من جعله قول البشر ، ومحمد صلى الله عليه وسلم بشر ، فمن جعله قول محمد ، بمعنى انه انشأه ، فقد كفر ، ولا فرق بين ان يقول انه قول بشر ، او جنّي ، او مَلَك . والكلام كلام من قاله مبتدِئا ، لا مَن قاله مُبلغا .

وبالجملة : فاهل السُنّة كلهم ، من اهل المذاهب الاربعة وغيرهم ، من السلف والخلف ، متفقون على ان كلام الله غير مخلوق . ولو ترك الناس على فطرهم السليمة وعقولهم المستقيمة لم يكن بينهم نزاع ، ولكن القى الشيطان الى بعض الناس أغلوطة من اغاليطه فرّق بها بينهم ، وان الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد

والذي يدل عليه كلام الطحاوي رحمه الله : انه تعالى لم يزل متكلما اذا شاء كيف شاء ، وان نوع كلامه قديم . وكذلك ظاهر كلام الامام ابي حنيفة

رحمه الله في الفقه الاكبر ، فانه قال والقرآن في المصاحف مكتوب ، وفي القلوب محفوظ ، وعلى الالسن مقروء ، وعلى النبي صلى الله عليه وسلم مُنزَّل ، ولفظنا بالقرآن مخلوق ، والقرآن غير مخلوق .

ولا شك ان الرسل الذين خاطبوا الناس واخبروهم ان الله قال ونادى وناجى ويقول : لم يفهموهم ان هذه مخلوقات منفصلة عنه ، بل الذي افهموهم اياه : ان الله نفسه هو الذي تكلم ، والكلام قائم به لا بغيره ، وانه هو الذي تكلم به وقاله كما قالت عائشة رضي الله عنها في حديث الافك : « ولشأني في نفسي احقر من ان يتكلم الله فيَّ بوحي يُتلى » ولو كان المراد من ذلك كله خلاف مفهومه لوجب بيانه ، اذ تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « **اعوذ بكلمات الله التامات** » . فهل يقول عاقل انه صلى الله عليه وسلم عاذ بمخلوق ؟ بل هذا كقوله : « **اعوذ برضاك من سخطك ، واعوذ بمعافاتك من عقوبتك** » . كل هذه من صفات الله تعالى

وحقيقة كلام الله تعالى الخارجية : هي ما يسمع منه او من المبلغ عنه ، فاذا سمعه السامع : علمه وحفظه ، فكلام الله مسموع له محفوظ معلوم . فاذا قاله السامع فهو مقروء له متلو ، فان كتبه فهو مكتوب له مرسوم ، وهو حقيقة في هذه الوجوه ، لا يصح نفيه ، والمجاز يصح نفيه ، فلا يجوز ان يقال : ليس في المصاحف كلام الله ، ولا : ما قرأ القارىء كلام الله ، وقد قال تعالى :

(وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ) ٦/ التوبة .

وهو لا يسمع كلام الله من الله ، وانما يسمعه من مُبلغه عن الله ، وهذه الآية تدل على فساد قول من قال ان المسموع عبارة عن كلام الله وليس هو كلام الله ، فانه تعالى قال : (حتى يسمع كلام الله) ، ولم يقل : حتى يسمع ما هو عبارة عن كلام الله والاصل : الحقيقة ، ومن قال : ان المكتوب في المصاحف عبارة عن كلام الله ، او حكاية كلام الله ، وليس فيها كلام الله : فقد خالف الكتاب والسنة وسلف الامة ، وكفى بذلك ضلالا .

وكلام الطحاوي يرد قول من قال انه معنى واحد لا يتصور سماعه منه ، وان المسموع المنزل المقروء والمكتوب ليس كلام الله وانما هو عبارة عنه ، فان الطحاوي رحمه الله يقول : « كلام الله منه بدا » وكذلك قال غيره من السلف « ويقولون منه بدا ، واليه يعود » وانما قالوا : منه بدا ، لأن الجهمية من المعتزلة وغيرهم كانوا يقولون انه خلق الكلام في محل ، فبدا الكلام من ذلك المحل ، فقال السلف منه بدا . اي هو المتكلم به ، فمنه بدا ، لا من بعض المخلوقات ، كما قال تعالى

(تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ) ١/ الزمر

وقال سبحانه . (وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى) ١٣/السجدة .

ومعنى قولهم : « واليه يعود » اي يرفع من الصدور والمصاحف ، فلا يبقى في الصدور منه اية ولا في المصاحف ، كما جاء ذلك في عدة آثار .

وقوله « بلا كيفية » اي لا يعرف كيفية تكلمه به قولا ليس بالمجاز ، وانزله على رسوله وحيا ، اي انزله اليه على لسان الملك ، فسمعه الملك جبريل من الله ، وسمعه الرسول محمد صلى الله عليه وسلم من الملك وقرأه على الناس .

قال تعالى : (نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ) ١٩٣ و١٩٤ و١٩٥/الشعراء .

وقوله : « وايقنوا انه كلام الله تعالى بالحقيقة ليس بمخلوق ككلام البرية » رد على المعتزلة وغيرهم . وفي قوله : « بالحقيقة » رد على من قال انه معنى واحد قائم بذات الله لم يسمع منه وانما هو الكلام النفساني ، لأنه لا يقال لمن قام به الكلام النفساني ولم يتكلم به : ان هذا كلام حقيقة ، والا للزم ان يكون الاخرس متكلما ، ولزم ان لا يكون الذي في المصحف عند الاطلاق هو القرآن ولا كلام الله ، ولكن عبارة عنه ليست هي كلام الله ، كما لو اشار اخرس الى شخص باشارة فهم بها مقصوده ، فكتب ذلك الشخص عبارته عن المعنى الذي اوحاه اليه ذلك الاخرس ، فالمكتوب هو عبارة ذلك الشخص عن ذلك المعنى ، وهذا المثل مطابق غاية المطابقة لما يقولونه ، وان كان الله تعالى لا يسميه احد « اخرس » ، لكن عندهم ان الملك فهم منه معنى قائما بنفسه ، لم يسمع منه حرفا ولا صوتا ، بل فهم معنى مجردا ، ثم عبر عنه ، فهو الذي احدث نظم القرآن وتأليفه العربي .

ويرد قول من قال بان الكلام هو المعنى القائم بالنفس : قوله صلى الله عليه وسلم : « **ان صلاتنا هذه لا يصلح فيها شيء من كلام الناس** » . وقال : « **ان الله يحدث من امره ما يشاء ؛ وان مما احدث : ان لا تكلموا في الصلاة** » . فقد اتفق العلماء على ان المصلي اذا تكلم في الصلاة عامدا لغير مصلحتها بطلت صلاته . واتفقوا كلهم على ان ما يقوم بالقلب — من تصديق بامور دنيوية وطلب — لا يبطل الصلاة ، وانما يبطلها التكلم بذلك ، فعلم اتفاق المسلمين على ان هذا ليس بكلام .

ولا شك ان من قال : ان كلام الله معنى واحد قائم بنفسه تعالى ، وان المتلو المحفوظ المكتوب المسموع من القارىء حكاية كلام الله ، وهو مخلوق . فقد قال بخلق القرآن وهو لا يشعر ، فان الله يقول

(قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ) ٨٨/الاسراء .

أفتَراه سبحانه يشير الى ما في نفسه او الى المتلو المسموع ؟

لا شك ان الاشارة انما هي الى هذا المتلو المسموع ، اذ ما في ذات الله غير مشار اليه ولا متلو ولا مسموع .

وقوله . « لا يأتون بمثله » أفتراه سبحانه يقول : لا يأتون بمثل ما في نفسي مما لم يسمعوه ولم يعرفوه ؟ وما في نفس الله عز وجل لا سبيل الى الوصول اليه ؟

وقوله : « ومن سمعه وقال انه كلام البشر فقد كفر » قول صحيح ، اذ لا شك في تكفير من انكر ان القرآن كلام الله ، ومن قال انه كلام محمد او غيره من الخلق ، ملكا كان او بشرا . واما اذا اقر انه كلام الله ، ثم اول وحرّف : فقد وافق قول من قال : (ان هذا الا قول البشر) في بعض ما به كفر .

وقوله : « ولا يشبه قول البشر » يعني : انه اشرف وافصح واصدق . قال تعالى : (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا) ٨٧/ النساء .

وقال تعالى : (قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ) ٣٨/يونس .

فلما عجزوا — وهم فصحاء العرب ، مع شدة العداوة — عن الاتيان بسورة مثله : تبين صدق الرسول صلى الله عليه وسلم انه من عند الله ، واعجازه من جهة نظمه ومعناه ، لا من جهة احدهما فقط .

● قال الطحاوي : (ومن وَصَفَ اللهَ بمعنى من معاني البَشَر ، فقد كفر . مَن ابصرَ هذا اعتبَرْ ، وعن مثل قول الكفار انزجرْ ، عَلِم انه بصفته ليس كالبشر) .

لما ذكر الشيخ فيما تقدم ان القرآن كلام الله حقيقة ، منه بدا : نبه بعد ذلك على انه تعالى بصفاته ليس كالبشر ، نفيا للتشبيه عقيب الاثبات . يعني ان الله تعالى وان وصف بانه متكلم ، لكن لا يوصف بمعنى من معاني البشر التي يكون الانسان بها متكلما ، فان الله ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير .

● قال : (والرؤية حق لاهل الجنة ، بغير احاطة ولا كيفية ، كما نطق به كتاب ربنا : « وجوه يومئذ ناضِرة الى ربها ناظرة » وتفسيره على ما اراد الله تعالى وعلمه ، وكل ما جاء في ذلك من الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كما قال : ومعناه على ما اراد ، لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ، ولا متوهمين باهوائنا ، فانه ما سَلِم في دينه الا من سَلّم لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، ورد علم ما اشتبه عليه الى عالمه) .

وهذا رد من الطحاوي على من خالَفَ في الرؤية ، رؤية المؤمنين اذا دخلوا الجنة الرب سبحانه ، اذ انكر ذلك الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم ، وقولهم باطل مردود بالكتاب والسنة . وقد قال بثبوت الرؤية : الصحابة والتابعون ، وائمة الاسلام المعروفون بالامامة في الدين ، واهل الحديث ، وسائر طوائف اهل الكلام المنسوبون الى السنة والجماعة .

وقد ذكر الشيخ رحمه الله من الادلة قوله تعالى :

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ) ٢٢/القيامة .

وهي من اظهر الادلة ، واما من ابى الا تحريفها بما يسميه تأويلا : فتأويل نصوص المعاد والجنة والنار والحساب اسهل من تأويلها على ارباب التأويل ، ولا يشاء مُبطِل ان يتأول النصوص ويحرفها عنْ مواضعها الا وجد الى ذلك من السبيل ما وجده متأول هذه النصوص .

وهذا الذي افسد الدنيا والدين ، وهكذا فعلت اليهود والنصارى في نصوص التوراة والانجيل ، وحذرنا الله ان نفعل مثلهم ، وابى المبطلون الا سلوك سبيلهم .

واضافة النظر الى الوجه – الذي هو محله – في هذه الآية ، وتعديته باداة « الى » الصريحة في نظر العين ، واخلاء الكلام من قرينة تدل على خلافه : حقيقة موضوعة في ان الله اراد بذلك نظر العين التي في الوجه الى الرب جل جلاله ، فان « النظر » له عدة استعمالات ، بحسب صلاته ، وتعديه بنفسه ، فان عدي بنفسه فمعناه : التوقف والانتظار ، كقوله : (انظرونا نقتبس من نوركم) . وان عدي بـ « في » فمعناه : التفكر والاعتبار ، كقوله تعالى : (او لم ينظروا في ملكوت السموات والارض) . وان عدي بـ « الى » فمعناه : المعاينة بالابصار ، كقوله تعالى : (انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه) . فكيف اذا أضيف الى الوجه الذي هو محل البصر ؟

وقال تعالى : (لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ) ٢٦/يونس .

فالحسنى : الجنة ، والزيادة : هي النظر الى وجهه الكريم ، فسرها بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما روى مسلم في صحيحه عن صهيب قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : للذين احسنوا الحسنى وزيادة ثم قال :

« اذا دخل اهل الجنةِ الجنةَ ، واهل النارِ النارَ : نادى منادٍ : يا اهل الجنة ، ان لكم عند الله موعدا يريد ان يُنجزكموه . فيقولون : ما هو ؟ الم يُثقل موازيننا ويُبيّض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويُجرنا من النار ؟ فيُكشَف الحِجاب ، فينظرون اليه ، فما اعطاهم شيئا احبَّ اليهم من النظر اليه ،

وهي الزيادة » .

ورواه غيره باسانيد متعددة والفاظ أُخر ، وكذلك فسرها الصحابة رضي الله عنهم ، روى ابن جرير الطبري ذلك عن جماعة منهم : ابو بكر الصديق رضي الله عنه ، وحذيفة ، وابو موسى الاشعري ، وابن عباس ، رضي الله عنهم .

وقال تعالى : (كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ) ١٥/ المطففين .

وقد احتج الشافعي رحمه الله وغيره من الائمة بهذه الآية على الرؤية لاهل الجنة . ذكر ذلك الطبري وغيره عن المزني عن الشافعي قال : لما ان حجب هؤلاء في السخط : كان في هذا دليل على ان اولياءه يرونه في الرضاء .

واما استدلال المعتزلة بقوله تعالى : (لن تراني) ، وبقوله تعالى : (لا تدركه الابصار) ـ فالآيتان دليل عليهم .

اما الآية الاولى : فالاستدلال منها على ثبوت الرؤية من وجوه :

احدها : انه لا يُظن بكليم الله ورسوله الكريم واعلم الناس بربه في وقته ان يسأل ما لا يجوز عليه .

الثاني : ان الله لم ينكر عليه سؤاله ، ولما سأل نوح ربه نجاة ابنه : انكر سؤاله وقال : (اني اعظك ان تكون من الجاهلين) .

الثالث : انه تعالى قال : لن تراني ، ولم يقل : اني لا أُرى ، او لا يجوز رؤيتي ، والفرق بين الجوابين ظاهر ، وموسى لا تحتمل قواه رؤيته في هذه الدار ، لضعف قوى البشر فيها .

الرابع : قول الله تعالى :
(وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي) ١٤٣/ الاعراف .

فاعلمه ان الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت للتجلي في هذه الدار ، فكيف بالبشر الذي خلق من ضعف ؟

الخامس : قوله تعالى :
(فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا) ١٤٣/ الاعراف .

فاذا جاز ان يتجلى للجبل ، الذي هو جماد ، فكيف يمتنع ان يتجلى لرسوله واوليائه في دار كرامته ؟ ولكن الله تعالى أَعلَمَ موسى ان الجبل اذا لم يثبت لرؤيته في هذه الدار فالبشر اضعف .

السادس : ان الله كلم موسى وناداه وناجاه ، ومن جاز عليه التكلم والتكليم وان يسمع مخاطَبه كلامَه بغير واسطة فرؤيته اولى بالجواز ، ولهذا لا يتم انكار رؤيته الا بانكار كلامه .

واما دعوى المعتزلة تأبيد النفي بـ « لن » . وان ذلك يدل على نفي الرؤية في الآخرة ـ: ففاسد ، فانها لو قيدت بالتأبيد لا يدل على دوام النفي في الآخرة ، فكيف اذا اطلقت ؟

قال تعالى : (وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا) ٩٥/ البقرة .

مع قوله : (وَنَادَوْا يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ) ٧٧/ الزخرف .

ولأنها لو كانت للتأبيد المطلق لما جاز تحديد الفعل بعدها ، وقد جاء ذلك .
قال تعالى : (فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ) ٨٠/يوسف .

فثبت ان « لن » لا تقتضي النفي المؤيد .

قال الشيخ جمال الدين بن مالك رحمه الله في الالفية المشهورة :

ومن رأى النفي بلن مؤبدا   فقوله اردد وسواه فاعضدا

واما الآية الثانية : فالاستدلال بها على الرؤية من وجه حسن لطيف ، وهو : ان الله تعالى انما ذكرها في سياق التمدح ، ومعلوم ان المدح انما يكون بالصفات الثبوتية ، واما العدم المحض فليس بكمال ، فلا يمدح به ، وانما يمدح الرب تعالى بالنفي اذا تضمن امرا وجوديا ، كمدحه بنفي السنة والنوم ، المتضمن كمال القيومية ، ونفي الموت المتضمن كمال الحياة ، ونفي اللغوب والاعياء ، المتضمن كمال القدرة ، ونفي الشريك والصاحبة ، والولد والظهير ، المتضمن كمال الربوبية والالوهية وقهره . ونفي الظلم ، المتضمن كمال عدله وعلمه وغناه . ونفي النسيان وعزوب شيء من علمه ، المتضمن كمال علمه واحاطته . ونفي المثل ، المتضمن لكمال ذاته وصفاته .

ولهذا لم يمتدح بعدم محض لم يتضمن امرا ثبوتيا ، فان المعدوم يشارك الموصوف في ذلك العدم ، ولا يوصف الكامل بامر يشترك هو والمعدوم فيه ، فان المعنى : انه يرى ولا يدرك ولا يحاط به ، فقوله : لا تدركه الابصار : يدل على كمال عظمته ؛ وانه اكبر من كل شيء ، وانه لكمال عظمته لا يدرك بحيث يحاط به ، فان الادراك هو الاحاطة بالشيء ، وهو قدر زائد على الرؤية ، فالرب تعالى يرى ولا يدرك ، كما يعلم ولا يحاط به علما ، وهو الذي فهمه الصحابة والائمة

من هذه الآية ، بل هذه الشمس المخلوقة لا يتمكن رائيها من ادراكها على ما هي عليه .

واما الاحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، الدالة على الرؤية ، فمتواترة . منها : حديث ابي هريرة : ان ناسا قالوا : يا رسول الله : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ؟ قالوا : لا يا رسول الله قال : هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا : لا . قال : فانكم ترونه كذلك** » . اخرجاه في الصحيحين .

وحديث ابي سعيد الخدري ايضا في الصحيحين نظيره .

وحديث جرير بن عبدالله البجلي قال : « **كنا جلوسا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فنظر الى القمر ليلة اربع عشرة ، فقال : انكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا ، لا تضامون في رؤيته** » اخرجاه في الصحيحين .

وليس تشبيه رؤية الله تعالى برؤية الشمس والقمر تشبيها لله ، بل هو تشبيه الرؤية بالرؤية ، لا تشبيه المرئي بالمرئي .

وقول الطحاوي « والرؤية حق لأهل الجنة »: تخصيص اهل الجنة بالذكر ، فيفهم منه نفي الرؤية عن غيرهم .

وكذلك يرونه في المحشر قبل دخولهم الجنة ، كما ثبت ذلك في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويدل عليه قوله تعالى:
(تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ) ٤٤/الاحزاب .

واتفقت الامة على انه لا يراه احد في الدنيا بعينه ، ولم يتنازعوا في ذلك ، الا في نبينا صلى الله عليه وسلم خاصة : منهم مَن نَفَى رؤيته بالعين ، ومنهم من اثبتها له صلى الله عليه وسلم . وحكى القاضي عياض في كتابه « الشفا » اختلاف الصحابة ومن بعدهم في رؤيته صلى الله عليه وسلم ، وانكار عائشة رضي الله عنها ان يكون النبي صلى الله عليه وسلم رأى ربه بعين رأسه ، وانها قالت لمسروق حين سألها : هل رأى محمد ربه ؟ فقالت : لقد قف شعري مما قلت . ثم قالت : من حدثك ان محمدا رأى ربه فقد كذب . ثم قال : وقال جماعة بقول عائشة رضي الله عنها ، وهو المشهور عن ابن مسعود وابي هريرة في قول عنه : وقال بانكار هذا وامتناع رؤيته في الدنيا جماعة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : انه صلى الله عليه وسلم رآه بعينه ، وروى عطاء عنه انه رآه بقلبه .

قال عياض : القول بانه رآه بعينه ليس فيه قاطع ولا نص ، والمعول فيه على آيتي النجم ، والتنازع فيهما مأثور ، والاحتمال لهما ممكن .

وهذا القول الذي قاله القاضي عياض رحمه الله هو الحق ، فان الرؤية في الدنيا ممكنة ، اذ لو لم تكن ممكنة لما سألها موسى عليه السلام ، لكن لم يرد نص بانه صلى الله عليه وسلم رأى ربه بعين رأسه ، بل ورد ما يدل على نفي الرؤية ، وهو ما رواه مسلم في صحيحه عن ابي ذر رضي الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **هل رأيتَ ربكَ ؟ فقال : نورٌ ، أنّى اراه ؟**» وفي رواية « **رأيت نورا** » .

وقد روى مسلم ايضا عن ابي موسى الاشعري رضي الله عنه قال : « **قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات ، فقال : ان الله لا ينام ولا ينبغي له ان ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع اليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور** » . وفي رواية « **لو كشفه لاحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه** » فيكون ــ والله اعلم ــ معنى قوله لابي ذر : رأيت نورا : انه رأى الحجاب . ومعنى قوله : نور أنّى اراه ؟ النور الذي هو الحجاب يمنع من رؤيته ، فأنى اراه ؟ اي : فكيف اراه والنور حجاب بيني وبينه يمنعني من رؤيته ؟

فهذا صريح في نفي رؤية النبي صلى الله عليه وسلم ربَّه ، والله اعلم .

وقول الطحاوي : « بغير احاطة ولا كيفية » هذا لكمال عظمته وبهائه ، سبحانه وتعالى . قال تعالى (وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا) ١١٠/طه .

وقول الطحاوي « فانه ما سلم في دينه الا من سلم لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم ورد علم ما اشتبه عليه الى عالمه » . اي سلم لنصوص الكتاب والسنة ، ولم يعترض عليها بالشكوك والشبه والتأويلات الفاسدة ، او بقوله : العقل يشهد بضد ما دل عليه النقل ، والعقل اصل النقل !! فاذا عارضه قدمنا العقل ! وهذا لا يكون قط . لكن اذا جاء ما يوهم مثل ذلك : فان كان النقل صحيحا فذلك الذي يدعي انه معقول انما هو مجهول ، ولو حقق النظر لظهر ذلك ، وان كان النقل غير صحيح فلا يصلح للمعارضة ، فلا يتصور ان يتعارض عقل صريح ، ونقل صحيح ابدا . ويعارض كلام من يقول ذلك بنظره ، فيقال : اذا تعارض العقل والنقل وَجَبَ تقديم النقل ، لأن الجمع بين المدلولين : جمع بين النقيضين ، وتقديم العقل ممتنع ، لأن العقل دلَّ على صحة السمع ووجوب قبول ما اخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلو ابطلنا النقل لكنا قد ابطلنا دلالة العقل ، ولو ابطلنا دلالة العقل لم يصلح ان يكون معارضا للنقل ،

لأن ما ليس بدليل لا يصلح لمعارضة شيء من الاشياء ، فكان تقديم العقل موجبا عدم تقديمه ، فلا يجوز تقديمه ، وهذا بَيِّن واضح ، فان العقل هو الذي دل على صدق السمع وصحته ، وان خبره مطابق لمخبره ، فان جاز ان تكون الدلالة باطلة لبطلان النقل : لزم ان لا يكون النقل دليلا صحيحا ، واذا لم يكن دليلا صحيحا : لم يجز ان يُتبع بحال ، فضلا عن ان يقدم ، فصار تقديم العقل على النقل قدحا في العقل .

فالواجب : كمال التسليم للرسول صلى الله عليه وسلم ، والانقياد لامره ، وتلقي خبره بالقبول والتصديق ، دون ان نعارضه بخيال باطل نسميه معقولا ، او نحمله شبهة او شكاً ، او نقدم عليه آراء الرجال ، فنوحده بالتحكيم والتسليم والانقياد والاذعان ، كما نوحد المرسل بالعبادة والخضوع والذل والانابة والتوكل .

فهما توحيدان ، لا نجاة للعبد من عذاب الله الا بهما : توحيد المرسل تعالى ، وتوحيد متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم .

قال الامام احمد بن حنبل : حدثنا انس بن عياض ، حدثنا ابو حازم ،

« لقد جلست انا واخي مجلسا ما احب ان لي به حمر النعم . اقبلت انا واخي ، واذا مشيخة من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم جلوس عند باب من ابوابه ، فكرهنا ان نفرق بينهم ، فجلسنا حجرة ، اذ ذكروا آية من القرآن ، فتماروا فيها ، حتى ارتفعت اصواتهم ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مغضبا قد احمر وجهه ، يرميهم بالتراب ويقول :

مهلا يا قوم ، بهذا اهلكت الامم من قبلكم ، باختلافهم على انبيائهم ، وضربهم الكتب بعضها ببعض ، ان القران لم ينزل يكذب بعضه بعضا ، بل يصدق بعضه بعضا ، فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما جهلتم منه فردوه الى عالمه » .

قال احمد محمد شاكر : هذا الحديث هو الحديث رقم ٦٧٠٢ في مسند الامام احمد ، بتحقيقنا ، وهو حديث صحيح ، ومعناه ثابت في المسند ايضا ، مختصرا برقم ٦٦٦٨ ، ورواه البخاري في كتاب خلق افعال العباد ص ٧٨ ، وروى مسلم في صحيحه ٢ / ٣٠٤ نحو معناه .

قال العلامة الاذرعي الشارح :

ولا شك ان الله قد حرم القول عليه بغير علم .

قال تعالى :

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) ٣٣/الاعراف .

وقال تعالى : (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) ٣٦/الاسراء .

فعلى العبد ان يجعل ما بعث الله به رسله وانزل به كتبه هو الحق الذي يجب اتباعه ، فيصدق بانه حق وصدق ، وما سواه من كلام سائر الناس يعرض عليه ، فان وافقه فهو حق ، وان خالفه فهو باطل ، وان لم يعلم : هل خالفه او وافقه : يكون ذلك الكلام مجملاً لا يعرف مراد صاحبه ، او قد عرف مراده لكن لم يعرف : هل جاء رسول بتصديقه او بتكذيبه : فانه يمسك عنه ، ولا يتكلم الا بعلم ، والعلم ما قام عليه الدليل ، والنافع منه ما جاء به الرسول ، وقد يكون علم من غير الرسول ، لكن في الامور الدنيوية ، مثل الطب والحساب ، واما الامور الالهية فتؤخذ عن الرسول لا غير .

● قال الطحاوي : (ولا تثبت قَدَم الاسلام الى على ظهر التسليم والاستسلام) .

وهذا من باب الاستعارة ، اذ القدم الحسي لا تثبت الا على ظهر شيء ، اي لا يثبت اسلام من لم يسلّم لنصوص الوحيين ، وينقد اليها ، ولا يعترض عليها ، ولا يعارضها برأيه ومعقوله وقياسه .

روى البخاري عن الامام محمد بن شهاب الزهري رحمه الله انه قال : من الله الرسالة ، ومن الرسول البلاغ ، وعلينا التسليم .

● قال : (فمن رامَ عِلم ما حُظِر عنه عِلمه ، ولم يقنع بالتسليم فهمُه : حَجَبه مرامه عن خالص التوحيد ، وصافي المعرفة ، وصحيح الايمان) .

وهذا تقرير للكلام الاول ، وزيادة تحذير ان يُتكلم في اصول الدين – بل وفي غيرها – بغير علم .

قال تعالى :

(وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ) ٣/الحج .

وقال سبحانه :

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) ٥٠/القصص.

وعن ابي امامة الباهلي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه الا أوتوا الجَدَل . ثم تلا : ما ضربوه لك الا جدلا** » رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

● **قال : (فيتذبذب بين الكفر والايمان ، والتصديق والتكذيب ، والاقرار والانكار ، مُوَسْوِسا تائها ، شاكّا ، لا مؤمنا مصدقا ، ولا جاحدا مكذِبا) .**

يتذبذب : يضطرب ويتردد .

وهذه الحال التي وصفها الشيخ رحمه الله حال كل من عدل عن الكتاب والسنة الى علم الكلام المذموم ، او اراد ان يجمع بينه وبين الكتاب والسنة وعند التعارض يتأول النص ويرده الى الراي والآراء المختلفة ، فيؤول امره الى الحيرة والضلال والشك ، كما قال ابن رشد ، الحفيد ــ وهو من اعلم الناس بمذاهب الفلاسفة ومقالاتهم ــ في كتابه « تهافت التهافت » : ومن ذا الذي قال في الالهيات شيئا يعتد به ؟

وكذلك الآمدي ــ افضل اهل زمانه ــ واقف في المسائل الكبار ، حائر .

وكذلك الغزالي رحمه الله : انتهى آخر امره الى الوقف والحيرة في المسائل الكلامية ، ثم اعرض عن تلك الطرق واقبل على احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، فمات وصحيح البخاري على صدره .

وكذلك ابو عبدالله محمد بن عمر الرازي : قال : لقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفي عليلا ، ولا تروي غليلا ، ورأيت اقربَ الطرق : طريقةُ القرآن . إقرأ في الاثبات : (الرحمن على العرش استوى) . (اليه يصعد الكلم الطيب) . واقرأ في النفي : (ليس كمثله شيء) . (ولا يحيطون به علما) . ثم قال : ومن جرب مثل تجربتي : عرف مثل معرفتي .

وكذلك الشيخ محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ، لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين الا الحيرة والندم ، فقال :

لعَمري لقد طفتُ المعاهدَ كلها ... وسيَّرت طَرفي بين تلك المعالمِ
فلم أرَ إلا واضِعاً كفَّ حائرٍ ... على ذَقَنٍ ، او قارِعاً سِنَّ نادمِ

وقال ابو المعالي الجويني . لقد خضتُ البحرَ الخِضَم ، وخليت اهل الاسلام وعلومهم ، ودخلت في الذي نهوني عنه ، والآن فان لم يتداركني ربي برحمته فالويل لابن الجويني ، وها انا ذا اموت على عقيدة امي وعجائز نيسابور .

والدواء النافع لمثل هذا المرض ما كان من طبيب القلوب صلوات الله وسلامه عليه يقوله – اذا قام من الليل يفتتح الصلاة – :

« اللهم ربَّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والارض ، عالم الغيب والشهادة ، انت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون . اهدني لما أُختلف فيه من الحق باذنك ، انك تهدي من تشاء الى صراط مستقيم » . خرّجه مسلم .

● **قال : (ولا يصح الايمان بالرؤية لأهل دار السلام لمن اعتبرها منهم بوهم ، او تأولها بفهم ، اذ كان تأويل الرؤية – وتأويل كل معنى يضاف الى الرؤية – بترك التأويل ، ولزوم التسليم ، وعليه دين المسلمين ، ومن لم يتوقّ النفي والتشبيه : زلّ ولم يُصِب التنزيه) .**

ويشير الشيخ رحمه الله بقوله هذا الى الرد على المعتزلة ومن يقول بقولهم في نفي الرؤية ، وعلى من يشبه الله بشيء من مخلوقاته ، فان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر** » ، فادخل « كاف » التشبيه على « ما » المصدرية أو الموصولة بـ« ترون » التي تتأول مع صلتها الى المصدر الذي هو « الرؤية » ، فيكون التشبيه في الرؤية لا في المرئي . وهذا بين واضح في ان المراد اثبات الرؤية وتحقيقها ، ودفع الاحتمالات عنها ، وماذا بعد هذا البيان وهذا الايضاح ؟ فاذا سلط التأويل على مثل هذا النص : كيف يُستدل بنص من النصوص ؟ وهل يحتمل هذا النص ان يكون معناه : انكم تعلمون ربكم كما تعلمون القمر ؟

ويُستشهَد لهذا التأويل الفاسد بقوله تعالى : (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) ، ونحو ذلك مما استعمل فيه « رأى » التي هي من افعال القلوب . ولا شك ان « ترى » تارة تكون بصرية ، وتارة تكون قلبية ، وتارة تكون من رؤيا الحلم ، وغير ذلك ، ولكن ما يخلو الكلام من قرينة تخلص اضل معانيه من الباقي ، والا لو اخلى المتكلم كلامه من القرينة المخَلِّصة لأحد المعاني لكان مجملا مُلغزا ، لا مبينا ولا موضحا . واي قرينة فوق قوله صلى الله عليه وسلم : « **ترون ربكم كما ترون الشمس في الظهيرة ليس دونها سَحاب** » ؟

فان قالوا : ألجأنا الى هذا التأويل حكم العقل بأن رؤيته تعالى محال لا يُتصور امكانها !

فالجواب : ان هذه دعوى منكم ، خالفكم فيها اكثر العقلاء ، وليس في العقل ما يحيلها ، بل لو عرض على العقل موجود قائم بنفسه لا يمكن رؤيته

لحكم بأن هذا محال .

وقوله : « لمن اعتبرها منهم بوهم » : اي توهم ان الله تعالى يرى على صفة كذا ، فيتوهم تشبيها ، ثم بعد هذا التوهم - إن اثبت ما توهمه من الوصف - فهو مشبه ، وان نفى الرؤية من اصلها لأجل ذلك التوهم فهو جاحد معطل ، بل الواجب دفع ذلك الوهم وحده ، ولا يعمم بنفيه الحق والباطل ، فينفيهما رداً على من اثبت الباطل ، بل الواجب رد الباطل وإثبات الحق .

والى هذا المعنى اشار الشيخ رحمه الله بقوله : « ومن لم يتوق النفي والتشبيه : زل ولم يصب التنزيه » ، فان هؤلاء المعتزلة يزعمون انهم ينزهون الله بهذا النفي ! وهل يكون التنزيه بنفي صفة الكمال ؟ فان نفي الرؤية ليس بصفة كمال ، اذ المعدوم لا يرى ، وانما الكمال في اثبات الرؤية ونفي ادراك الرائي له ادراك إحاطة ، كما في العلم ، فان نفي العلم به ليس بكمال ، وانما الكمال في اثبات العلم ونفي الاحاطة به علما ، فهو سبحانه لا يُحاط به رؤية ، كما لا يُحاط به علما .

وقوله : « او تأولها بفهم » : أي ادعى انه فهم لها تأويلا يخالف ظاهرها ، وما يفهمه كل عربي من معناها ، فانه قد صار اصطلاح المتأخرين في معنى التأويل : انه صرف اللفظ عن ظاهره ، وبهذا تسلط المحرفون على النصوص ، فسموا التحريف : تأويلا ، تزيينا له وزخرفة ليقبل ، وقد ذم الله الذين زخرفوا الباطل ، فقال: (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا) ١١٢/ الانعام.

والعبرة للمعاني لا للالفاظ ، فكم من باطل قد أقيم عليه دليل مزخرف عورض به دليل الحق .

وليس مراد الطحاوي ترك كل ما يسمى تأويلا ، وانما مراده : ترك التأويلات الفاسدة المبتدعة ، فان التأويل في كتاب الله وسنة رسوله : هو الحقيقة التي يؤول اليها الكلام . فتأويل الخبر : هو عين المخبر به . وتأويل الأمر : نفس الفعل المأمور به . كما قالت عائشة رضي الله عنها : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في ركوعه : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي . يتأول القرآن » .

وقال تعالى : (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ) ٥٣/ الاعراف.

ومنه تأويل الرؤيا ، وتأويل العمل ، كقوله تعالى :

(هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ) ١٠٠/يوسف .

وقوله سبحانه :-(وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ) ٦/يوسف .

فمن ينكروقوع مثل هذا التأويل ؟

وأما ما كان خبرا ، كالاخبار عن الله واليوم الآخر ، فهذا قد لا يُعلم تأويله ، الذي هو حقيقته ، فان المخبَر ان لم يكن قد تضور المخبَر به ، اولم يعرفه قبل ذلك : لم يعرف حقيقته ، التي هي تأويله ، بمجرد الاخبار ، وهذا هو التأويل الذي لا يعلمه الا الله ، لكن لا يلزم من نفي العلم بالتأويل نفي العلم بالمعنى الذي قصد المخاطِب افهام المخاطَب اياه ، فما في القرآن آية الا وقد امر الله بتدبرها ، وما انزل آية الا وهو يحب ان يعلم ما عنى بها ، وان كان من تأويله ما لا يعلمه الا الله ، فهذا هو معنى التأويل في الكتاب والسنة وكلام السلف ، وسواء كان هذا التأويل موافقا للظاهر او مخالفا له .

ولكن التأويل في كلام المتأخرين من الفقهاء والمتكلمين : هو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح الى الاحتمال المرجوح لدلالة توجب ذلك ، وهذا هو التأويل الذي تنازع الناس فيه في كثير من الامور الخبرية والطلبية فالتأويل الصحيح منه : هو الذي يوافق ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة ، وما خالف ذلك فهو التأويل الفاسد .

ويقال لأهل التأويل : هذا الباب الذي فتحتموه فتحتم به بابا لانواع المشركين والمبتدعين لا تقدرون على سده ، فانكم اذا سوغتم صرف القرآن عن دلالته المفهومة بغير دليل شرعي ، فما الضابط فيما يسوغ تأويله وما لا يسوغ ؟ فان قلتم : ما دل القاطع العقلي على استحالته تأولناه ، وإلا أقررناه ! قيل : وبأي عقل نزن القاطع العقلي ؟ فان القرمطي يزعم قيام القواطع على بطلان ظواهر الشرع ، ويزعم الفيلسوف قيام القواطع على بطلان حشر الاجساد ، ويزعم المعتزلي قيام القواطع على امتناع رؤية الله تعالى . ويلزم حينئذ محذوران عظيمان :

احدهما : ان لا نقر بشيء من معاني الكتاب والسنة حتى نبحث قبل ذلك بحوثا طويلة عريضة في امكان ذلك بالعقل . وكل طائفة من المختلفين في الكتاب يدعون ان العقل يدل على ما ذهبوا اليه ، فيؤول الأمر الى الحيرة المحذورة .

الثاني : ان القلوب تتخلى عن الجزم بشيء تعتقده ، مما اخبر به الرسول ، اذ لا يوثق بأن الظاهر هو المراد ، والتأويلات مضطربة ، فيلزم عزل الكتاب والسنة عن الدلالة والارشاد الى ما انبأ الله به العباد ، وخاصة النبي هي الانباء ، والقرآن هو النبأ العظيم ، ولهذا نجد اهل التأويل انما يذكرون نصوص الكتاب والسنة للاعتضاد لا للاعتماد ، ان وافقت ما ادعوا ان العقل دل عليه : قبلوها ، وان خالفته . اولوها ، وهذا فتح باب الزندقة ، نسأل الله

العافية .

واما ما قاله الطحاوي من ان « من لم يتوق النفي والتشبيه : زل ولم يصب التنزيه » فذلك لان النفي والتشبيه من امراض القلوب ، فان امراض القلوب نوعان : مرض شبهة ، ومرض شهوة ، وكلاهما مذكور في القرآن .

قال تعالى : (فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ) ٣٢/الاحزاب .

فهذا مرض الشهوة .

وقال تعالى : (وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ) ١٢٥/ التوبة .

وهذا مرض الشبهة ، وهو اردأ من مرض الشهوة ، اذ مرض الشهوة يرجى له الشفاء بقضاء الشهوة ، ومرض الشبهة لاشفاء له ان لم يتداركه الله برحمته .

والشبهة التي في مسألة الصفات : نفيها وتشبيهها . وشبه النفي اردأ من شبه التشبيه ، فان شبه النفي رد وتكذيب لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وشبه التشبيه غلو ومجاوزة للحد .

● **قال الطحاوي : (فان ربنا جَلّ وعلا موصوف بصفات الوحدانية ، منعوت بنعوت الفردانية ، ليس في معناه احد من البَرِية) .**

ويشير الشيخ بقوله هذا الى تنزيه الرب تعالى بالذي هو وصفه ، كما وصف نفسه نفيا وإثباتا . وكلام الشيخ مأخوذ من معنى سورة الاخلاص ، فقوله : « موصوف بصفات الوحدانية » مأخوذ من قوله تعالى : (قل هو الله احد) . وقوله : « منعوت بنعوت الفردانية » من قوله تعالى : (الله الصمد ، لم يلد ولم يولد) . وقوله : « ليس في معناه احد من البرية » من قوله تعالى : (ولم يكن له كفوا احد) . وهو ايضا مؤكد لما تقدم من اثبات الصفات ونفي التشبيه .

والوصف والنعت مترادفان ، وقيل : متقاربان ، فالوصف للذات ، والنعت للفعل . وكذلك الوحدانية والفردانية ، وقيل في الفرق بينهما : ان الوحدانية للذات ، والفردانية للصفات ، فهو تعالى موحد في ذاته ، منفرد بصفاته .

● **قال : (وتعالى عن الحدود والغايات ، والاركان والاعضاء والادوات ، لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات) .**

وللناس في اطلاق مثل هذه الالفاظ ثلاثة اقوال . فطائفة تنفيها ، وطائفة تُثبتها ، وطائفة تفصّل ، وهم المتبعون للسلف ، فلا يطلقون نفيها ولا اثباتها الا اذا تبيّن ، ما اثبت بها فهو ثابت ، وما نفي بها فهو منفي ، لأن المتأخرين قد صارت هذه الالفاظ في اصطلاحهم فيها اجمال وابهام ، كغيرها من الالفاظ الاصطلاحية ، فليس كلهم يستعملها في نفس معناها اللغوي ، ولهذا كان النفاة ينفون بها حقا وباطلا ، ويذكرون عن مثبتها ما لا يقول به ، وبعض المثبتين لها يُدخل لها معنى باطلا ، مخالفا لقول السلف ولما دل عليه الكتاب والميزان ، ولم يرد نص من الكتاب ولا من السنة بنفيها ولا اثباتها ، وليس لنا ان نصف الله تعالى بما لم يصف به نفسه ولا وصفه به رسوله ، نفيا ولا اثباتا ، وانما نحن متبعون لا مبتدعون .

فالواجب ان نثبت في باب الصفات ما اثبته الله ورسوله ، وان ننفي ما نفاه الله ورسوله ، والالفاظ التي ورد بها النص يعتصم بها في الاثبات والنفي ، واما الالفاظ التي لم يرد نفيها ولا اثباتها فلا تطلق حتى ينظر في مقصود قائلها . فان كان معنى صحيحا : قبل ، لكن ينبغي التعبير عنه بالفاظ النصوص ، دون الالفاظ المجملة ، الا عند الحاجة ، مع قرائن تبين المراد ، والحاجة مثل ان يكون الخطاب مع من لا يتم المقصود معه ان لم يخاطب بها ، ونحو ذلك .

والشيخ رحمه الله أراد الرد بهذا الكلام على المشبهة القائلين : ان الله جسم ، وانه جثة واعضاء ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا . فالمعنى الذي اراده الشيخ رحمه الله من النفي الذي ذكره هنا : حق ، لكن حَدَث بعده مَن ادخلَ في عموم نفيه حقا وباطلاً ، فيحتاج الى بيان ذلك ، وهو . ان السلف متفقون على ان البشر لا يعلمون لله حَدًّا ، وانهم لا يحدّون شيئا من صفاته .

قال ابو داود الطيالسي : كان سُفيان الثوري ، وشُعبة ، وحَمّاد بن زيد ، وحماد بن سلمة ، وشَريك ، وابو عَوانة ، لا يحدّون ولا يُشبّهون ولا يُمثلون يروون الحديث ولا يقولون : كيف ؟ واذا سئلوا قالوا بالأثر .

ومن المعلوم ان الحدّ يقال على ما ينفصل به الشيء ويتميز به عن غيره ، والله تعالى غير حالٍّ في خلقه ، ولا قائم بهم ، بل هو القيوم القائم بنفسه ، المقيم لما سواه . فالحد بهذا المعنى لا يجوز ان يكون فيه منازعة في نفس الأمر اصلا ، فانه ليس وراء نفيه الا نفي وجوب وجود الرب ونفي حقيقته . واما الحد بمعنى العلم والقول ، وهو ان يحده العباد ، فهذا منتف بلا منازعة بين اهل السنة

قال ابو القاسم القشيري في رساله ، سمعت ابا عبد الرحمن السلمي . سمعت ابا منصور بن عبد الله . سمعت ابا الحسن العنبري ، سمعت بسهل بن عبد الله التستري يقول ـ وقد سئل عن ذات الله ـ فقال ، ذات الله موصوفة بالعلم . غير مدركة بالاحاطة . ولا مرئية بالابصار في دار الدنيا . وهي موجودة بحقائق الايمان . من غير حد ولا احاطة ولا حلول . وتراه العيون في العقبى . ظاهرا في ملكه وقدرته . وقد حجب الخلق عن معرفة كنه ذاته . ودلهم عليه بآياته . فالقلوب تعرفه . والعيون تدركه . ينظر اليه المؤمن بالأبصار . من غير احاطة ولا ادراك نهاية .

واما لفظ « الاركان » و« الاعضاء » و« الادوات » فيستدل بها النفاة على نفي بعض الصفات الثابتة بالأدلة القطعية ، كاليد والوجه .

قال ابو حنيفة رضي الله عنه في الفقه الاكبر : له يد ووجه ونفس ، كما ذكر تعالى في القرآن من ذكر اليد والوجه والنفس ، فهو له صفة بلا كيف ، ولا يقال ان يده قدرته ونعمته ، لأن فيه ابطال الصفة . انتهى .

وهذا الذي قاله الامام رضي الله عنه ثابت بالادلة القاطعة .

قال تعالى : (مَامَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ) ٧٥/ص .

وقال سبحانه : (وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ) ٦٧/الزمر .

وقال عز وجل : (كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ) ٨٨/القصص .

وقال تعالى : (تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَ) ١١٦/المائدة .

وقال صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة لما يأتي الناس ادم فيقولون له : « خلقك الله بيده واسجد لك ملائكته » .

ولا يصح تأويل من قال : ان المراد باليد القدرة ، فان قوله : (لما خلقت بيديَّ) لا يصح ان يكون معناه : بقدرتي ، مع تثنية اليد .

ولا دليل لهم في قوله تعالى : (الم يروا انا خلقنا لهم مما عملت ايدينا انعاما فهم لها مالكون) ، لانه تعالى جمع الايدي لما اضافها الى ضمير الجمع ، ليتناسب الجمعان .

ولكن لا يقال لهذه الصفات انها اعضاء ، او جوارح ، او ادوات ، او اركان ، لأن الركن جزء الماهية ، والله تعالى هو الأحد الصمد ، لا يتجزأ ، سبحانه وتعالى ، والاعضاء فيها معنى التفريق ، تعالى الله عن ذلك ، والجوارح

فيها معنى الاكتساب والانتفاع ، وكذلك الادوات هي الآلات التي ينتفع بها في جلب المنفعة ودفع المضرة ، وكل هذه المعاني منتفية عن الله تعالى ، ولهذا لم يرد ذكرها في صفات الله تعالى ، فالالفاظ الشرعية صحيحة المعاني ، سالمة من الاحتمالات الفاسدة ، فكذلك يجب ان لا يعدل عن الالفاظ الشرعية نفيا ولا اثباتا ، لئلا يثبت معنى فاسد ، او يُنفى معنى صحيح ، وكل هذه الالفاظ المجملة عرضة للمحق والمبطل .

واما لفظ « الجهة » فقد يراد به ما هو موجود ، وقد يراد به ما هو معدوم ، ومن المعلوم انه لا موجود الا الخالق والمخلوق ، فاذا اريد بالجهة امر موجود غير الله تعالى كان مخلوقا ، والله تعالى لا يحصره شيء ، ولا يحيط به شيء من المخلوقات ، تعالى الله عن ذلك . وان اريد بالجهة امر عدمي ، وهو ما فوق العالم ، فليس هناك الا الله وحده ، فاذا قيل « انه في جهة » بهذا الاعتبار فهو صحيح ، ومعناه : انه فوق العالم حيث انتهت المخلوقات ، فهو فوق الجميع ، عال عليه .

ونفاة لفظ « الجهة » الذين يريدون بذلك نفي العلو ، يذكرون من ادلتهم : ان الجهات كلها مخلوقة ، وانه كان قبل الجهات ، وان من قال انه في جهة يلزمه القول بقدم شيء من العالم ، وانه كان مستغنيا عن الجهة ثم صار فيها ، وهذه الالفاظ ونحوها انما تدل على انه ليس في شيء من المخلوقات ، سواء سمي جهة او لم يسم ، وهذا حق . ولكن الجهة ليست امرا وجوديا ، بل امر اعتباري ، ولا شك ان الجهات لا نهاية لها ، وما لا يوجد فيما لا نهاية له فليس بموجود .

وقول الشيخ رحمه الله « لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات » هو حق ، باعتبار انه لا يحيط به شيء من مخلوقاته ، بل هو محيط بكل شيء وفوقه . وهذا المعنى هو الذي اراده الشيخ رحمه الله ، لما يأتي في كلامه : « انه تعالى محيط بكل شيء وفوقه » . فاذا جمع بين كلامه ، وهو قوله : « لا تحويه الجهات الست » وقوله . « محيط بكل شيء وفوقه » : علم ان مراده ان الله تعالى لا يحويه شيء ، ولا يحيط به شيء ، كما يكون لغيره من المخلوقات ، وانه تعالى هو المحيط بكل شيء ، العالي على كل شيء .

وللجهال هنا اوهام ، وبصورة خاصة ازاء حديث نزول الرب تعالى الى السماء الدنيا كل ليلة ، فيظنون انه اذا نزل ـ كما اخبر الصادق صلى الله عليه وسلم ـ: يكون العرش فوقه ، ويكون محصورا بين طبقتين من العالم . وهذا ظن مخالف لاجماع السلف ، مخالف للكتاب والسنة .

قال شيخ الاسلام ابو عثمان اسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني : سمعت الاستاذ ابا منصور بن حماذ ـ بعد روايته حديث النزول ـ يقول : سئل ابو حنيفة عنه فقال : ينزل بلا كيف .

وانما توقف من توقف في نفي ذلك لضعف علمه بمعاني الكتاب والسنة واقوال السلف ، ولذلك ينكر بعضهم ان يكون فوق العرش ، بل يقول : لا مباين ولا مجانب ، لا داخل العالم ولا خارجه ، فيصفونه بصفة العدم والممتنع ، ولا يصفونه بما وصف به نفسه من العلو والاستواء على العرش .

● قال الطحاوي : (والمعراج حق ، وقد أُسري بالنبي صلى الله عليه وسلم وعُرِج بشخصه في اليقظة الى السماء ، ثم الى حيث شاء الله من العلا ، واكرمه الله بما شاء ، واوحى اليه ما اوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، فصلى الله عليه في الآخرة والاولى) .

قال الشارح قاضي القضاة ابن ابي العز :

المعراج : مِفعال ، من العروج ، اي الآلة التي يُعرج فيها ، اي يُصعد ، وهو بمنزلة السُلم ، لكن لا يعلم كيف هو ، وحكمه كحكم غيره من المغيبات ، ونؤمن به ولا نشتغل بكيفيته .

واختلف الناس في الاسراء :

فقيل : كان الاسراء بروحه ولم يفقد جسده . نقله ابن اسحاق عن عائشة رضي الله عنها ، ونقل عن الحسن البصري نحوه ، لكن ينبغي ان يعرف الفرق بين ان يقال . كان الاسراء مناما ، وبين ان يقال : كان بروحه دون جسده ، وبينهما فرق عظيم ، فعائشة ومعاوية رضي الله عنهما لم يقولا : كان مناما ، وانما قالا : اسري بروحه ولم يفقد جسده ، وفرق ما بين الأمرين : أن ما يراه النائم قد يكون امثالا مضروبة للمعلوم في الصورة المحسوسة ، فيرى كأنه قد عرج الى السماء ، وذهب به الى مكة ، وروحه لم تصعد ولم تذهب ، وانما مَلَك الرؤيا ضرب له المثال ، فما ارادت عائشة ولا اراد معاوية ان الاسراء كان مناما ، وانما أراد ان الروح ذاتها [illegible] ي بها ، ففارقت الجسد ثم عادت اليه ، ويجعلان هذا من خصائصه ، فان غيره لا تنال ذات روحه الصعود الكامل الى السماء الا بعد الموت .

وقيل : كان الاسراء مرتين ، مرة يقظة ، ومرة مناما . واصحاب هذا القول كأنهم ارادوا الجمع بين حديث شريك وقوله : « ثم استيقظت » وبين سائر الروايات . وكذلك منهم من قال : بل كان مرتين ، مرة قبل الوحي ، ومرة

بعده . ومنهم من قال : بل ثلاث مرات ، مرة قبل الوحي ، ومرتين بعده . وكلما اشتبه عليهم لفظ : زادوا مرة ، للتوفيق ! وهذا يفعله ضعفاء اهل الحديث ، والا فالذي عليه ائمة النقل : ان الاسراء كان مرة واحدة بمكة ، بعد البعثة ، قبل الهجرة بسنة ، وقيل : بسنة وشهرين . ذكره ابن عبد البر .

قال شمس الدين ابن قيم الجوزية : ياعجبا لهؤلاء الذين زعموا انه كان مرارا ! كيف ساغ لهم ان يظنوا انه في كل مرة يفرض عليهم الصلوات خمسين مرة ، ثم يتردد بين ربه وبين موسى حتى تصير خمسا ، فيقول : « امضيت فريضتي ، وخففت عن عبادي » ، ثم يعيدها في المرة الثانية الى خمسين ، ثم يحطها الى خمس ؟ وقد غلط الحفاظ شريكا في الفاظ من حديث الاسراء ، ومسلم أورد المسند منه ثم قال « فقدّم وأخّر ، وزاد ونقص » ، وأجاد رحمه الله . انتهى كلام ابن القيم رحمه الله .

وكان من حديث الاسراء : انه صلى الله عليه وسلم اسري بجسده في اليقظة ، على الصحيح ، من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى ، راكبا على البراق .

قال البخاري في الجزء الخامس من صحيحه : حدثنا هُدْبَة بن خالد ، حدثنا هَمّام بن يحيى ، حدثنا قَتَادة ، عن انس بن مالك ، عن مالك بن صَعْصَعة رضي الله عنهما ، ان نبي الله صلى الله عليه وسلم حدثهم عن ليلة أُسري به : **« بينما انا في الحَطيم – وربما قال : في الحِجر – مُضطجعا ، اذ اتاني آتٍ فَقَدّ. قال : وسمعته يقول : فشق ما بين هذه الى هذه . فقلت للجارود وهو الى جنبي : ما يعني به ؟ قال : من ثُغرة نَحره الى شِعرَته ، وسمعته يقول : من قَصّه الى شِعرته ، فاستخرج قلبي ، ثم أتيت بطَست من ذهب مملوءة ايمانا ، فغسِل قلبي ، ثم حُشِي ، ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار ، ابيض . فقال له الجارود : هو البراق يا ابا حمزة ؟ قال انس : نعم ، يضع خَطوَهُ عند اقصى طَرْفه ، فحُملت عليه ، فانطلق بي جبريل ، حتى اتى السماء الدنيا فاستفتح ، فقيل : من هذا ؟**

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد .

قيل : وقد أُرسِل اليه ؟

قال : نعم .

قيل : مرحبا به ، فنِعمَ المجيءُ جاءَ .

ففتح ، فلما خَلصتُ ، فاذا فيها آدم ، فقال : هذا ابوك آدم فسلم عليه . فسلمت عليه ، فرد السلام ، ثم قال : مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح .

ثم صَعِدَ حتى اتى السماء الثانية ، فاستفتح . قيل : من هذا ؟

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد .

قيل : وقد ارسِل اليه ؟

قال : نعم .

قيل : مرحبا به ، فنعم المجيء جاء .

ففتح ، فلما خلصت اذا يحيى وعيسى ، وهما ابنا الخالة .

قال : هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما ، فسلمت ، فردا ، ثم قالا : مرحبا بالاخ الصالح والنبي الصالح .

ثم صعد بي الى السماء الثالثة فاستفتح . قيل : مَن هذا ؟

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد .

قيل : وقد ارسل اليه ؟

قال : نعم .

قيل : مرحبا به ، فنعم المجيء جاء .

ففتح ، فلما خلصت اذا يوسف . قال : هذا يوسف فسلم عليه . فسلمت عليه ، فرد ثم قال : مرحبا بالاخ الصالح والنبي الصالح .

ثم صعد بي ، حتى اتى السماء الرابعة فاستفتح . قيل : من هذا ؟

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد .

قيل : او قد ارسل اليه ؟

قال : نعم

قيل : مرحبا به ، فنعم المجيء جاء . ففتح ، فلما خلصت الى ادريس ، قال : هذا ادريس فسلم عليه ، فسلمت عليه ، فرد ثم قال : مرحبا بالاخ الصالح والنبي الصالح .

ثم صعد بي ، حتى اتى السماء الخامسة ، فاستفتح .

قيل : من هذا ؟

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد صلى الله عليه وسلم .

قيل : وقد ارسل اليه ؟

قال : نعم .

قيل : مرحبا به ، فنعم المجيء جاء .

فلما خلصت فاذا هارون . قال : هذا هارون فسلم عليه ، فسلمت عليه ، فرد ثم قال : مرحبا بالاخ الصالح والنبي الصالح .

ثم صعد بي حتى اتى السماء السادسة فاستفتح ، قيل : من هذا ؟

قال : جبريل .

قيل : من معك ؟

قال : محمد .

قيل : وقد ارسل اليه ؟

قال : نعم .

قيل : مرحبا به ، فنِعْمَ المجيءُ جاءَ .

فلما خلصت فاذا موسى . قال : هذا موسى فسلم عليه ، فسلمت

عليه ، فرد ، ثم قال : مرحبا بالاخ الصالح والنبي الصالح .

فلما تجاوزت بكى .

قيل له : ما يبكيك ؟

قال : ابكي لأن غلاما بعث بعدي يدخل الجنة من امته اكثر ممن يدخلها من امتي .

ثم صعد الى السماء السابعة ، فاستفتح جبريل ، قيل : من هذا ؟

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد .

قيل : وقد بعث اليه ؟

قال : نعم .

قال : مرحبا به ، فنعم المجيء جاء .

فلما خلصت فاذا ابراهيم ، قال : هذا ابوك فسلم عليه ، قال : فسلمت عليه ، فرد السلام ، قال : مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح .

ثم رفعت لي سِدرة المنتهى ، فاذا نَبْقُها مِثل قِلال هَجَر ، واذا ورقها مثل آذان الفيلة . قال : هذه سدرة المنتهى . واذا اربعة انهار ، نهران باطنان ونهران ظاهران . فقلت : ما هذا يا جبريل ؟

قال : اما الباطنان فنهران في الجنة ، واما الظاهران فالنيل والفرات ؛

ثم رُفع لي البيت المعمور ، ثم اتيت بأناء من خمر واناء من لبن واناء من عسل ، فأخذت اللبن ، فقال : هي الفطرة ، انت عليها وامتك .

ثم فرضت علي الصلاة خمسين صلاة كل يوم ، فرجعت ، فمررت على موسى ، فقال : بما امرت ؟

قال : امرت بخمسين صلاة كل يوم .

قال : ان امتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم ، واني والله قد جربت الناس قبلك ، وعالجت بني اسرائيل اشد المعالجة ، فارجع الى ربك فاساله التخفيف لامتك .

فرجعت ، فوضع عني عشرا ، فرجعت الى موسى فقال مثله ، فرجعت فوضع عني عشرا ، فرجعت الى موسى فقال مثله ، فرجعت فوضع عني عشرا ، فرجعت الى موسى فقال مثله ، فرجعت فامرت بعشر صلوات كل يوم ، فرجعت فقال مثله ، فرجعت فامرت بخمس صلوات كل يوم ، فرجعت الى موسى فقال : بما امرت ؟

قلت : امرت بخمس صلوات كل يوم .

قال : ان امتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم ، واني قد جربت الناس قبلك وعالجت بني اسرائيل اشد المعالجة ، فارجع الى ربك فاساله التخفيف لامتك .

قال : سالت ربي حتى استحييت ، ولكن ارضى وأُسَلِّم .

قال : فلما جاوزت نادى مناد : امضيتُ فريضتي ، وخففتُ عن عبادي .

حدثنا الحُميدي ، حدثنا سفيان ، حدثنا عَمرو ، عن عِكرمة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى وما جعلنا الرؤيا التي اريناك الا فتنة للناس ، قال : هي رؤيا عين اريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة اسري به الى بيت المقدس . » .

وقد اختلف الصحابة في رؤيته صلى الله عليه ربه عز وجل بعيني رأسه ، والصحيح انه رآه بقلبه ، ولم يره بعيني رأسه

وقوله . (ما كذب الفؤاد ما رأى ، ولقد رآه نزلة اخرى) صح عن النبي صلى الله عليه وسلم ان هذا المرئي جبرائيل ، رآه مرتين على صورته التي خلق عليها

واما قوله تعالى في سورة النجم (ثم دنى فتدلى) فهو غير الدنو والتدلي المذكورين في قصة الاسراء ، فان الذي في سورة النجم هو دنو جبرائيل وتدليه ، كما قالت عائشة وابن مسعود رضي الله عنهما ، فانه قال ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨

(عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ) النجم.

فالضمائر كلها راجعة الى هذا المعلم شديد القوى ، واما الدنو والتدلي الذي في حديث الاسراء فذلك صريح في انه دنو الرب تعالى وتدليه واما الذي في سورة النجم انه رآه نزلة اخرى عند سدرة المنتهى فهذا هو جبرائيل ، رآه مرتين ، مرة في الارض ، ومرة عند سدرة المنتهى

ومما يدل على ان الاسراء بجسده في اليقظة قوله تعالى

(سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا)

١ / الاسراء

والعبد عبارة عن مجموع الجسد والروح ، كما ان الانسان اسم لمجموع الجسد والروح هذا هو المعروف عند الاطلاق . وهو الصحيح ، فيكون الاسراء بهذا المجموع ، ولا يمتنع ذلك عقلا ، ولو جاز استبعاد صعود البشر لجاز استبعاد نزول الملائكة ، وذلك يؤدي الى انكار النبوة ، فهو كفر

فان قيل فما الحكمة في الاسراء الى بيت المقدس اولا ؟

فالجواب ـ والله اعلم ـ انه كان ذلك اظهارا لصدق دعوى الرسول صلى الله عليه وسلم المعراج ، حين سألته قريش عن نعت بيت المقدس ، فنعته لهم ، واخبرهم عن عيرهم التي مر عليها في طريقه ، ولو كان عروجه الى السماء من مكة لما حصل ذلك ، اذ لا يمكن اطلاعهم على ما في السماء لو اخبرهم عنه ، وقد اطلعوا على بيت المقدس ، فاخبرهم بنعته

وفي حديث المعراج دليل على ثبوت صفة العلو لله تعالى من وجوه ، لمن تدبره . وبالله التوفيق

● قال : (والحوض ـ الذي اكرمه الله تعالى به غياثا لأمته ـ : حق) .

وذلك ان الاحاديث الواردة في ذكر الحوض تبلغ حد التواتر ، رواها من الصحابة بضع وثلاثون صحابيا . ولقد استقصى طرقها شيخنا الشيخ عماد الدين بن كثير ، تغمده الله برحمته ، في آخر تاريخه الكبير ، المسمى بـ« البداية والنهاية » .

فمنها ما رواه البخاري رحمه الله تعالى ، عن انس بن مالك رضي الله عنه ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال . « **ان قدر حوضي كما بين ايلة الى صنعاء من اليمن ، وان فيه من الاباريق كعدد نجوم السماء** » .

والذي يتلخص من الاحاديث الواردة في صفة الحوض ، انه حوض عظيم ومورد كريم . يمد من شراب الجنة من نهر الكوثر . الذي هو اشد بياضا من اللبن وابرد من الثلج ، واحلى من العسل وأطيب ريحا من المسك وهو في غاية الاتساع عرضه وطوله سواء . وكل زاوية من زواياه مسيرة شهر . فسبحان الخالق الذي لا يعجزه شيء .

وقد ورد في بعض الاحاديث ان لكل نبي حوضا وان حوض نبينا صلى الله عليه وسلم أعظمها وأحلاها وأكثرها واردا جعلنا الله منهم بفضله وكرمه .

● قال : (والشفاعة التي ادخرها لهم حق ، كما رُوي في الاخبار) .

والشفاعة انواع منها ما هو متفق عليه بين الامة ، ومنها ما خالف فيه المعتزلة ونحوهم من أهل البدع

النوع الاول الشفاعة الاولى ، وهي العظمى . الخاصة بنبينا صلى الله

عليه وسلم من بين سائر اخوانه من الانبياء والمرسلين ، صلوات الله عليهم اجمعين ، وفي الصحيحين وغيرهما ، عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم ، جملة احاديث تثبتها .

منها : قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح :

« آتي تحت العرش ، فاقع ساجدا لربي عز وجل ، ثم يفتح الله علي ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على احد قبلي ، فيقال : يا محمد : ارفع راسك ، سَل تعطه ، اشفع تشفع ، فاقول : يا رب : امتي امتي ، يارب : امتي امتي ، يارب : امتي امتي . فيقول : أدخل من امتك من لا حساب عليه من الباب الايمن من ابواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سواه من الابواب . ثم قال : والذي نفس محمد بيده ، لما بين مصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهَجَر ، او كما بين مكة وبُصرى » .

النوع الثاني والثالث من الشفاعة : شفاعته صلى الله عليه وسلم في اقوام قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة ، وفي اقوام آخرين قد امر بهم الى النار ، لا يدخلونها .

النوع الرابع : شفاعته صلى الله عليه وسلم في رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب اعمالهم ، وقد وافقت المعتزلة على هذه الشفاعة خاصة ، وخالفوا فيما عداها من المقامات ، مع تواتر الاحاديث فيها .

النوع الخامس : الشفاعة في اقوام ان يدخلوا الجنة بغير حساب ، ويحسن ان يستشهد لهذا النوع بحديث عُكاشة بن محصن ، حين دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يجعله من السبعين الفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، والحديث مُخرّج في الصحيحين .

النوع السادس : الشفاعة في تخفيف العذاب عمن يستحقه ، كشفاعته في عمه ابي طالب ان يخفف عنه عذابه ثم قال القرطبي في التذكرة بعد ذكر هذا النوع : فان قيل : فقد قال الله تعالى . (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) ؟ قيل له : لا تنفعه في الخروج من النار كما تنفع عصاة الموحدين الذين يخرجون منها ويدخلون الجنة .

النوع السابع : شفاعته ان يؤذن لجميع المؤمنين في دخول الجنة ، كما تقدم . وفي صحيح مسلم عن انس رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « انا اول شفيع في الجنة » .

النوع الثامن : شفاعته في اهل الكبائر من امته ، فمن دخل النار ، فيخرجون منها . وقد تواترت بهذا النوع الاحاديث ، وقد خفي علم ذلك على الخوارج والمعتزلة ، فخالفوا في ذلك ، جهلا منهم بصحة الاحاديث ، وعنادا ممن علم ذلك واستمر على بدعته .

وهذه الشفاعة تشاركه فيها الملائكة والنبيون والمؤمنون ايضا . وهي

تتكرر منه صلى الله عليه وسلم اربع مرات .

ومن احاديث هذا النوع حديث انس بن مالك قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **شفاعتي لأهل الكبائر من امتي** » . رواه الامام احمد بن حنبل .

ثم ان الناس في الشفاعة على ثلاثة أقوال : فالمشركون ، والنصارى ، والمبتدعون من الغلاة في تقليد المشايخ : يجعلون شفاعة من يعظمونه عند الله كالشفاعة المعروفة في الدنيا . والمعتزلة والخوارج انكروا شفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم وغيره في اهل الكبائر . واما أهل السنة والجماعة فيقرون بشفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم في أهل الكبائر ، وشفاعة غيره ، لكن لا يشفع احد حتى يأذن الله له ويحدّ له حدًا ، كما في الحديث الصحيح ــ حديث الشفاعة ــ انهم يأتون آدم ، ثم نوحا ، ثم ابراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى ، فيقول لهم عيسى عليه السلام : اذهبوا الى محمد ، فانه عبد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، « **فيأتوني ، فاذهب ، فاذا رايت ربي خررت له ساجدا ، فاحمد ربي بمحامد يفتحها علي ، لا احسنها الآن ، فيقول : اي محمد : ارفع راسك ، وقل يسمع ، واشفع تشفع . فاقول : ربي : امتي ، فيحد لي حدا ، فادخلهم الجنة ، ثم انطلق فاسجد ، فيحد لي حدا** » . ذكر هذا ثلاث مرات .

واما الاستشفاع بالنبي صلى الله عليه وسلم وغيره في الدنيا الى الله تعالى في الدعاء ، ففيه تفصيل ، فان الداعي تارة يقول : بحق فلان ، يقسم على الله بأحد من مخلوقاته ، فهذا محذور من وجهين : احدهما : انه اقسم بغير الله .

الثاني : اعتقاده ان لأحد على الله حقا ، ولا يجوز الحلف بغير الله ، وليس لأحد على الله حق الا ما احقه على نفسه ، كقوله تعالى :

(وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) ٤٧/ الروم .

وكذلك ما ثبت في الصحيحين من قوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ رضي الله عنه ، وهو رديفه : « **يا معاذ : اتدري ما حق الله على عباده ؟ قلت : الله ورسوله اعلم . قال : حقه عليهم ان يعبدوه ولا يشركوا به شيئا . اتدري ما حق العباد على الله اذا فعلوا ذلك ؟ قلت : الله ورسوله اعلم . قال : حقهم عليه ان لا يعذبهم** » .

فهذا حق وجب بكلماته التامة ووعده الصادق ، لا ان العبد نفسه يستحق على الله شيئا كما يكون للمخلوق على المخلوق ، فان الله هو المنعم على العباد بكل خير ، وحقهم الواجب بوعده هو ان لا يعذبهم ، وترك تعذيبهم معنى لا يصلح ان يُقسم به ، ولا ان يسأل بسببه ويتوسل به ، لأن السبب هو ما نصبه الله سببا .

وكذلك الحديث الذي في المسند من حديث ابي سعيد الخدري عن النبي

صلى الله عليه وسلم في قول الماشي الى الصلاة :
« اسالك بحق ممشاي ، وبحق السائلين عليك » ، فهذا حق السائلين ، هو اوجبه على نفسه ، فهو الذي احق للسائلين ان يجيبهم ، وللعابدين ان يثيبهم ، ولقد احسن القائل :

ما للعباد عليه حقٌ واجبٌ ... كلا ، ولا سعيٌ لديه ضائعُ
إن عُذبوا فبعدله ، او نعّموا ... فبفضله ، وهو الكريم الواسعُ

فان قيل : فاي فرق بين قول الداعي : « بحق السائلين عليك » وبين قوله : « بحق نبيك » او نحو ذلك ؟

فالجواب : ان معنى قوله : « بحق السائلين عليك » : انك وعدت السائلين بالاجابة ، وانا من جملة السائلين ، فاجب دعائي .. بخلاف قوله : « بحق فلان » ـ وان كان له حق على الله بوعده الصادق ـ فلا مناسبة بين ذلك وبين اجابة دعاء هذا السائل ، فكأنه يقول : لكون فلان من عبادك الصالحين اجب دعاي ! واي مناسبة في هذا واي ملازمة ؟ وانما هذا من الاعتداء في الدعاء ، وقد قال تعالى :

(ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) ٥٥ / الاعراف .

وهذا ونحوه من الادعية المبتدعة ولم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا عن الصحابة ، ولا عن التابعين ، ولا عن احد من الائمة ، وانما يوجد مثل هذا في الحروز والهياكل التي يكتب بها الجهال والطرقية ، والدعاء من افضل العبادات ، والعبادات مبناها على السنة والاتباع ، لا عن الهوى والابتداع .

وان كان مراده : الاقسام على الله بحق فلان ، فذلك محذور ايضا ، لأن الاقسام بالمخلوق على المخلوق لا يجوز ، فكيف على الخالق ؟ وقد قال صلى الله عليه وسلم : « **من حلف بغير الله فقد اشرك** » ولهذا قال ابو حنيفة وصاحباه رضي الله عنهم : يكره ان يقول الداعي : اسألك بحق فلان ؛ او بحق انبيائك ورسلك ، وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام ، ونحو ذلك ، حتى كره ابو حنيفة ومحمد بن الحسن الشيباني ان يقول الرجل اللهم اني اسألك بمعقد العز من عرشك ، ولم يكرهه ابو يوسف لما بلغه الاثر فيه .

وتارة يقول : بجاه فلان عندك . او يقول : نتوسل اليك بانبيائك ورسلك واوليائك ، ومراده : لأن فلانا عندك ذو وجاهة وشرف ومنزلة فاجب دعانا . وهذا ايضا محذور ، فانه لو كان هذا هو التوسل الذي كان الصحابة يفعلون في

حياة النبي صلى الله عليه وسلم لفعلوه بعد موته ، وانما كانوا يتوسلون في حياته بدعائه ، يطلبون منه ان يدعو لهم ، وهم يؤمنون على دعائه ، كما في الإستسقاء وغيره ، فلما مات : قال عمر رضي الله عنه ـ لما خرجوا يستسقون ـ « اللهم انا كنا اذا اجدبنا نتوسل اليك بنبينا فتسقينا ، وانا نتوسل اليك بعم نبينا » معناه : بدعائه هو ربه وشفاعته وسؤاله ، ليس المراد انا نقسم عليك به ، أو نسألك بجاهه عندك ، اذ لو كان ذلك مرادا لكان جاه النبي صلى الله عليه وسلم اعظم واعظم من جاه العباس .

وتارة يقول : باتباعي لرسولك ومحبتي له وايماني به وسائر انبيائك ورسلك وتصديقي لهم ، ونحو ذلك ، فهذا من احسن ما يكون من الدعاء والتوسل والاستشفاع .

فلفظ التوسل بالشخص والتوجه به : فيه اجمال ، غلط بسببه من لم يفهم معناه فان اريد به التسبب به لكونه داعيا وشافعا ـ وهذا في حياته يكون ـ او لكون الداعي محبا له مطيعا لأمره : فيكون التوسل اما بدعاء الوسيلة وشفاعته ، وأما بمحبة السائل واتباعه ، او يراد به الاقسام به والتوسل بذاته ، فهذا الثاني هو الذي كرهوه ونهوا عنه .

وكذلك السؤال بالشيء : قد يراد به التسبب به ، لكونه سببا في حصول المطلوب ، وقد يراد به الاقسام به .

ومن الاول : حديث الثلاثة الذين أووا الى الغار ، وهو حديث مشهور في الصحيحين وغيرهما ، فان الصخرة انطبقت عليهم ، فتوسلوا الى الله بذكر اعمالهم الصالحة الخالصة ، وكل واحد منهم يقول : فان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون . فهؤلاء دعوا الله بصالح الاعمال ، لأن الاعمال الصالحة هي اعظم ما يتوسل به العبد الى الله ، ويتوجه اليه ويسأله به ، لأنه وعد ان يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله .

فالحاصل : ان الشفاعة عند الله ليست كالشفاعة عند البشر ، فلا يشفع عنده أحد الا باذنه ، فالامر كله لله ، كما قال تعالى :

(قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ) ١٥٤/آل عمران .

وقال سبحانه : (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ) ١٢٨/آل عمران .

فاذا كان لا يشفع عنده احد الا باذنه لمن يشاء ، ولكن يكرم الشفيع بقبول شفاعته ، كما قال صلى الله عليه وسلم « اشفعوا تؤجروا ، ويقضي الله على لسان نبيه ما يشاء » وفي الصحيح ان النبي صلى الله عليه وسلم

قال : « يا بني عبد مناف : لا املك لكم من الله شيئا . يا صفيةُ عمةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا املك لك من الله شيئا . يا عباسُ عم رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا املك لكَ من الله شيئا » .

فاذا كان سيد الخلق وافضل الشفعاء يقول لأخص الناس به : لا املك لك من الله من شيء ، فما الظن بغيره ؟

واذا دعاه الداعي ، وشفع عنده الشفيع ، فسمع الدعاء وقبل الشفاعة : لم يكن هذا هو المؤثر فيه كما يؤثر المخلوق في المخلوق ، فانه سبحانه وتعالى هو الذي جعل هذا يدعو ويشفع ، وهو الخالق لافعال العباد ، فهو الذي وفق العبد للتوبة ثم قبلها ، وهو الذي وفقه للعمل ثم اثابه ، وهو الذي وفقه للدعاء ثم اجابه ، وهذا مستقيم على اصول اهل السنة المؤمنين بالقدر ، وان الله خالق كل شيء .

● قال الطحاوي : (والميثاق الذي اخذه الله تعالى من آدم وذريته : حق)

فقد قال تعالى (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ) ١٧٢/ الاعراف .

يخبر سبحانه انه استخرج ذرية بني آدم من اصلابهم شاهدين على انفسهم ان الله ربهم ومليكهم وانه لا اله الا هو .

وقد وردت احاديث في اخذ الذرية من صلب ادم عليه السلام ، وتمييزهم الى اصحاب اليمين والى اصحاب الشمال ، وفي بعضها الاشهاد عليهم بان الله ربهم .

● قال : (وقد علم الله تعالى في الأَزَل عدد من يدخل الجنة ، وعدد من يدخل النار ، جملة واحدة ، فلا يزاد في ذلك العدد ولا ينقص منه ، وكذلك افعالهم فيما علم منهم ان يفعلوه) .

قال تعالى : (إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) ١١٥/ التوبة .
وقال سبحانه : (وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا) ٢٦/ الفتح .
فالله تعالى موصوف بانه بكل شيء عليم ، ازلا وابدا ، لم يتقدم علمه بالاشياء جهالة ، وما كان ربك نسيا .

وعن علي بن ابي طالب رضي الله عنه قال : كنا في جنازة في بقيع

الغرقد ، فاتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقعد وقعدنا حوله ، ومعه مخصرة ، فنكس راسه ينكت بمخصرته ، ثم قال : ما من نفس منفوسة الا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار ، والا قد كتبت شقية او سعيدة . قال : فقال رجل : يا رسول الله ، افلا نمكث على كتابنا وندع العمل ؟ فقال : من كان من اهل السعادة فسيصير الى عمل اهل السعادة ، ومن كان من اهل الشقاوة فسيصير الى عمل اهل الشقاوة . ثم قال : اعملوا فكل ميسّر لما خُلق له . اما اهل السعادة فسيُيَسرون لعمل اهل السعادة ، واما اهل الشقاوة فييسرون لعمل اهل الشقاوة ، ثم قرا :

« فاما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى . واما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى .

خرجاه في الصحيحين .

● قال : (وكل ميسر لما خُلق له ، والاعمال بالخواتيم : السعيد من سعد بقضاء الله ، والشقي من شقي بقضاء الله) .

ففي الصحيحين عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال . حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم – وهو الصادق المصدوق –

« ان احدكم يجمع خلقه في بطن امه اربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل اليه الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر باربع كلمات : يكتب رزقه واجله وعمله وشقيا ام سعيدا . فوالذي لا اله غيره : ان احدكم ليعمل بعمل اهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل اهل النار فيدخلها . وان احدكم ليعمل بعمل اهل النار حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل اهل الجنة فيدخلها » .

والاحاديث في هذا الباب كثيرة ، وكذلك الآثار عن السلف .

قال ابو عمر بن عبدالبَر في التمهيد قد اكثر الناس من تخريج الآثار في هذا الباب ، واكثر المتكلمون من الكلام فيه ، واهل السنة مجتمعون على الايمان بهذه الآثار واعتقادها وترك المجادلة فيها ، وبالله العصمة والتوفيق .

● قال : (وأصل القَدَر سِرّ الله تعالى في خلقه ، لم يُطّلع على ذلك مَلَك مُقرّب ، ولا نبي مُرسل . والتعمّق والنظر في ذلك : ذريعة الخُذلان ، وسُلّم الحرمان ، ودَرَجة الطغيان ، فالحَذَر كل الحذر من ذلك ، نَظرا وفِكرا ووَسْوَسَة ، فان الله تعالى طَوى علمَ القدر

عن انامِه ، ونهاهم عن مَرامه ، كما قال تعالى في كتابه : لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون ، فمن سأل : لِمَ فعل ؟ فقد رَدَّ حكم الكتاب ، ومن رد حكم الكتاب : كان من الكافرين) .

والذي عليه اهل السنة والجماعة : ان كل شيء بقضاء الله وقدره ، وخالف في ذلك القدرية والمعتزلة ، وزعموا ان الله شاء الايمان من الكافر ، ولكن الكافر شاء الكفر ، فوقعت مشيئة الكافر دون مشيئة الله تعالى ! وهذا من اقبح الاعتقاد ، وهو قول لا دليل عليه ، بل هو مخالف للدليل ، فقد قال الله تعالى : (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) ١٣/ السجدة .

وقال تعالى :
(فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ) ١٢٥/ الانعام .

ومنشأ الضلال : من التسوية بين المشيئة والارادة ، وبين المحبة والرضا ، فسوى بينهما الجبرية والقدرية ، ثم اختلفوا فقالت الجبرية : الكون كله بقضاء الله وقدره ، فيكون محبوبا مرضيا . وقالت القدرية النفاة : ليست المعاصي محبوبة لله ولا مرضية له ، فليست مقدرة ولا مقضية ، فهي خارجة عن مشيئته وخلقه .

وقد دل على الفرق بين المشيئة والمحبة : الكتاب والسنة والفطرة الصحيحة .

اما نصوص المشيئة والارادة من الكتاب فقد تقدم ذكر بعضها .
واما نصوص المحبة والرضا فقال الله تعالى :
(وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ) ٢٠٥/ البقرة .
وقال سبحانه : (وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ) ٧/ الزمر .
وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ان الله كره لكم ثلاثا : قيل وقال ، وكثرة السؤال ، واضاعة المال » .
وفي المسند : « ان الله يحب ان يُؤخذ برُخَصِه كما يكره ان تؤتى معاصيه » .

فان قيل : كيف يريد الله امرا ولا يرضاه ولا يحبه ؟ وكيف يشاؤه ويكونه ؟ وكيف تجتمع ارادته وبغضه وكراهته ؟
قيل : هذا السؤال هو الذي افترق الناس لاجله فِرَقا وتباينت طرقهم واقوالهم ، فاعلم ان المراد نوعان : مراد لنفسه ، ومراد لغيره ، فالمراد لنفسه مطلوب محبوب لذاته وما فيه من الخير ، فهو مُرادٌ ارادةَ الغايات والمقاصد .

والمراد لغيره : قد لا يكون مقصودا لما يريد ، ولا فيه مصلحة له بالنظر الى ذاته ، وان كان وسيلة الى مقصوده ومراده ، فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته ، مراد له من حيث قضاؤه وايصاله الى مراده ، فيجتمع فيه الامران : بغضه وارادته ، ولا يتنافيان ، لاختلاف متعلقهما ، وهذا كالدواء الكريه ، اذا علم المتناول له ان فيه شفاءه ، وقطع العضو المتآكل ، اذا علم ان في قطعه بقاء جسده ، وكقطع المسافة الشاقة ، اذا علم انها توصل الى مراده ومحبوبه . بل العاقل يكتفي في ايثار هذا المكروه وارادته بالظن الغالب وان خفيت عنه عاقبته ، فكيف ممن لا يخفى عليه خافية . فهو سبحانه يكره الشيء ، ولا ينافي ذلك ارادته لأجل غيره ، وكونه سببا الى امر هو احب اليه من فوقه .

من ذلك : انه خلق ابليس ، الذي هو مادة لفساد الاديان والاعمال والاعتقادات والارادات وهو سبب لشقاوة كثير من العباد ، وعملهم بما يغضب الرب سبحانه ، وهو الساعي في وقوع خلاف ما يحبه الله ويرضاه ومع هذا فهو وسيلة الى محاب كثيرة للرب تعالى ترتبت على خلقه ، ووجودها احب اليه من عدمها .

منها : انه يظهر للعباد قدرة الله تعالى على خلق المتضادات المتقابلات ، فخلق هذه الذات ، التي هي اخبث الذوات وشرها ، في مقابلة ذات جبرائيل التي هي اشرف الذوات واطهرها ، فتبارك خالق هذا وهذا ، كما ظهرت قدرته في خلق الليل والنهار ، والداء والدواء ، والحسن والقبح ، وذلك دليل كمال قدرته .

ومنها ظهور آثار اسمائه القهرية ، مثل : القهار ، والمنتقم ، وشديد العقاب ، وذي البطش الشديد ، فان هذه الاسماء والافعال كمال ، لا بد من وجود متعلقها ، ولو كان الجن والانس على طبيعة الملائكة لم يظهر اثر هذه الاسماء .

ومنها ظهور آثار اسمائه المتضمنة عفوه ومغفرته ، وقد اشار النبي صلى الله عليه وسلم الى هذا بقوله : « **لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يُذنبون ويَستغفرون ، فيغفر لهم** » .

ومنها حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق ابليس لما حصلت فان عبودية الجهاد من احب انواع العبودية اليه سبحانه ، ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها ، من الموالاة لله سبحانه وتعالى والمعاداة فيه ، وعبودية الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعبودية الصبر ، والتوبة .

فان قيل : فهل كان يمكن وجود تلك الحكم بدون هذه الاسباب ؟

فهذا سؤال فاسد ! وهو فرض وجود الملزوم بدون لازمه ، كفرض وجود

الحركة بدون المتحرك ، والتوبة بدون التائب .

فان قيل : كيف يرضى لعبده شيئا ولا يعينه عليه ؟

قيل : لأن اعانته عليه قد تستلزم فوات محبوب له اعظم من حصول تلك الطاعة التي رضيها له ، وقد يكون وقوع تلك الطاعة منه يتضمن مفسدة هي اكره اليه سبحانه من محبته لتلك الطاعة . وقد اشار تعالى الى ذلك في قوله :

(وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ)

٤٦ / التوبة

فاخبر سبحانه انه كره انبعاثهم الى الغزو مع رسوله ، وهو طاعته ، فلما كرهه منهم ثبطهم عنه ، ثم ذكر سبحانه بعض المفاسد التي تترتب على خروجهم مع رسوله ، فقال :

(لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا) ٤٧ / التوبة

اي فسادا وشرا .

(وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ)

٤٧ / التوبة

اي سعوا بينكم بالفساد ، وفيكم من يستجيب لهم ، فيتولد من سعي هؤلاء واستجابة هؤلاء من الشر ما هو اعظم من مصلحة خروجهم ، فاقتضت الحكمة والرحمة ان اقعدهم عنه . فاجعل هذا المثال اصلا ، وقس عليه .

فان قيل : اذا كان الكفر بقضاء الله وقدره ونحن مأمورون ان نرضى بقضاء الله ، فكيف ننكره ونكرهه ؟

فالجواب : ان يقال اولا : نحن غير مأمورين بالرضا بكل ما يقضيه الله ويقدره ، ولم يرد بذلك كتاب ولا سنة ، بل من المقضي ما يرضى به ، ومنه ما يسخط ويمقت . كما لا يرضى به القاضي لا قضيته سبحانه ، بل من القضاء ما يسخط ، كما ان من الاعيان المقضية ما يغضب عليه ويمقت ويلعن ويذم .

ويقال ثانيا : هنا امران : قضاء الله ، وهو فعل قائم بذات الله تعالى . ومقضي ، وهو المفعول المنفصل عنه ، فالقضاء كله خير وعدل وحكمة ، نرضى به كله ، والمقضي قسمان : منه ما يرضى به ، ومنه ما لا يرضى به .

ويقال ثالثا : القضاء له وجهان : احدهما تعلقه بالرب تعالى ، فمن هذا الوجه ونسبته اليه . يُرضى به . والوجه الثاني : تعلقه بالعبد ونسبته اليه ، فمن هذا الوجه ينقسم الى ما يُرضى به والى ما لا يُرضى به .

مثال ذلك : قتل النفس : له اعتباران : فمن حيث قدره الله وقضاه وكتبه وشاءه وجعله اجلا للمقتول : يرضى به . ومن حيث صدر من القاتل وباشره

واقدم عليه باختياره وعصى الله بفعله : نسخطه ولا نرضى به .

وقول الطحاوي . « فمن سأل لم فعل ؟ فقد رد حكم الكتاب ، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين » قول صحيح ، فان مبنى العبودية والايمان بالله وكتبه ورسله على التسليم وعدم الاسئلة عن تفاصيل الحكمة في الاوامر والنواهي والشرائع ، ولهذا لم يحك الله سبحانه عن امة نبي صدقت بنبيها وآمنت بما جاء به انها سألته عن تفاصيل الحكمة فيما امرها به ونهاها عنه وبلغها ، ولو فعلت ذلك لما كانت مؤمنة بنبيها ، بل انقادت وسلمت واذعنت ، وما عرفت من الحكمة : عرفته ، وما خفي عنها : لم تتوقف في انقيادها وتسليمها على معرفته . ولهذا كان سلف هذه الامة المحمدية ــ التي هي اكمل الامم عقولا ومعارف وعلوما ــ لا تسأل نبيها : لم امر الله بكذا ؟ ولم قدر كذا ؟ لعلمهم ان ذلك مضاد للايمان والاستسلام .

● قال الطحاوي : (فهذا جُملة ما يَحتاج اليه مَن هو مُنَوَّر قلبُه من اولياء الله تعالى ، وهي درجة الراسخين في العلم ، لأن العلم علمان ، علم في الخلق موجود ، وعلم في الخلق مفقود ، فانكار العلم الموجود : كفر ، وادعاء العلم المفقود : كفر ، ولا يثبت الايمان الا بقبول العلم الموجود ، وترك طلب العلم المفقود) .

والاشارة بقوله (فهذا) الى ما تقدم ذكره ، مما يجب اعتقاده والعمل به ، مما جاءت به الشريعة .

وقوله . « وهي درجة الراسخين في العلم » ، اي علم ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم جملة وتفصيلا ، نفيا واثباتا .

ويعني بالعلم المفقود : علم القدر الذي طواه الله عن انامه ، ونهاهم عن مرامه .

ويعني بالعلم الموجود علم الشريعة ، اصولها وفروعها .

فمن انكر شيئا مما جاء به الرسول كان من الكافرين ، ومن ادعى علم الغيب كان من الكافرين .

قال تعالى :(عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ۝ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا) ٢٦ ــ ٢٨ / الجن .

ولا يلزم من خفاء حكمة الله علينا عدمها ، ولا من جهلنا انتفاء حكمته . الا ترى ان خفاء حكمة الله علينا في خلق العقارب والحشرات ــ التي لا يعلم

منها الا المضرة — لم ينف ان يكون الله تعالى خالقا لها ، ولا يلزم ان لا يكون فيها حكمة خفيت علينا ، لأن عدم العلم لا يكون علما بالمعدوم .

● **قال : (ونؤمن باللوح والقلم ، وبجميع ما فيه قد رُقَم) .**

فقد قال الله تعالى

(بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ) ٢١ و٢٢/البروج .

واللوح المذكور هو الذي كتب الله مقادير الخلائق فيه ، والقلم المذكور هو الذي خلقه الله وكتب به في اللوح المذكور المقادير ، كما في سنن ابي داود ، عن عبادة بن الصامت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول **« ان اول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب . قال : يا رب وماذا اكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة » .**

واختلف العلماء هل القلم اول المخلوقات او العرش ؟ على قولين ، ذكرهما الحافظ ابو العلاء الهمداني ، اصحهما ان العرش قبل القلم ، لما ثبت في الصحيح من حديث عبدالله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . **« كتب الله مقادير الخلائق قبل ان يخلق السموات والارض بخمسين الف سنة . قال : وعرشه على الماء »**. فهذا صريح ان التقدير وقع بعد خلق العرش ، والتقدير وقع عند اول خلق القلم ، بحديث عبادة هذا .

ولا يخلو قوله « اول ما خلق الله القلم » الى اخره اما ان يكون جملة او جملتين . فان كان جملة — وهو الصحيح — كان معناه انه عند اول خلقه قال له : « اكتب » كما في اللفظ « اولَ ما خلق الله القلمَ قال له اكتب » بنصب « اولَ » و « القلمَ » وان كان جملتين — وهو مروي — برفع « اولُ » و « القلمُ » ، فيتعين حمله على انه اول المخلوقات من هذا العالم ، فيتفق الحديثان اذ حديث عبدالله بن عمرو صريح في ان العرش سابق على التقدير ، والتقدير مقارن لخلق القلم

فهذا القلم اول الاقلام وافضلها واجلها ، وقد قال غير واحد من اهل التفسير انه القلم الذي اقسم الله به في قوله تعالى (ن والقلم وما يسطرون) والقلم الثاني قلم الوحي ، وهو الذي يكتب به الوحي الى انبيائه ورسله ، واصحاب هذا القلم هم الحكام على العالم . والاقلام كلها خدم لاقلامهم ، وقد رُفع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة أُسري به الى مستوى يسمع فيه صريف الاقلام فهذه الاقلام هي التي تكتب ما يوحيه الله تبارك وتعالى من الامور التي يدبرها امر العالم العلوي والسفلي

● **ثم قال ابوجعفر رحمه الله :**

(فلو اجتمع الخلق كلهم على شيء كتبه الله تعالى انه

كائن : ليجعلوه غير كائن ، لم يقدروا عليه . ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله تعالى ، ليجعلوه كائنا : لم يقدروا عليه . جَفَّ القلم بما هو كائن الى يوم القيامة) .

وذلك في حديث جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « **جاء سُراقة بن مالك بن جُعشم فقال : يا رسول الله ، بيّن لنا ديننا كانا خلقنا الآن : ففيم العمل اليوم ؟ افيما جفت به الاقلام وجرت به المقادير ؟ ام فيما استقبل ؟ قال : لا ، بل فيما جفت به الاقلام وجرت به المقادير » .**

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال :

« كنت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقال : يا غلام : الا اعلمك كلمات !! احفظ الله يحفظك . احفظ الله تجده تجاهك . اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله . واعلم ان الامة لو اجتمعت على ان ينفعوك بشيء لم ينفعوك الا بشيء قد كتبه الله لك . ولو اجتمعوا على ان يضروك بشيء لم يضروك الا بشيء قد كتبه الله عليك . رفعت الاقلام ، وجفت الصحف » .

رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

واذا علم العبد ان كلا من عند الله فالواجب افراده سبحانه بالخشية والتقوى . قال تعالى : (فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ) ٤٤ / المائدة .

وقال سبحانه :

(وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) ٥٢ / النور .

وقال بعض السلف ما احتاج تقي قط ، لقوله تعالى :

(وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) ٢ و٣ / الطلاق .

فقد ضمن الله للمتقين ان يجعل لهم مخرجا مما يضيق على الناس ، وان يرزقهم من حيث لا يحتسبون ، فاذا لم يحصل ذلك دل على ان في التقوى خللا ، فليستغفر الله وليتب اليه .

ثم قال تعالى

(وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) ٣ / الطلاق .

اي فهو كافيه غير محوجه الى غيره .

وقد ظن بعض الناس ان التوكل ينافي الاكتساب وتعاطي الاسباب ، وان الامور اذا كانت مقدرة فلا حاجة الى الاسباب ، وهذا فاسد ، فان الاكتساب منه فرض ، ومنه مستحب ، ومنه مباح ، ومنه مكروه ، ومنه حرام ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم افضل المتوكلين يلبس لامة الحرب ويمشي في الاسواق للاكتساب حتى قال الكافرون

(مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ) ٧ / الفرقان .

ولهذا تجد كثيرا ممن يرى الاكتساب ينافي التوكل يرزقون على يد من يعطيهم ، اما صدقة ، واما هدية .

● **قال : (وما اخطأ العبدَ لم يكن ليصيبه وما اصابه لم يكن ليُخطئه) .**

وهذا بناء على ما تقدم من ان المقدور كائن لا محالة .

● **قال : (وعلى العبد ان يعلم ان الله قد سبق علمه في كل كائن من خلقه ، فقدر ذلك تقديرا مُحكما مُبرما ، ليس فيه ناقِض ، ولا مُعقِّب ولا مُزِيل ولا مُغَيِّر ولا ناقصَ ولا زائدَ من خلقه في سماواته وارضه) .**

وهذا بناء على ما تقدم من ان الله تعالى قد سبق علمه بالكائنات ، وانه قدر مقاديرها قبل خلقها ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « **قدَّر الله مقادير الخلق قبل ان يخلق السموات والارض بخمسين الف سنة ، وعرشه على الماء** » فيعلم ان الله قد علم ان الاشياء تصير موجودة لاوقاتها ، على ما اقتضته حكمته البالغة ، فكانت كما علم ، فان حصول المخلوقات على ما فيها من غرائب الحكم لا يتصور ايجادها الا من عالم قد سبق علمه على ايجادها .

قال تعالى : (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) ١٤/الملك .

وانكر غلاة المعتزلة ان الله كان عالما في الازل ، وقالوا : ان الله تعالى لا يعلم افعال العباد حتى يفعلوا ! تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا .

● **قال : (وذلك من عَقْد الايمان واصول المعرفة والاعتراف بتوحيد الله تعالى وربوبيته ، كما قال تعالى في كتابه : وخلق كل شيء فقدّره تقديرا ، وقال تعالى : وكان امر الله قدرا مقدورا) .**

فعن ابن عباس رضي الله عنهما انه قال : « القدر نظام التوحيد ، فمن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده » .

وهذا لأن الايمان بالقدر يتضمن الايمان بعلم الله القديم وما اظهر من علمه الذي لا يحاط به ، وكتابة مقادير الخلائق . وقد ضل في هذا الموضع خلائق من المشركين والصائبين والفلاسفة وغيرهم ، ممن ينكر علمه بالجزئيات او بغير ذلك ، فان ذلك كله مما يدخل في التكذيب بالقدر ، واما قدرة الله على كل شيء فهو الذي يكذب به القدرية جملة ، حيث جعلوه لم يخلق افعال العباد ، فاخرجوها عن قدرته وخلقه .

والقدر — الذي لا ريب في دلالة الكتاب والسنة والاجماع عليه ، وان الذين جحدوه هم القدرية المحضة بلا نزاع — هو ما قدره الله من مقادير

العباد . وعامة ما يوجد من كلام الصحابة والائمة في ذم القدرية يعني به هؤلاء .

● **قال : (فويل لمن صار قلبه في القدر قلبا سقيما ، لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سِرّاً كتيما ، وعاد بما قال فيه أفّاكا اثيما) .**

اعلم ان القلب له حياة وموت ، ومرض وشفاء ، وذلك اعظم مما للبدن .
قال تعالى : (أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا) ١٢٢/الانعام .

اي كان ميتا بالكفر فاحييناه بالايمان . فالقلب الصحيح الحي اذا عرض عليه الباطل والقبائح نفر منها بطبعه وابغضها ولم يلتفت اليها ، بخلاف القلب الميت فانه لا يفرق بين الحسن والقبيح ، كما قال عبدالله بن مسعود : « هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف والمنكر » وكذلك القلب المريض بالشهوة فانه لضعفه يميل الى ما يعرض له من ذلك ، بحسب قوة المرض وضعفه .

ومرض القلب نوعان : مرض شَهوة ، ومرض شُبهة ، واردؤها : مرض الشبهة ، وأردأ الشبه : ما كان من امر القدر . وقد يمرض القلب ويشتد مرضه ولا يشعر به صاحبه ، لاشتغاله وانصرافه عن معرفة صحته واسبابها ، بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته . وعلامة ذلك انه لا تؤلمه جراحات القبائح ، ولا يوجعه جهله بالحق وعقائده الباطلة ، فان القلب اذا كانت فيه حياة : تألم بورود القبيح عليه ، وتألم بجهله بالحق بحسب حياته .

* ما لجُرحٍ بميّتٍ إيلامُ *

وقد يشعر بمرضه ، ولكن يشتد عليه تحمّل مرارة الدواء والصبر عليها ، فيؤثر بقاء المه على مشقة الدواء ، فان دواءه في مخالفة الهوى ، وذلك اصعب شيء في النفس ، وليس له انفع منه . وتارة يوطن نفسه على الصبر ، ثم ينفسخ عزمه ولا يستمر معه ، لضعف علمه وبصيرته وصبره ، كمن دخل في طريق مخوف مفض الى غاية الامن ، وهو يعلم انه ان صبر عليه انقضى الخوف واعقبه الامن ، فهو محتاج الى قوة صبر وقوة يقين بما يصير اليه ، ومتى ضعف صبره ويقينه : رجع من الطريق ولم يتحمل مشقتها ، ولا سيما ان عدم الرفيق واستوحش من الوحدة ، وجعل يقول : اين ذهب الناس فلي اسوة بهم ! وهذه حال اكثر الخلق ، وهي التي اهلكتهم . فالصابر الصادق لا يستوحش من قلة الرفيق ولا من فقده اذا استشعر قلبه مرافقة الرعيل الاول :

(الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا) ٦٩/النساء .

وما احسن ماقال ابو محمد عبدالرحمن بن اسماعيل ، المعروف بابي شامة ، في كتاب : الحوادث والبدع : حيث جاء الامر بلزوم الجماعة ، فالمراد :

لزوم الحق واتباعه ، وان كان المتمسك به قليلا والمخالف له كثيرا . لأن الحق هو الذي كانت عليه الجماعة الاولى من عهد النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه ، ولا تنظر الى كثرة اهل الباطل بعدهم .

وعن الحسن البصري رحمه الله انه قال : السُّنَّة ـ والذي لا اله الا هو ـ بين الغالي والجافي ، فاصبروا عليها رحمكم الله ، فان اهل السنة كانوا اقل الناس فيما مضى ، وهم اقل الناس فيما بقي ، الذين لم يذهبوا مع اهل الاتراف في اترافهم ، ولا مع اهل البدع في بدعتهم ، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم ، فكذلك فكونوا .

وعلامة مرض القلب : عدوله عن الاغذية النافعة الموافقة ، الى الاغذية الضارة ، وعدوله عن دوائه النافع ، الى دوائه الضار منها هنا اربعة اشياء : غذاء نافع ، ودواء شاف ، وغذاء ضار ، ودواء مهلك . فالقلب الصحيح يؤثر النافع الشافي على الضار المؤذي ، والقلب المريض بضد ذلك ، وانفع الاغذية : غذاء الايمان ، وانفع الادوية : دواء القرآن ، وكل منهما فيه الغذاء والدواء ، فمن طلب الشفاء في غير الكتاب والسنة فهو من اجهل الجاهلين واضل الضالين ، فان الله تعالى يقول :

(قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ) ٤٤/فصلت .

وقال تعالى :

(وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا) ٨٢/الاسراء .

و « من » في قوله : « من القرآن » لبيان الجنس ، لا للتبعيض .

● قال الطحاوي : (والعرش والكرسي حق) .

وذلك كما بين الله تعالى في كتابه .

قال تعالى : (ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ) ١٥ و١٦/البروج .

وقال سبحانه : (رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ) ١٥/غافر .

وقال عز وجل : (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ) ٥/طه .

وقال تعالى : (ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ) ٢٦/النمل .

وفي صحيح البخاري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : « **اذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس ، فانه اوسط الجنة واعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن** » .

وقد ثبت ان له قوائم تحمله الملائكة ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « **ان الناس يُصعقون ، فاكون اول من يفيق ، فاذا انا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا ادري افاق قبلي ؟ ام جُوزِيَ بصعقة**

الطور ؟ » رواه البخاري ومسلم .

والعرش في اللغة : عبارة عن السرير الذي للملك ، كما قال تعالى عن بلقيس : (ولها عرش عظيم) .

واما مَن حَرَّف كلام الله ، وجعل العرش عبارة عن المُلْك ، كيف يصنع بقوله تعالى : (وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ) ١٧/ الحاقة .

ويقوله تعالى : (وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ) ٧/ هود .

ايقول : ويحمل ملكه يومئذ ثمانية ؟ وكان ملكه على الماء ؟ ويكون موسى عليه السلام آخذا بقائمة من قوائم الملك ؟ هل يقول هذا عاقل يدري ما يقول ؟

واما الكرسي فقال تعالى :

(وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ) ٢٥٥/ البقرة .

وقد قيل : هو العرش ، والصحيح انه غيره . نقل ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره .

روى ابن ابي شيبة في كتاب « صفة العرش » والحاكم في مستدركه ، وقال : انه على شرط الشيخين البخاري ومسلم ولم يخرجاه ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس في قوله تعالى : (وسع كرسيه السموات والارض) انه قال : « الكرسي موضع القدمين ، والعرش لا يقدر قدره الا الله تعالى » . وقد روي مرفوعا الى النبي صلى الله عليه وسلم ، والصواب انه موقوف على ابن عباس .

وقال غير واحد من السلف : هو بين يدي العرش كالمرقاة اليه .

● **قال : (وهو مُسْتَغْنٍ عن العرش وما دونه ، محيط بكل شيء وفوقَه ، وقد أعجزَ عن الاحاطة خلقه) .**

اما قوله : « وهو مستغن عن العرش وما دونه » فقال تعالى :

(إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ) ٦/ العنكبوت .

وانما قال الشيخ رحمه الله هذا الكلام هنا ، لانه لما ذكر العرش والكرسي ، ذكر بعد ذلك غناه سبحانه عن العرش وما دون العرش ، ليبين ان خلقه للعرش لاستوائه عليه ، ليس لحاجته اليه ، بل له في ذلك حكمة اقتضته ، وكون العالي فوقا للسافل لا يلزم ان يكون السافل حاويا للعالي ، محيطا به ، حائلا له ، ولا ان يكون الاعلى مفتقرا اليه . فانظر الى السماء كيف هي فوق الارض وليست مفتقرة اليها ؟ فالرب تعالى اعظم شأنا واجل ان يلزم من علوه ذلك ، بل لوازم علوه من خصائصه ، وهي حمله بقدرته للسافل ، وفقر

السافل ، وغناه هو سبحانه عن السافل ، واحاطته عز وجل به ، فهو فوق العرش مع حمله بقدرته للعرش وحَمَلته ، وغناه عن العرش وفقر العرش اليه واحاطته بالعرش وعدم احاطة العرش به ، وحصره للعرش وعدم حصر العرش له ، وهذه اللوازم منتفية عن المخلوق .

ونُفاة العُلوّ ، اهل التعطيل ، لو فَصّلوا بهذا التفصيل ، لهُدوا الى سواء السبيل ، وعلموا مطابقة العقل للتنزيل ، ولسلكوا خلف الدليل ، ولكن فارقوا الدليل ، فضلّوا عن سواء السبيل ، والامر في ذلك كما قال الامام مالك رحمه الله : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول .

واما قوله : « محيط بكل شيء وفوقه » فمعناه : انه تعالى محيط بكل شيء وفوق كل شيء ، فقد قام الدليل على ان العرش فوق المخلوقات ، وليس فوقه شيء من المخلوقات .

اما كونه محيطا بكل شيء فذلك قوله تعالى :

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا) ١٢٦ / النساء .

وليس المراد من احاطته بخلقه انه كالفلك ، وان المخلوقات داخل ذاته المقدسة ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، وانما المراد : احاطة عظمته ؛ وسعة علمه وقدرته ، وانها بالنسبة الى علمه كخردلة .

واما كونه فوق المخلوقات فذلك ثابت ، وقد صرحت بالفوقية آيات عديدة واحاديث صحيحة .

قال تعالى : (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) ١٨ / الانعام .

وقال سبحانه : (يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ) ٥٠ / النحل .

وعن ابي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « **لما قضى الله الخلق كَتب في كتاب فهو عنده فوق العرش : ان رحمتي سبقت غضبي** » رواه البخاري وغيره .

وفي قصة سعد بن معاذ يوم بني قريظة ، لما حكم فيهم ان تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « **لقد حكمتَ فيهم بحكم الملِك من فوق سبع سموات** » وهو حديث صحيح اخرجه الاموي في مغازيه ، واصله في الصحيحين .

وروى البخاري عن زينب رضي الله عنها انها كانت تفخر على ازواج النبي

صلى الله عليه وسلم وتقول : « زوجكن اهاليكن ، وزوجني الله من فوق سبع سموات » .

وعن عمر رضي الله عنه انه مرّ بعجوز فاستوقفته ، فوقف معها يحدثها ، فقال رجل : يا امير المؤمنين . حبستَ الناسَ بسبب هذه العجوز ! فقال : ويلك ! اتدري من هذه ؟ امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سموات ، هذه خولة التي انزل الله فيها : (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي الى الله) . اخرجه الدارمي .

ومن سمع احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وكلام السَلَف : وجد منه في اثبات الفوقية ما لا ينحصر ، والنصوص الواردة المتنوعة المحكمة على علو الله على خلقه وكونه فوق عباده : تقرب من عشرين نوعا .

الاول التصريح بالفوقية مقرونا باداة « من » المعينة للفوقية بالذات ، كقوله تعالى . (يخافون ربهم من فوقهم) .

الثاني ذكرها مجردة عن الاداة ، كقوله تعالى (وهو القاهر فوق عباده) .

الثالث التصريح بالعُروج ، نحو :

(تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ) ٤/المعارج .

الرابع . التصريح بالصعود اليه ، كقوله تعالى :

(إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ) ١٠/فاطر .

الخامس التصريح برفعه بعض المخلوقات اليه ، كقوله تعالى

(بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ) ١٥٨/ النساء .

وقوله (إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ) ٥٥/آل عمران .

السادس التصريح بالعلو المطلق ، الدال على جميع مراتب العلو ، ذاتا وقدرا وشرفا ، كقوله تعالى ، (وهو العلي العظيم).

السابع : التصريح بتنزيل الكتاب منه ، كقوله تعالى :

(تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ) ٢/غافر .

وقوله : (تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ) ٢/فصلت .

وقوله : (قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ) ١٠٢/النحل .

الثامن . التصريح باختصاص بعض المخلوقات بانها عنده ، وان بعضها

اقرب اليه من بعض ، كقوله تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ) ٢٠٦/الاعراف .

وقوله (وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ) ١٩/الانبياء .

ففرق بين « من له » عموما ، وبين « من عنده » من ملائكته وعبيده خصوصا .

التاسع : التصريح بانه تعالى في السماء ، كقوله :

(أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا) ١٧/الملك .

العاشر : التصريح بالاستواء على العرش الذي هو اعلى المخلوقات .

الحادي عشر : التصريح برفع الايدي الى الله تعالى ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « **ان الله يستحي من عبده اذا رفع اليه يديه ان يردهما صفرا** »

الثاني عشر : التصريح بنزوله كل ليلة الى سماء الدنيا .

الثالث عشر : الاشارة اليه حسا الى العلو ، كما اشار اليه من هو اعلم بربه ، محمد صلى الله عليه وسلم ، لما كان بعرفة ، فرفع اصبعه الكريمة الى السماء وقال : « **اللهم اشهد** » .

الرابع عشر : التصريح بلفظ « اين » فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم للفتاة : « **أين الله ؟** » .

الخامس عشر : شهادته صلى الله عليه وسلم لمن قال ان ربه في السماء بالايمان .

السادس عشر : اخباره تعالى عن فرعون انه رام الصعود الى السماء ليطلع الى اله موسى فيكذبه فيما اخبر من انه سبحانه فوق السموات ، فقال (يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا) ٣٦ و٣٧/غافر

السابع عشر : اخباره صلى الله عليه وسلم انه تردد بين موسى عليه السلام وبين ربه ليلة المعراج بسبب تخفيف الصلاة ، فيصعد الى ربه ثم يعود الى موسى عدة مرار .

الثامن عشر : النصوص الدالة على رؤية اهل الجنة له تعالى : من الكتاب والسنة ، فهم يرونه من فوقهم ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « **بينا اهل الجنة في نعيمهم اذ سطع لهم نور ، فرفعوا رؤوسهم فاذا الجبار جل جلاله قد اشرف عليهم من فوقهم وقال : يا اهل الجنة : سلام عليكم** » رواه

الامام احمد في المسند وغيره

ولا يتم انكار الفوقية الا بانكار الرؤية ، ولهذا طَرَدَ الجهمية الشقين ، وصَدّق اهل السنة بالامرين معا .

وهذه الانواع من الادلة لو بُسطت افرادها لبلغت نحو الف دليل ، فعلى المتأول ان يجيب عن ذلك كله ، وهيهات له بجواب صحيح .

ومن تأول « فوق » بانه خير من عباده وافضل منهم ، وانه خير من العرش وافضل منه ، كما يقال الامير فوق الوزير ، والدينار فوق الدرهم ، فذلك مما تنفر عنه العقول السليمة ، فان قول القائل ابتداء الله خير من عباده من جنس قوله الثلج بارد ، والنار حارة ، ورسول الله افضل من اليهود ، وليس في ذلك تمجيد ولا تعظيم

وانما يثبت هذا المعنى من الفوقية في ضمن ثبوت الفوقية المطلقة من كل وجه ، فله سبحانه وتعالى فوقية القهر ، وفوقية الذات ، ومن اثبت البعض ونفى البعض فقد تنقص ، وعلوه تعالى مطلق من كل الوجوه

فان قيل المراد علوه في القلوب ، قيل ، وكذلك هو ، وهذا العلو مطابق لعلوه في نفسه على كل شيء ، فان لم يكن عاليا بنفسه على كل شيء كان علوه في القلوب غير مطابق .

وعلوه سبحانه كما هو ثابت بالسمع ترويه النصوص ثابت بالفطرة ، كما ذكر محمد بن طاهر المقدسي ان الشيخ ابا جعفر الهمداني حضر مجلس الاستاذ ابي المعالي الجويني المعروف بامام الحرمين ، وهو يتكلم في نفي صفة العلو ، ويقول كان الله ولا عرش وهو الآن على ما كان فقال الشيخ ابو جعفر اخبرنا يا استاذ عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا ، فانه ما قال عارف قط يا الله ، الا وجد في قلبه ضرورة طلب العلو ، لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، فكيف ندفع هذه الضرورة عن انفسنا ؟ قال فلطم ابو المعالي على راسه ونزل ، واظنه قال وبكى ، وقال حيرني الهمداني ، حيرني اراد الشيخ ، ان هذا امر فطر الله عليه عباده ، من غير ان يتلقوه من المرسلين ، يجدون في قلوبهم طلبا ضروريا يتوجه الى الله ويطلبه في العلو

واعترض على الدليل الفطري ان ذلك انما كان لكون السماء قبلة الدعاء ، كما ان الكعبة قبلة للصلاة ثم هو منقوض بوضع الجبهة على الارض مع انه ليس في جهة الارض

وأُجيبَ عن هذا الاعتراض من وجوه

احدها : ان قولكم : ان السماء قبلة الدعاء : لم يقله احد من سلف الامة ، ولا انزل الله به من سلطان ، وهذا من الامور الشرعية الدينية ، فلا يجوز ان يخفى على جميع سلف الامة وعلمائها .

الثاني : ان قبلة الدعاء هي قبلة الصلاة ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستقبل القبلة في دعائه .

واما النقض بوضع الجبهة فما افسده من نقض ، فان واضع الجبهة انما قصده الخضوع لمن فوقه بالذل له ، لا بان يميل اليه اذ هو تحته . هذا لا يخطر في قلب ساجد .

وقول الطحاوي : « وقد اعجز عن الاحاطة خلقه » اي لا يحيطون به علما ولا رؤية .

● قال الطحاوي : (ونقول : ان الله اتخذ ابراهيم خليلا ، وكلم الله موسى تكليما ، ايمانا وتصديقا وتسليما) .

وذلك لقول الله تعالى : (وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا) ١٢٥/ النساء .

وقال سبحانه : (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا) ١٦٤/ النساء .

والخلة : كمال المحبة .

وانكرت الجهمية حقيقة المحبة من الجانبين ، زعما منهم ان المحبة لا تكون الا لمناسبة بين المحب والمحبوب ، وانه لا مناسبة بين القديم والمحدث توجب المحبة ! وكذلك انكروا حقيقة التكليم ، كما تقدم ، وعندنا ان محبته وخلته كما يليق به تعالى ، كسائر صفاته .

ويشهد لما دلّت عليه الآية الكريمة ما ثبت في الصحيح عن ابي سعيد الخُدري ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **لو كنت متخذا من أهل الارض خليلا لاتخذت ابا بكر خليلاِ ، ولكن صاحبكم خليل الله** » يعني نفسه . وفي رواية : « **ان الله اتخذني خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا** » .

مع انه صلى الله عليه وسلم قد وصف نفسه بانه يحب اشخاصا كقوله لمعاذ بن جبل « **والله اني لاحبك** » وكذلك قوله للانصار ، فعُلِمَ ان الخلة اخص من مطلق المحبة ، والمحبوب بها يكون محبوبا لذاته ، لا لشيء آخر ، اذ المحبوب لغيره هو مؤخر في الحب عن ذلك الغير .

● قال : (ونؤمن بالملائكة والنبيين ، والكتب المنزلة على

المرسلين ، ونشهد انهم كانوا على الحق المبين) .

وهذه الامور من اركان الايمان .

قال تعالى : (ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ) ٢٨٥/البقرة .

وقال تعالى : (لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْءَاخِرِ وَالْمَلَٰٓئِكَةِ وَالْكِتَٰبِ وَالنَّبِيِّۦنَ) ١٧٧/البقرة .

فجعل الله سبحانه وتعالى الايمان هو الايمان بهذه الجملة ، وسمى من امن بهذه الجملة ، مؤمنين ، كما جعل الكافرين من كفر بهذه الجملة ، فقال : (وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَالْيَوْمِ الْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا) ١٣٦/النساء .

وقال صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته ، حديث جبريل وسؤاله للنبي صلى الله عليه وسلم عن الايمان فقال : « ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره » .

ولهذا كانت الآيتان من آخر سورة البقرة لهما شأن عظيم ليس لغيرهما ، ففي الصحيحين عن ابي مسعود عقبة بن عمرو رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من قرا الآيتين من اخر سورة البقرة في ليلة كفتاه » .

وقد دل الكتاب والسنة عن اصناف الملائكة وانها موكلة باصناف المخلوقات ، منهم ملائكة الرحمة ، ومنهم ملائكة العذاب ، وملائكة قد وكلوا بحمل العرش ، وملائكة قد وكلوا بالتسبيح والتقديس الى غير ذلك .

ولفظ « الملك » يُشعر بانه رسول منفذ لأمر مرسله ، فليس لهم من الامر شيء ، بل الامر كله لله الواحد القهار ، وهم ينفذون امره ، (لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ) ٢٧/الانبياء .

فهم عِباد مُكرمون ، منهم الصافّون من حول العرش ، ومنهم المسبحون ، ليس منهم الا له مقام معلوم ، ولا يتخطاه وهو على عمل قد أُمر به ، لا يقصر عنه ولا يتعداه ، واعلاهم : الذين عنده : (لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ) ١٩ و٢٠/الانبياء .

ومنهم الاملاك الثلاثة : جبرائيل وميكائيل واسرافيل ، الموكلون بالحياة ، فجبرائيل موكل بالوحي الذي به حياة القلوب والارواح ، وميكائيل موكل بالقطر الذي به حياة الارض والنبات والحيوان ، واسرافيل موكل بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم . فهم رسل الله في خلقه وامره ،

وسفراؤه بينه وبين عباده .

والقرآن مملوء بذكر الملائكة واصنافهم ومراتبهم ، فتارة يقرن الله تعالى اسمه باسمهم ، وصلاته بصلاتهم ، ويضيفهم اليه في مواضع التشريف ، وتارة يذكر حفّهم بالعرش وحملهم له ، ومراتبهم من الدنو ، وتارة يصفهم بالاكرام والكرم ، والتقريب والعلو والطهارة والقوة والاخلاص .

قال تعالى : (هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ) ٤٣/الاحزاب .

وقال سبحانه : (ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟) ٧/غافر .

وقال عز وجل :

(وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ) ٧٥/الزمر .

وقال تعالى . (فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ) ٣٨/فصلت .

وقال تعالى : (كِرَامًا كَـٰتِبِينَ) ١١/الانفطار .

وقال سبحانه : (يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ) ٢١/المطففين .

وكذلك الاحاديث طافحة بذكرهم ، ولهذا كان الايمان بالملائكة احد الاصول الخمسة التي هي اركان الايمان .

واما الانبياء والمرسلون فعلينا الايمان بمن سمى الله تعالى في كتابه من رسله ، والايمان بان الله تعالى ارسل رسلا سواهم وانبياء ، لا يعلم اسماءهم وعددهم الا الله تعالى الذي ارسلهم . فعلينا الايمان بهم جملة ، لأنه لم يأت في عددهم نص .

قال تعالى : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ) ٧٨/غافر .

وعلينا الايمان بانهم بلّغوا جميع ما ارسلوا به ، على ما امرهم الله به ، وانهم بينوه بيانا لا يسع احدا ممن أُرسِلوا اليه جهله ، ولا يحل خلافه .

واما اولو العزم من الرسل فقد قيل فيهم اقوال ، احسنها ما نقله البغوي وغيره عن ابن عباس وقتاده : انهم نوح ، وابراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ، صلوات الله وسلامه عليهم . قال . وهم المذكورون في قوله تعالى (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ) ٧/الاحزاب .

ومن قوله تعالى

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ ١٣/ الشورى.

واما الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فتصديقه واتباع ما جاء به من الشرائع اجمالا وتفصيلا .

واما الايمان بالكتب المنزلة على المرسلين فنؤمن بما سمى الله تعالى منها في كتابه ، من التوراة والانجيل والزبور ، ونؤمن بان لله تعالى سوى ذلك كتبا انزلها على انبيائه ، لا يعرف اسماءها وعددها الا الله تعالى

واما الايمان بالقرآن ، فالاقرار به ، واتباع ما فيه ، وذلك امر زائد على الايمان بغيره من الكتب . فعلينا الايمان بان الكتب المنزلة على الرسل اتتهم من عند الله ، وانها حق وهدى ونور وبيان وشفاء . قال تعالى

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ ١٣٦/ البقرة.

● قال : (ونُسَمِّي اهلَ قِبلتنا مسلمين مؤمنين ، ما داموا بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم معترفين ، وله بكل ما قاله واخبر مصدقين) .

فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « **مَن صلى صلاتنا ، واستقبل قبلتنا ، واكلَ ذبيحتنا ، فهو المسلم ، له مالنا وعليه ما علينا** » .

ويشير الشيخ رحمه الله بهذا الكلام الى ان الاسلام والايمان واحد ، وان المسلم لا يخرج من الاسلام بارتكاب الذنب ، ما لم يستحله . والمراد بقوله « اهل قِبلتنا » من يدعي الاسلام ويستقبل الكعبة وان كان من اهل الاهواء او من اهل المعاصي ، ما لم يكذب بشيء مما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم .

● قال : (ولا نخوض في الله ، ولا نُماري في دين الله) .

ويشير الشيخ بهذا الى الكف عن كلام المتكلمين الباطل ، وذم علمهم ، فانهم يتكلمون في الاله بغير علم وغير سلطان اتاهم

قال ابو حنيفة رحمه الله لا ينبغي لاحد ان ينطق في ذات الله بشيء ، بل يصفه بما وصف به نفسه

وقوله : (ولا نماري في دين الله) معناه : لا نخاصم اهل الحق بالقاء شبهات اهل الاهواء عليهم ، لأنه في معنى الدعاء الى الباطل ، وتلبيس الحق ، وافساد دين الاسلام .

● قال : (ولا نجادل في القرآن ، ونشهد انه كلام رب العالمين ، نزل به الروح الامين ، فعلمه سيد المرسلين محمداً صلى الله عليه وسلم ، وهو كلام الله تعالى ، لا يساويه شيء من كلام المخلوقين ، ولا نقول بخلقه ، ولا نخالف جماعة المسلمين) .

وقوله : « نزل به الروح الامين » : هو جبرائيل عليه السلام . سمي روحا لانه حامل الوحي الذي به حياة القلوب الى الرسل من البشر صلوات الله عليهم اجمعين ، وهو امينٌ حَقٌّ امينٍ ، صلوات الله عليه .

قال تعالى :

(نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ) ١٩٣ و١٩٤ و١٩٥ / الشعراء .

وقال تعالى : (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ) ١٩و٢٠و٢١ / التكوير .

وهذا وصف جبرائيل ، بخلاف قوله تعالى :

(إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ) ٤٠ و٤١ / الحاقة.

فان الرسول هنا هو محمد صلى الله عليه وسلم .

وقوله : « ولا نقول بخلقه ، ولا نخالف جماعة المسلمين » : تنبيه على ان من قال بخلق القرآن فقد خالف جماعة المسلمين ، فان سلف الامة كلهم متفقون على انه كلام الله بالحقيقة غير مخلوق .

● قال : (ولا نكفر احدا من اهل القبلة بذنب ، ما لم يستحله ، ولا نقول : لا يضر مع الايمان ذنب لمن عمله » .

واراد باهل القبلة الذين تقدم ذكرهم في قوله : « ونسمي اهل قبلتنا مسلمين » .

ويشير الشيخ رحمه الله بهذا الكلام الى الرد على الخوارج القائلين بالتكفير بكل ذنب .

واعلم ـ رحمك الله وايانا ـ ان باب التكفير وعدم التكفير باب عظمت الفتنة والمحنة فيه ، وكثر فيه الافتراق ، وتشتتت فيه الاهواء والآراء ، وتعارضت فيه دلائلهم ، فالناس فيه ـ في جنس تكفير اهل المقالات والعقائد الفاسدة المخالفة للحق الذي بعث الله به رسوله في نفس الامر ، والمخالفة لذلك في اعتقادهم ـ: على طرفين ووسط ، من جنس الاختلاف في تكفير اهل الكبائر العملية :

فطائفة تقول : لا نكفر من اهل القبلة احدا ، فتنفي التكفير نفيا عاما ، مع العلم بان في اهل القبلة المنافقين ، الذين فيهم من هو اكفر من اليهود والنصارى . وايضا : فلا خلاف بين المسلمين ان الرجل لو اظهر انكار الواجبات الظاهرة المتواترة ، والمحرمات الظاهرة المتواترة ، ونحو ذلك ، فانه يُستتاب ، فان تاب ، وإلا قُتِلَ كافرا .

ولهذا امتنع كثير من الائمة عن اطلاق القول باننا لا نكفر احدا بذنب ، بل يقال : لا نكفرهم بكل ذنب ، ولهذا ـ والله اعلم ـ قيده الشيخ رحمه الله بقوله : « ما لم يستحله » وفي ذلك اشارة الى ان مراده : الذنوب العملية ، لا العلمية .

وقوله : « ولا نقول : لا يضر مع الايمان ذنب » : رد على المرجئة ، فانهم يقولون : لا يضر مع الايمان ذنب ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة فهؤلاء في طَرَف ، والخوارج في طَرَف ، فانهم يقولون بكفر المسلم بكل ذنب ، او بكل ذنب كبير ، وكذلك المعتزلة الذين يقولون : يحبط ايمانه كله بالكبيرة ، فلا يبقى معه شيء من الأيمان . لكن الخوارج يقولون : يخرج من الايمان ويدخل في الكفر ، والمعتزلة يقولون : يخرج من الايمان ولا يدخل في الكفر ، وهذه المنزلة بين المنزلتين ! وبقولهم بخروجه من الايمان اوجبوا له الخلود في النار .

وطوائف من اهل الكلام والفقه والحديث لا يقولون ذلك في الاعمال ، لكن في الاعتقادات البدعية ، وان كان صاحبها متأولا ، فيقولون : يكفر كل من قال هذا القول ، لا يُفرقون بين المجتهد المخطىء وغيره . او يقولون : يكفر كل مبتدع ، وهؤلاء يدخل عليهم في الاثبات العام امور عظيمة ، فان النصوص المتواترة قد دلت على انه يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من ايمان ، ونصوص الوعد التي يحتج بها هؤلاء تعارض نصوص الوعيد التي يحتج بها اولئك .

والمقصود هنا : ان البدع هي من هذا الجنس ، فان الرجل يكون مؤمنا باطنا وظاهرا ، لكن تأول تأويلا اخطأ فيه ، اما مجتهدا واما مفرطا مذنبا ، فلا يقال : ان ايمانه حبط لمجرد ذلك ، الا ان يدل على ذلك دليل شرعي ، بل هذا من

جنس قول الخوارج والمعتزلة . ولا نقول لا يكفر ، بل العدل هو الوسط ، وهو ان الاقوال الباطلة المبتدعة المحرمة المتضمنة نفي ما اثبته الرسول ، او اثبات ما نفاه ، او الامر بما نهى عنه ، او النهي عما امر به : يقال فيها الحق ، ويُثبَت لها الوعيد الذي دلت عليه النصوص ، ويبين انها كفر ، ويقال : من قالها فهو كافر ، ونحو ذلك ، وأما الشخص المعيّن ، اذا قيل : هل تشهدون انه من اهل الوعيد وانه كافر ؟ فهذا لا نشهد عليه الا بامر تجوز معه الشهادة ، فان من اعظم البغي ان يشهد على معين ان الله لا يغفر له ولا يرحمه بل يخلده في النار ، لأن الشخص المعين يمكن ان يكون مجتهدا مخطئا مغفورا له ، ويمكن ان يكون ممن لم يبلغه ما وراء ذلك من النصوص ، ويمكن ان يكون له ايمان عظيم وحسنات أوجبت له رحمة الله ، كما غفر للذي قال : اذا مِتُّ فاسحقوني ثم اذروني ، ثم غفر الله له لخشيته ، وكان يظن ان الله لا يقدر على جمعه واعادته ، او شك في ذلك . لكن هذا التوقف في امر الآخرة لا يمنعنا ان نعاقبه في الدنيا ، لمنع بدعته ، او نستتيبه فان تاب ، والا قتلناه . ثم اذا كان القول في نفسه كفرا قيل : انه كفر ، والقائل له يكفر بشروط وانتفاء موانع ، ولا يكون ذلك الا اذا صار منافقا زنديقا ، فلا يتصور ان يكفّر احد من اهل القبلة المظهرين للاسلام الا من يكون منافقا زنديقا ، وكتاب الله يبين ذلك ، فان الله صَنَّفَ الخلقَ فيه ثلاثة اصناف : كفار من المشركين ومن اهل الكتاب ، وهم الذين لا يقرون بالشهادة . وصنف : المؤمنون ظاهرا وباطنا . وصنف : اقروا به ظاهرا لا باطنا . وهذه الاقسام الثلاثة مذكورة في اول سورة البقرة ، وكل من ثبت انه كافر في نفس الامر وكان مُقِرا بالشهادتين فانه لا يكون الا زِنديقا ، والزِنديق هو المنافق .

وهنا يظهر غلط الطرفين ، فانه من كفّر كل من قال القول المبتدَع يلزمه ان يُكَفّر اقواما ليسوا في الباطن منافقين ، بل هم في الباطن يحبون الله ورسوله ، ويؤمنون بالله ورسوله وان كانوا مذنبين ، كما ثبت في صحيح البخاري : « ان رجلا كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم كان اسمه : عبدالله ، وكان يُلقب : حِمارا ، وكان يُضحِك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، وكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قد جلده في الشراب ، فأُتيَ به يوما ، فأمر به فجُلِدَ ، فقال رجل من القوم : اللهم العنه ، ما اكثر ما يؤتى به ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تلعنوه ، فوالله ما علمتُ : انه يُحب اللهَ ورسولَه » .

وهذا امر متيقن به في طوائف كثيرة وائمة في العلم والدين ، وفيهم بعض مقالات الجهمية او المرجئة او القدرية او الشيعة او الخوارج ، ولكن الائمة في الدين لا يكونون قائمين بجملة تلك البدعة بل بفرع منها .

فمن عيوب اهل البدع تكفير بعضهم بعضا ، ومن ممادح اهل العلم : انهم يُخَطِئون ولا يُكفرون .

ولكن بقي هنا إشكال يَرِد على كلام الشيخ رحمه الله ، وهو ان الشارع قد سمى بعض الذنوب كفرا . قال الله تعالى : (ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الكافرون) وقال صلى الله عليه وسلم « **سباب المسلم فسوق وقتاله كفر** » متفق عليه . وقال صلى الله عليه وسلم : « **بين المسلم وبين الكفر : ترك الصلاة** » رواه مسلم . وقال صلى الله عليه وسلم : « **اثنتان في امتي هما بهم كفر : الطعن في الانساب ، والنياحة على الميت** » ونظائر هذا كثيرة

والجواب : ان اهل السنة متفقون كلهم على ان مرتكب الكبيرة لا يُكفُر كفراً ينقل عن المِلّة بالكلية ، كما قالت الخوارج ، اذ لو كفر كفرا ينقل عن الملة لكان مرتدا على كل حال ، ولا يُقبل عفو ولي القصاص ، ولا تجري الحدود في الزنا والسرقة وشرب الخمر ، وهذا القول معلوم بطلانه وفساده بالضرورة من دين الاسلام ، ومتفقون على انه لا يخرج من الايمان والاسلام ، ولا يدخل في الكفر ، ولا يستحق الخلود مع الكافرين ، فان قول المعتزلة باطل ، اذ قد جعل الله مرتكب الكبيرة من المؤمنين ، فقال :

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى) ١٧٨ / البقرة .

ثم قال : (فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ) ١٧٨ / البقرة .

فلم يخرج القاتل من الذين آمنوا ، وجعله اخا لولي القصاص ، والمراد : اخوة الدين بلا ريب .

ونصوص الكتاب والسنة والاجماع تدل على ان الزاني والسارق والقاذف لا يُقتل ، بل يقام عليه الحد ، فدل على انه ليس بمرتد .

وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال :

« **من كانت عنده لاخيه اليومَ مَظلمةٌ ، من عِرض او شيء ، فليَتحلله منه اليوم ، قبل ان لا يكون درهم ولا دينار ، ان كان له عمل صالح : اخذ منه بقدر مظلمته ، وان لم يكن له حسنات : أُخِذَ من سيئات صاحبه فطرحت عليه ، ثم القي في النار** » اخرجاه في الصحيحين .

فثبت ان الظالم يكون له حسنات يستوفي المظلوم منها حقه .

وكذلك ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال :

« **ما تعدّون المفلس فيكم ؟**

قالوا : المفلس فينا من لا له درهم ولا دينار .

قال : المفلس من يأتي يوم القيامة وله حسنات امثال الجبال ، فيأتي وقد شتم هذا ، واخذ مال هذا ، وسفك دم هذا ، وقذف هذا ، وضرب هذا ، فيقتص هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فان فَنِيت حسناته قبل ان يقضي ما عليه : أُخِذ من خطاياهم فطُرحت عليه ، ثم طرح في النار » . رواه مسلم .

والمعتزلة موافقون للخوارج هنا في حكم الآخرة ، فانهم وافقوهم على أن مرتكب الكبيرة مخلد في النار . قالت الخوارج : نسميه كافرا . وقالت المعتزلة : نسميه فاسقا ، فالخلاف بينهم لفظي فقط .

واهل السنة ايضا متفقون على انه يستحق الوعيد المرتب على ذلك الذنب ، كما وردت به النصوص ، لا كما يقوله المرجئة من انه لا يضر مع الايمان ذنب ، ولا ينفع مع الكفر طاعة . واذا اجتمعت نصوص الوعد التي استدلت بها المرجئة ونصوص الوعيد التي استدلت بها الخوارج والمعتزلة : تبين لك فساد القولين . ولا فائدة في كلام هؤلاء سوى انك تستفيد من كلام كل طائفة فساد مذهب الطائفة الاخرى .

ثم بعد هذا الاتفاق تبين ان اهل السنة اختلفوا خلافا لفظيا ، لا يترتب عليه فساد وهو : انه هل يكون الكفر على مراتب ، كفرا دون كفر ؟ كما اختلفوا : هل يكون الايمان على مراتب ، ايمانا دون ايمان ؟

وهذا الاختلاف نشأ من اختلافهم في مسمى « الايمان » : هل هو قول وعمل ، يزيد وينقص ام لا ؟ بعد اتفاقهم على ان من سماه الله تعالى ورسوله كافرا نسميه كافرا ، اذ من الممتنع ان يسمي اللهُ سبحانه الحاكمَ بغير ما انزل الله كافرا ، ويسمي رسوله من تقدم ذكرهم كفارا ، ولا نطلق عليهم اسم الكفر . ولكن من قال : ان الايمان قول وعمل يزيد وينقص ، قال : هو كفر عملي لا اعتقادي ، والكفر عنده على مراتب ، كفر دون كفر ، كالايمان عنده . ومن قال : ان الايمان هو التصديق ، ولا يدخل العمل في مسمى الايمان ، والكفر هو الجحود ، ولا يزيدان ولا ينقصان ، قال : هو كفر مجازي غير حقيقي ، اذ الكفر الحقيقي هو الذي ينقل عن الملة . وكذلك يقول في تسمية بعض الاعمال بالايمان ، كقوله تعالى : (وما كان الله لِيُضِيعَ ايمانكم) اي صلاتكم الى بيت المقدس ، انها سميت ايمانا مجازا ، لتوقف صحتها على الايمان ، او لدلالتها على الايمان ، اذ هي دالة على كون مؤديها مؤمنا . ولهذا يحكم باسلام الكافر اذا صلى كصلاتنا ، فليس بين فقهاء الملة نزاع في اصحاب الذنوب اذا كانوا مقرين باطنا وظاهرا بما جاء به الرسول وما تواتر عنه انهم من اهل الوعيد . ولكن الاقوال المنحرفة اقوال من يقول بتخليدهم في النار ، كالخوارج والمعتزلة .

ولكن اردأ ما في ذلك : التعصب على من يُضادّهم ، والزامهم لمن يخالف قولهم بما لا يلزمه ، والتشنيع عليه ! واذا كنا مأمورين بالعدل في مجادلة الكافرين ، وان يجادلوا بالتي هي احسن ، فكيف لا يعدل بعضنا على بعض في مثل هذا الخلاف ؟

وهنا امر يجب ان يتفطن له ، وهو ان الحكم بغير ما انزل الله قد يكون كفرا ينقل عن الملة ، وقد يكون معصية كبيرة او صغيرة ، ويكون كفرًا : اما مجازيا ، واما كفرا اصغر ، على القولين المذكورين ، وذلك بحسب حال الحاكم : فانه ان اعتقد ان الحكم بما انزل الله غير واجب ، وانه مخير فيه ، او استهان به بعد تيقنه انه حكم : فهذا كفر اكبر .

وان اعتقد وجوب الحكم بما انزل الله ، وعلمه في هذه الواقعة ، وعدل عنه مع اعترافه بانه مستحق للعقوبة ، فهذا عاص ، ويسمى كافرا كفرا مجازيا ، او كفرا اصغر .

وان جهل حكم الله فيها مع بذل جهده واستفراغ وسعه في معرفة الحكم ، واخطأ فهذا مخطىء ، له اجر على اجتهاده وخطؤه مغفور .

واراد الشيخ رحمه الله بقوله : « ولا نقول : لا يضر مع الايمان ذنب » مخالفة المرجئة ، وشبهتهم كانت قد وقعت لبعض الاولين ، فاتفق الصحابة على قتلهم ان لم يتوبوا من ذلك ، فان قُدامةَ بن عبدالله شرب الخمر بعد تحريمها ، هو وطائفة ، وتأولوا قوله تعالى: (لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) ٩٣/المائدة .

فلما ذكروا ذلك لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : اتفق هو وعلي بن ابي طالب رضي الله عنه ، وسائر الصحابة ، على انهم ان اعترفوا بالتحريم : جُلدوا ، وان اصروا على استحلالها : قُتلوا . وقال عمرُ لقُدامة : اما انك لو اتقيتَ وآمنتَ وعملت الصالحات لم تشرب الخمر . وذلك ان هذه الآية نزلت بسبب ان الله سبحانه لما حرم الخمر ـ وكان تحريمها بعد وقعة احد ـ قال بعض الصحابة : فكيف باصحابنا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ؟ فانزل الله هذه الآية ، بيّن فيها ان من طعم الشيء في الحال التي لم يحرم فيها فلا جناح عليه اذا كان من المؤمنين المتقين المصلحين ، كما كان من امر استقبال بيت المقدس .

ثم ان اولئك الذين فعلوا ذلك ايسوا من التوبة ، فكتب عمر الى قدامة يقول له : (حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم . غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب) ما ادري اي ذنبك اعظم ؟ استحلالك المحرم اولا ؟ ام يأسك

من رحمة الله ثانيا ؟

وهذا الذي اتفق عليه الصحابة هو متفق عليه بين ائمة الاسلام .

● قال الطحاوي : (ونرجو للمحسنين من المؤمنين ان يعفو عنهم ويدخلهم الجنة برحمته ، ولا نأمن عليهم ولا نشهد لهم بالجنة ، ونستغفر لمسيئتهم ، ونخاف عليهم ، ولا نقنطهم) .

وعلى المؤمن ان يعتقد هذا الذي قاله الشيخ رحمه الله في حق نفسه وحق غيره .

قال تعالى : (أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا) ٥٧ / الاسراء .

وفي مسند احمد وجامع الترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت يا رسول الله : (الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة) : هو الذي يزني ويشرب الخمر ويسرق ؟ قال : « لا يا ابنة الصديق ، ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ، ويخاف ان لا يقبل منه » .

قال الحسن البصري رحمه الله : عملوا ـ والله ـ بالطاعات واجتهدوا فيها ، وخافوا ان تُردّ عليهم . ان المؤمن جمع احسانا وخشية ، والمنافق جمع اساءة وامنا .

وقد اختلفت عبارات العلماء في الفرق بين الكبائر والصغائر ، ولكن ثم امر ينبغي التفطن له ، وهو : ان الكبيرة قد يقترن بها من الحياء والخوف والاستعظام لها ما يلحقها بالصغائر . وقد يقترن بالصغيرة من قلة الحياء وعدم المبالاة وترك الخوف والاستهانة بها ما يلحقها بالكبائر ، وهذا امر مرجعه الى ما يقوم بالقلب ، وهو قدر زائد على مجرد الفعل ، والانسان يعرف ذلك من نفسه وغيره .

وايضا : فانه قد يعفى لصاحب الاحسان العظيم ما لا يعفى لغيره ، فان فاعل السيئات يسقط عنه عقوبة جهنم بنحو عشرة اسباب ، عرفت بالاستقراء من الكتاب والسنة .

السبب الاول : التوبة . والتوبة النصوح ـ وهي الخالصة ـ لا يختص بها ذنب دون ذنب . لكن هل تتوقف صحتها على ان تكون عامة ؟ حتى لو تاب من ذنب واصر على آخر لا تقبل ؟ الصحيح انها تقبل .

السبب الثاني : الاستغفار . قال تعالى:

(وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) ٣٣/الانفال .

السبب الثالث : الحسنات ، فان الحسنة بعشرة امثالها ، والسيئة بمثلها ، فالويل لمن غلبت آحاده عشراته .

قال الله تعالى : (إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ) ١١٤/هود .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « وأَتْبِعِ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها » .

السبب الرابع : المصائب الدنيوية . قال صلى الله عليه وسلم : « ما يصيب المؤمنَ من وَصَبٍ ولا نَصَبٍ ، ولا غَمٌّ ولا هَمٌّ ولا حزن ـ حتى الشوكةَ يُشاكها ـ إلا كُفِّر بها مِن خطاياه » .

فالمصائب نفسها مكفرة ، وبالصبر عليها : يثاب العبد ، وبالسخط يأثم .

السبب السادس : دعاء المؤمنين واستغفارهم للمذنب ، في حياته وبعد مماته .

السبب السابع : ما يُهدى اليه بعد الموت ، من ثواب صدقة او قراءة او حج ، ونحو ذلك .

السبب الثامن : اهوال يوم القيامة وشدائده .

السبب التاسع : ما ثبت في الصحيحين : ان المؤمنين اذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فيُقتص لبعضهم من بعض ، فاذا هذبوا ونقوا : اذن لهم في دخول الجنة .

السبب العاشر : شفاعة الشافعين .

السبب الحادي عشر : عفو ارحم الراحمين من غير شفاعة ، كما قال تعالى : (وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ) ٤٨/النساء .

فان كان ممن لم يشأ الله ان يغفر له ، لعظم جُرمه ، فلا بُد من دخوله الكير ، ليخلص طيبُ ايمانه من خبث معاصيه ، فلا يبقى في النار من في قلبه ادنى مثقال ذرة من ايمان ، بل من قال : لا اله الا الله ، كما في حديث انس رضي الله عنه . واذا كان الامر كذلك : امتنع القطع لاحد معين من الامة ، غير من شهد له الرسول صلى الله عليه وسلم بالجنة ، ولكن نرجو للمحسنين ، ونخاف عليهم .

● **قال : (والامن والياس سبيلان عن امة الاسلام ، وسبيل الحق بينهما لاهل القبلة) .**

اي يجب ان يكون العبد خائفا راجيا ، فان الخوف المحمود الصادق : ما حال بين صاحبه وبين محارم الله ، فاذا تجاوز ذلك : خيف منه اليأس والقنوط .

والرجاء المحمود : رجاءُ رجل عمل بطاعة الله على نور من الله ، فهو راج لثوابه . او رجل اذنب ذنبا ثم تابَ منه الى الله ، فهو راج لمغفرته .

قال الله تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) ٢١٨ / البقرة .

اما اذا كان الرجل متماديا في التفريط والخطايا ، يرجو رحمة الله بلا عمل ، فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب .

قال ابو علي الروذباري رحمه الله : الخوف والرجاء كجناحي الطائر : اذا استويا : استوى الطير وتم طيرانه ، واذا نقص احدهما : وقع فيه النقص ، واذا ذهبا : صار الطائر في حد الموت .

وقد مدح الله اهل الخوف والرجاء بقوله :

(أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأٓخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ) ٩/ الزمر .

فالرجاء يستلزم الخوف ، ولولا ذلك لكان امنا . والخوف يستلزم الرجاء ولولا ذلك لكان قنوطا ويأسا .

● **قال : (ولا يخرج العبد من الايمان الا بجحود ما ادخله فيه) .**

ويشير الشيخ بهذا الى الرد على الخوارج والمعتزلة في قولهم بخروجه من الايمان بارتكاب الكبيرة .

● **قال : (والايمان : هو الاقرار باللسان ، والتصديق بالجَنان . وجميعُ ما صحّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشرع والبيان كله حق . والايمان واحد ، واهله في اصله سواء ، والتفاضل بينهم بالخشية والتقى ، ومخالفة الهوى ، وملازمة الاولى) .**

وقد اختلف الناس فيما يقع عليه اسم « الايمان » فذهب مالك والشافعي واحمد والاوزاعي واسحاق بن راهويه وسائر اهل الحديث واهل المدينة واهل الظاهر وجماعة من المتكلمين : الى انه تصديق بالجنان ، واقرار باللسان ، وعمل بالاركان . وذهب كثير من اصحابنا الى ما ذكره الطحاوي : انه الاقرار باللسان ، والتصديق بالجنان .

وذهب الكرامية الى ان الايمان هو الاقرار باللسان فقط ، فالمنافقون عندهم مؤمنون كاملو الايمان ، لكن يقولون بانهم يستحقون الوعيد الذي اوعدهم الله به . وقولهم ظاهر الفساد .

وذهب الجهم بن صفوان الى ان الايمان هو المعرفة بالقلب . وهذا القول اظهر فسادا مما قبله ، فان لازمه ان فرعون وقومه كانوا مؤمنين ، فانهم عرفوا صدق موسى وهارون ، ولم يؤمنوا بهما ، ولهذا قال موسى لفرعون :

(لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ) ١٠٢/الاسراء .

وحاصل الكل يرجع الى ان الايمان اما ان يكون ما يقوم بالقلب واللسان وسائر الجوارح ، كما ذهب اليه جمهور السلف من الائمة الثلاثة وغيرهم ، كما تقدم ، او بالقلب واللسان دون الجوارح ، كما ذكره الطحاوي عن ابي حنيفة واصحابه رحمهم الله .

والاختلاف الذي بين ابي حنيفة والائمة الباقين من اهل السنة : اختلاف صوري ، فان كون اعمال الجوارح لازمة لايمان القلب ، او جزءا من الايمان ، مع الاتفاق على ان مرتكب الكبيرة لا يخرج من الايمان ، بل هو في مشيئة الله ، ان شاء عذبه ، وان شاء عفا عنه : نزاع لفظي ، لا يترتب عليه فساد اعتقاد .

والقائلون بتكفير تارك الصلاة ضموا الى هذا الاصل ادلة اخرى ، والا فقد نفى النبي صلى الله عليه وسلم الايمان عن الزاني والسارق وشارب الخمر ، ولم يوجب زوال اسم الايمان عنهم بالكلية . اتفاقا . ولا خلاف بين اهل السنة ان الله تعالى اراد من العباد القول والعمل . والقول : التصديق بالقلب والاقرار باللسان ، وهذا الذي يعنى به عند اطلاق قولهم : « الايمان قول وعمل » ، لكن هذا المطلوب من العباد : هل يشمله اسم الايمان ؟ ام الايمان احدهما ، وهو القول وحده ، والعمل مغاير له لا يشمله اسم الايمان عند افراده بالذكر ، وان اطلق عليهما كان مجازا ؟ هذا محل النزاع .

وقد اجمعوا على انه لو صدق بقلبه واقر بلسانه وامتنع عن العمل بجوارحه : انه عاص لله ورسوله ، مستحق للوعيد .

ولهذا – والله اعلم – قال الشيخ رحمه الله : « واهله في اصله سواء » يشير الى ان التساوي انما هو في اصله ، ولا يلزم منه التساوي من كل وجه ، بل تفاوت درجات نور « لا اله الا الله » في قلوب اهلها لا يحصيها الا الله تعالى . فمن الناس من نور « لا اله الا الله » في قلبه كالشمس . ومنهم مَن نورها في قلبه كالكوكب الدُرّي ، وآخر كالمشعل العظيم ، وآخر كالسراج المضيء ، وآخر كالسراج الضعيف . ولهذا تظهر الانوار يوم القيامة بايمانهم وبين ايديهم على هذا المقدار ، بحسب ما في قلوبهم من نور الايمان والتوحيد ، علما وعملا ، وكلما اشتد نور هذه الكلمة وعظم : احرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته .

والادلة على زيادة الايمان ونقصانه من الكتاب والسنة والآثار السلفية كثيرة جدا .

منها قوله تعالى : (وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا) ٢/الانفال .

وقوله سبحانه : (وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا) ٣١/المدثر .

وقوله عز وجل :

(هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ) ٤/الفتح .

وقد اخبر النبي صلى الله عليه وسلم انه يخرج من النار من في قلبه ادنى ادنى مثقال ذرة من ايمان .

فكيف يقال بعد هذا : ان ايمان اهل السموات والارض سواء وانما التفاضل بينهم بمعان آخر غير الايمان ؟

وكلام الصحابة رضي الله عنهم في هذا المعنى كثير ايضا ، وكان عمر رضي الله عنه يقول لاصحابه : هلموا نزداد ايمانا . وكان عبدالله بن مسعود رضي الله عنه يقول في دعائه : اللهم زدنا ايمانا ويقينا وفقها . وكان معاذ بن جبل رضي الله عنه يقول للرجل من اصحابه : اجلس بنا نؤمن ساعة .

واما كون الاعمال داخلة في الايمان فذلك مدلول نصوص كثيرة ، ففي الصحيح قول النبي صلى الله عليه وسلم لوفد عبدالقيس : « امركم بالايمان بالله وحده . اتدرون ما الايمان بالله ؟ شهادة ان لا اله الا الله وحده لا شريك له ، واقام الصلاة، وايتاء الزكاة ، وان تؤدوا الخُمس من المغنم » . ومعلوم انه لم يُرد ان هذه الاعمال تكون ايمانا بالله بدون ايمان القلب ، لما قد اخبر في مواضعَ انه لا بد من ايمان القلب ، فعُلم ان هذه مع ايمان القلب هو الايمان . واي دليل على ان الاعمال داخلة في مسمى « الايمان » فوق هذا

الدليل ؟ للعلم بانه فسر الايمان بالاعمال ، ولم يذكر التصديق ، للعلم بان هذه الاعمال لا تفيد مع الجحود .

وقوله : « وجميع ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشرع والبيان كله حق » . يشير الى الرد على الجهمية والمعتزلة القائلين بان الاخبار قسمان : متواتر وآحاد ، فالمتواتر ــ وان كان قطعي السند ــ لكنه غير قطعي الدلالة ، فان الادلة اللفظية لا تفيد اليقين ! ولهذا قدحوا في دلالة القرآن على الصفات . قالوا : والآحاد لا تفيد العلم ، ولا يحتج بها ، لا من جهة سندها ولا من جهة متنها ، فسدّوا على القلوب معرفة الرب تعالى واسمائه وصفاته وافعاله من جهة الرسول ، واحالوا الناس على قضايا وهمية ومقدمات خيالية .

وطريق اهل السنة : ان لا يعدلوا عن النص الصحيح ولا يعارضوه بمعقول ، ولا قول فلان ، كما اشار الشيخ رحمه الله .

قال البخاري رحمه الله : سمعت الحُمَيدي يقول : كنا عند الشافعي رحمه الله ، فاتاه رجل فسأله عن مسألة ، فقال : قضى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا وكذا . فقال رجل للشافعي : ما تقول انت ؟ فقال : سبحان الله ! تراني في كنيسة ، تراني في بيعة ، تراني على وسطي زنار ؟ اقول لك : قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وانت تقول : ما تقول انت ؟

وخبر الواحد اذا تلقته الامة بالقبول : عملا به وتصديقا له : يفيد العلم اليقيني عند جماهير الامة ، وهو احد قسمي المتواتر . ولم يكن بين سلف الامة في ذلك نزاع ، كخبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « **انما الاعمال بالنيات** » وخبر ابي هريرة : « **لا تنكح المراة على عمتها ولا على خالتها** » . وخبر : « **يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب** » وامثال ذلك وهو نظير خبر الذي اتى مسجد قُباء واخبر ان القِبلة تحولت الى الكعبة ، فاستداروا اليها .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرسل رسله آحادا ، ويرسل كتبه مع الآحاد ، ولم يكن المرسَل اليهم يقولون : لا نقبله لأنه خبر واحد .

ولهذا فضح الله من كذب على رسوله في حياته وبعد وفاته ، وبين حاله للناس . قال سفيان بن عُيينة : ما ستر الله احدا يكذب في الحديث : وقال عبدالله بن المبارك : لو هَمّ رجل في البحر ان يكذب في الحديث لاصبح والناس يقولون : فلان كذاب .

وخبر الواحد ــ وان كان يحتمل الصدق والكذب ــ ولكن التفريق بين صحيح الاخبار وسقيمها لا يناله احد الا بعد ان يكون معظم اوقاته مشتغلا بالحديث ، والبحث عن سير الرواة ، ليقف على احوالهم واقوالهم ، وشدة

حذرهم من الطغيان والزلل ، وكانوا بحيث لو قُتلوا لم يسامحوا احدا في كلمة يتقولها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا فعلوا هم بانفسهم ذلك ، وقد نقلوا هذا الدين الينا كما نقل اليهم ، فهم عصابة الايمان ، وهم نقاد الاخبار ، وصيارفة الحديث .

ولكن النُفاة قد جعلوا قوله تعالى : (ليس كمثله شيء) مستَندا لهم في رد الاحاديث الصحيحة ، فكلما جاءهم حديث يخالف قواعدهم وآراءهم ؛ وما وضعته خواطرهم وافكارهم : ردّوه بـ (ليس كمثله شيء) تلبيسا على من هو اعمى منهم قلبا ، وتحريفا لمعنى الآي عن مواضعه ، ففهموا من اخبار الصفات ، ما لم يرده الله ولا رسوله ، ولا فهمه احد من ائمة الاسلام ، انه يقتضي اثباتها التمثيل بما للمخلوقين . ثم استدلوا على بطلان ذلك بـ (ليس كمثله شيء) تحريفا للنصّين .

ويشير الشيخ رحمه الله بقوله : « من الشرع والبيان » الى ان ما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم نوعان : شرع ابتدائي وبيان لما شرعه الله في كتابه العزيز ، وجميع ذلك حق واجب الاتباع .

● **قال : (والمؤمنون كلهم اولياء الرحمن) ..**

وذلك قول الله تعالى : (أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ) ٦٢/يونس .

والولي : من « الوَلاية » بفتح الواو ، التي هي ضد العداوة ، وقد قرأ حمزة : (ما لكم من وِلايتهم من شيء) بكسر الواو ، والباقون بفتحها . وقيل : هما لغتان . وقيل بالفتح : النصرة ، وبالكسر : الامارة . قال الزّجّاج : وجاز الكسر ، لأن في تولي بعض القوم بعضا جنسا من الصناعة والعمل ، وكل ما كان كذلك: مكسور ، مثل : « الخياطة » ونحوها .

فالمؤمنون اولياء الله ، والله تعالى وليهم .

قال تعالى : (ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ) ١١/محمد .

وقال تعالى : (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ۝ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ) ٥٥ و٥٦/المائدة .

فهذه النصوص كلها ثبت فيها موالاة المؤمنين بعضهم لبعض، وانهم اولياء الله ، وان الله وليهم ومولاهم ، ومن عادى له وليا فقد بارزه بالمحاربة ،

وهذه الولاية من رحمته واحسانه ، ليست كولاية المخلوق للمخلوق لحاجته اليه قال تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ ١١١ / الاسراء .

فالله تعالى ليس له ولي من الذل ، بل لله العزة جميعا ، خلاف الملوك وغيرهم ممن يتولى الاولياء لذله وحاجته الى من ينصره . والولاية ايضا نظير الايمان ، فيكون مراد الشيخ : ان اهلها في اصلها سواء ، وتكون كاملة وناقصة ، فالكاملة تكون للمؤمنين المتقين ، كما قال تعالى :

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ ٦٢ - ٦٤ / يونس .

وتجتمع في المؤمن ولاية من وجه ، وعداوة من وجه ، كما قد يكون فيه كفر وايمان ، وشرك وتوحيد ، وتقوى وفجور ، ونفاق وايمان .

قال صلى الله عليه وسلم : « ثلاث مَن كنّ فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : اذا حدث كذب ، واذا وعد اخلف ، واذا خاصم فجر » .

فالطاعات من شُعَب الايمان ، والمعاصي من شعب الكفر ، وان كان رأس شعب الكفر الجحود ، ورأس شعب الايمان التصديق .

● قال : (واكرمهم عند الله : اطوعُهم واتبعُهم للقرآن)

اراد : اكرم المؤمنين هو الاطوع لله ، والاتبع للقرآن ، وهو الاتقى ، والاتقى هو الاكرم .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ ١٣ / الحجرات .

وفي السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لابيض على اسود ، ولا لاسود على ابيض ، الا بالتقوى . الناس من آدم ، وآدم من تراب » .

وبهذا الدليل يظهر ضعف تنازعهم في مسألة الفقير الصابر والغني الشاكر ، وترجيح احدهما على الآخر ، وان التحقيق : ان التفضيل لا يرجع الى ذات الفقر والغنى ، وانما يرجع الى الاعمال والاحوال ، فان التفضيل عند الله بالتقوى وحقائق الايمان ، لا بفقر ولا غنى . ولهذا — والله اعلم — قال عمر رضي الله عنه : الفقر والغنى مطيتان ، لا أُبالي ايهما ركبت .

● **قال : (والايمان : هو الايمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وبالقدر ، خيره وشره ، وحلوه ومُرّه ، من الله تعالى) .**

وقد تقدم ان هذه الخصال هي اصول الدين ، وبها اجاب النبي صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل المشهور المتفق على صحته ، حين جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم على صورة رجل اعرابي وسأله عن الاسلام والايمان والاحسان .

والكتاب والسنة مملوءان بما يدل على ان المرء لا يثبت له حكم الايمان الا بالعمل مع التصديق ، وهذا اكثر من معنى الصلاة والزكاة ، فان تلك انما فسرتها السنة ، والايمان بين معناه الكتاب والسنة .

فمن الكتاب قوله تعالى :

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ) ٢/ الانفال .

وقوله تعالى : (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) ٦٥/ النساء .

فنفي الايمان حتى توجد هذه الغاية : دلّ على ان هذه الغاية فرض على الناس ، فمن تركها كان من اهل الوعيد ولم يكن قد اتى بالايمان الواجب .

ومما يُسأل عنه : انه اذا كان ما اوجبه الله من الاعمال الظاهرة اكثر من الخصال الخمس التي اجاب بها النبي صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل المذكور ، فلم قال : أن الاسلام هذه الخصال الخمس ؟

وقد اجاب بعض الناس بان هذه اظهر شعائر الاسلام واعظمها ، وبقيامه بها يتم استسلامه ، وتركه لها يُشعِر بانحلال قياده .

والتحقيق : ان النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الدين الذي هو استسلام العبد لربه مطلقا ، الذي يجب لله على عباده ، على كل من كان قادرا عليه ، وهذه هي الخمس ، وما سوى ذلك فانما يجب باسباب ومصالح ، فلا يعم وجوبها جميع الناس ، بل اما ان يكون فرضا على الكفاية ، كالجهاد ، والامر بالمعروف ، وما يتبع ذلك من امارة وحكم ، وفُتيا ، وإقراء ، وتحديث وغير ذلك . واما ما يجب بسبب حق الآدميين ، فيختص به من وجب له وعليه ، وقد يسقط باسقاطه ، من قضاء الديون ، ورد الامانات ، والانصاف من المظالم ، من الدماء والاموال والاعراض ، وحقوق الزوجة والاولاد ، وصلة الارحام ، ونحو ذلك ، فان الواجب من ذلك على زيد غير الواجب على عمرو ، بخلاف صوم

رمضان وحج البيت والصلوات الخمس والزكاة .

وقوله : « وبالقدر خيره وشره وحلوه ومره من الله تعالى » : موافق لقوله تعالى : (قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا) ٥١/ التوبة .

وقال تعالى : (وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا) ٧٨/ النساء .

وقال سبحانه :

(مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ) ٧٩/ النساء .

فان قيل : كيف وجه الجمع بين قوله : (كل من عند الله) وبين قوله : « فمن نفسك » ؟

قيل : قوله : « كل من عند الله » الخصب والجدب ، والنصر والهزيمة ، كلها من عند الله ، وقوله : « فمن نفسك » : اي ما اصابك من سيئة من الله فبذنب نفسك عقوبة لك ، كما قال تعالى :

(وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ) ٣٠/ الشورى .

يدل على ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما انه قرأ : (وما اصابك من سيئة فمن نفسك) وانا كتبتها عليك .

والمراد بالحسنة هنا : النعمة ، وبالسيئة : البلية ، في اصح الاقوال . وقد قيل : الحسنة : الطاعة ، والسيئة : المعصية .

وفي قوله : « فمن نفسك » من الفوائد : ان العبد لا يطمئن الى نفسه ولا يسكن اليها ، فان الشر كامن فيها ، لا يجيء الا منها ، ولا يشتغل بملام الناس ولا ذمهم اذا اساءوا اليه ، فان ذلك من السيئات التي اصابته ، وهي انما اصابته بذنوبه ، فيرجع الى الذنوب ، ويستعيذ بالله من شر نفسه وسيئات عمله ، ويسأل الله ان يعينه على طاعته ، فبذلك يحصل له كل خير ويندفع عنه كل شر .

ولهذا كان انفع الدعاء واعظمه واحكمه دعاء الفاتحة : (اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين انعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين) ٥ — ٧/ الفاتحة .

فانه اذا هداه هذا الصراط : أعانه على طاعته وترك معصيته ، فلم يصبه شر ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ، لكن الذنوب هي لوازم نفس الانسان ، وهو محتاج الى الهدى كل لحظة ، وهو الى الهدى احوج منه الى الطعام والشراب .

ليس كما يقوله بعض المفسرين : انه قد هداه ، فلماذا يسأل الهدى ؟ وان المراد التثبيت او مزيد الهداية ! بل العبد محتاج الى ان يعلمه الله ما يفعله من تفاصيل احواله ، والى ما يتركه من تفاصيل الامور ، في كل يوم ، والى ان يلهمه ان يعمل ذلك ، فانه لا يكفي مجرد علمه ان لم يجعله مريدا للعمل بما يعلمه ، وإلّا كان حُجّة عليه ، ولم يكن مهتديا . ومحتاج الى ان يجعله قادرا على العمل بتلك الارادة الصالحة ، فان المجهول لنا من الحق اضعاف المعلوم ، وما لا نريد فعله تهاونا وكسلا مثل ما نريده او اكثر منه او دونه ، وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك ، وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله فامر يفوت الحصر ، ونحن محتاجون الى الهداية التامة . فمن كملت له هذه الامور كان سؤاله سؤال تثبيت ، وهي آخر الرتب ، وبعد ذلك كله هداية اخرى ، وهي الهداية الى طريق الجنة في الآخرة ، ولهذا كان الناس مأمورين بهذا الدعاء في كل صلاة .

وهذه الامور كان النبي صلى الله عليه وسلم يجمعها في الصلاة كما ثبت عنه في الصحيح ، انه اذا كان رفع رأسه من الركوع يقول : « **ربنا لك الحمد ، حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ، ملء السموات ، وملء الارض ، وملء ما شئت من شيء بعد ، اهل الثناء والمجد ، احق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد** » . فهذا حمد ، وهو شكر لله تعالى ، وبيان ان حمده احق ما قاله العبد . ثم يقول بعد ذلك : « **لا مانع لما اعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجَد** » . وهذا تحقيق لوحدانيته ، لتوحيد الربوبية ، خلقا وقدرا ، وبداية ونهاية ، وهو المعطي المانع ، لا مانع لما اعطى ، ولا معطي لما منع ، وتوحيد الالهية ، شرعا وامرا ونهيا ، وان العباد وان كانوا يُعطون جَدا ، مُلكا وعظمة ورياسة ، فلا ينفع ذا الجد منك الجد ، اي لا ينجيه ولا يخلصه ، ولهذا قال : لا ينفعه منك ، ولم يقل : لا ينفعه عندك .

ومن عرف هذا حق المعرفة ، انفتح له باب توحيد الله ، وعلم انه لا يستحق ان يسأل غيره فضلا عن ان يعبد غيره ، ولا يتوكل على غيره ولا يرجى غيره .

● قال : (ونحن مؤمنون بذلك كله ، لا نفرق بين احد من رسله ، ونصدقهم كلهم على ما جاءوا به) .

اي لا نفرق بينهم بان نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، بل نؤمن بهم ونصدقهم كلهم ، فان من آمن ببعض وكفر ببعض كافر بالكل . قال تعالى : (وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا) ١٥٠و١٥١/ النساء .

فان المعنى الذي لاجله آمن بمن آمن به منهم موجود في الذي لم يؤمنوا به ، وذلك الرسول الذي آمن به قد جاء بتصديق بقية المرسلين ، فاذا لم يؤمن ببعض المرسلين كان كافرا بمن في زعمه انه يؤمن به ، لأن ذلك الرسول جاء بتصديق المرسلين كلهم .

● قال الطحاوي : (واهل الكبائر من امة محمد صلى الله عليه وسلم في النار لا يخلدون ، اذا ماتوا وهم موحدون ، وان لم يكونوا تائبين ، بعد ان لقوا الله عارفين ، وهم في مشيئته وحكمه ان شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله ، كما ذكر عز وجل في كتابه « ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » وان شاء عذبهم في النار بعدله ، ثم يخرجهم منها برحمته ، وشفاعة الشافعين من اهل طاعته ، ثم يبعثهم الى جنته ، ذلك بان الله تعالى مولى اهل معرفته ، ولم يجعلهم في الدارين كأهل نكرته ، الذين خابوا من هدايته ، ولم ينالوا من ولايته . اللهم يا ولي الاسلام واهله : ثبتنا على الاسلام حتى نلقاك به) .

واصح تعريف للكبائر : انها ما يترتب عليها حد او تُوُعِّدَ عليها بالنار او اللعنة او الغضب .

وامثل الاقوال في الصغائر : انها ما ليس فيها حدٌّ في الدنيا ولا وعيد في الآخرة .

والمراد بالوعيد : الوعيد الخاص بالنار او اللعنة او الغضب ، فان الوعيد الخاص في الآخرة كالعقوبة الخاصة في الدنيا ، اي المقدرة ، فالتعزير في الدنيا نظير الوعيد بغير النار او اللعنة او الغضب .

وهذه الضوابط يدخل فيها كل ما يثبت بالنص انه كبيرة ، كالشرك ، والقتل ، والزنا ، والسحر ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ، ونحو ذلك ، كالفرار من الزحف ، واكل مال اليتيم ، واكل الربا ، وعقوق الوالدين ، واليمين الغموس ، وشهادة الزور ، وامثال ذلك .

وترجيح هذا التعريف من وجوه

احدها انه هو المأثور عن السلف ، كابن عباس ، وابن عيينة ، واحمد ابن حنبل وغيرهم .

الثاني ان الله تعالى قال

(إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا) ٣١ / النساء .

فلا يستحق هذا الوعد الكريم من اوعد بغضب الله ولعنته وناره .

الثالث : ان ممن لم يقل بهذا الضابط مَن قال ان الكبائر هي ما اتفقت الشرائع على تحريمه دون ما اختلفت فيه ، وليس هذا القول بصواب ، اذ ان ذلك يقتضي ان شرب الخمر ، والتزويج ببعض المحارم ، والمحرم بالرضاعة والصهرية ، ونحو ذلك ، ليس من الكبائر . وكذلك من قال ان الكبائر هي ما سد باب المعرفة بالله او كان فيه ذهاب الاموال والابدان ، اذ ان هذا يقتضي ان شرب الخمر واكل الخنزير والميتة ليس من الكبائر ، وهذا قول فاسد .

● قال : (ونرى الصلاة خلف كل بَرّ وفاجر من اهل القبلة ، وعلى من مات منهم) .

وذلك لقول النبي صلى الله عليه وسلم : « **صلوا خلف كل بَرّ وفاجر** » . رواه مكحول عن ابي هريرة رضي الله عنه ، واخرجه الدارقطني وقال : مكحول لم يلق ابا هريرة ، وفي اسناده معاوية بن صالح : مُتكلَّم فيه، وقد احتج به مسلم في صحيحه(١) .

---

(١) الحديث رواه الدارقطني ص ١٨٥ مطولا - ورواه البيهقي في السنن الكبرى ٤ / ١٩ من طريق الدارقطني . من رواية ابن وهب حدثني معاوية بن صالح عن العلاء بن الحرث عن مكحول عن ابي هريرة . قال الدارقطني ، مكحول لم يسمع من ابي هريرة ومن دونه ثقات . وقال البيهقي بعد كلام الدارقطني . قد روى في الصلاة على كل بر وفاجر والصلاة على من قال لا اله الا الله احاديث كلها في غاية الضعف . واصح ما روى في هذا الباب ، حديث مكحول عن ابي هريرة . وقد اخرجه ابو داود في كتاب السنن اي الحديث الذي سيذكره الشارح ابن ابي العز هنا الا ان فيه ارسالا كما ذكر الدارقطني . وقد حققنا في شرح مسند احمد في الحديث رقم ٥٧٢٤ ان الكلام في معاوية بن صالح فيه تعصب من غير حجة . وعلة هذا الحديث والذي بعده هي الانقطاع بين مكحول وابي هريرة كما قال الدارقطني والبيهقي كتبه احمد محمد شاكر

وخرّج الدارقطني ايضا وابو داود عن مكحول عن ابي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **الصلاة واجبة عليكم مع كل مسلم ، بَرًّا كان او فاجرا ، وان عمل بالكبائر . والجهاد واجب عليكم مع كل امير ، برا كان او فاجرا ، وان عمل بالكبائر** » .

وفي صحيح البخاري أن عبدالله بن عمر رضي الله عنه كان يصلي خلف الحجاج بن يوسف الثقفي وكذا انس بن مالك ، وكان الحجاج فاسقا ظالما .

وفي صحيح البخاري ايضا ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **يُصلون لكم ، فأن اصابوا فلكم ولهم ، وان أخطاوا فلكم وعليهم** » .

واعلم ــ رحمك الله وايانا ــ انه يجوز للرجل ان يصلي خلف من لم يعلم منه بدعة ولا فسقا ، باتفاق الائمة ، وليس من شرط الائتمام ان يعلم المأموم اعتقاد امامه ، ولا ان يمتحنه ، فيقول : ماذا تعتقد ؟ بل يصلي خلف مستور الحال . ولو صلى خلف مبتدع يدعو الى بدعته ، او فاسق ظاهر الفسق ، وهو الامام الراتب الذي لا يمكنه الصلاة الا خلفه ، كامام الجمعة والعيدين ، والامام في صلاة الحج بعرفة ، ونحو ذلك ، فان المأموم يصلي خلفه عند عامة السلف والخلف ، ومَن ترك الجمعة والجماعة خلف الامام الفاجر ، فهو مبتدع

عند اكثر العلماء ، والصحيح انه يصليها ولا يعيدها ، فان الصحابة رضي الله عنهم كانوا يصلون الجمعة والجماعة خلف الائمة الفجار ولا يعيدون ، كما كان عبدالله بن عمر يصلي خلف الحجاج ، وكذلك انس ، كما تقدم ، وكذلك عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه وغيره كانوا يصلون خلف الوليد بن عُقبة بن ابي مُعَيط ، وكان يشرب الخمر .

والفاسق والمبتدع صلاته في نفسها صحيحة ، فاذا صلى المأموم خلفه : لم تبطل صلاته ، لكن انما كره من كره الصلاة خلفه لأن الامر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب .

ومن ذلك : ان من اظهر بدعة وفجورا : لا يُرَتَّب اماما للمسلمين ، فانه يستحق التعزير حتى يتوب ، فاذا امكن هجره حتى يتوب : كان حسنا ، واذا كان بعض الناس اذا ترك الصلاة خلفه وصلى خلف غيره اثر ذلك في انكار المنكر حتى يتوب او يُعزَل او ينتهي الناس عن مثل ذنبه : كان في ذلك مصلحة شرعية اذا لم يفت المأموم الجمعة ولا الجماعة . واما اذا كان ترك الصلاة خلفه يفوت المأموم الجمعة والجماعة : فهنا لا يترك الصلاة خلفه الا مبتدع مخالف للصحابة رضي الله عنهم ، وكذلك اذا كان الامام قد رتبه ولاة الامور ، ليس في ترك الصلاة خلفه مصلحة شرعية .

والخلاصة : ان الصلاة خلف الافضل : افضل ، فاذا امكن الانسان ان لا يقدم مظهرا للمنكر في الامامة : وجب عليه ذلك ، لكن اذا ولاه غيره ، ولم يمكنه صرفه عن الامامة ، او كان لا يتمكن من صرفه عن الامامة الا بِشَرٍّ اعظم ضررا من ضرر ما اظهر من المنكر ، فلا يجوز دفع الفساد القليل بالفساد الكثير ، ولا دفع اخف الضررين بحصول اعظمهما ، فان الشرائع جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ، بحسب الامكان ، وتفويت الجُمَع والجماعات اعظم فسادا من الاقتداء فيهما بالامام الفاجر ، لا سيما اذا كان التخلف عنها لا يدفع فجورا ، فيبقى تعطيل المصلحة الشرعية بدون دفع تلك المفسدة .

واما اذا امكن فعل الجمعة والجماعة خلف البر ، فهذا اولى من فعلها خلف الفاجر ، وحينئذ ، فاذا صلى خلف الفاجر من غير عذر ، فهو موضع اجتهاد للعلماء ، منهم من قال : يعيد ، ومنهم من قال : لا يعيد .

واما الامام اذا نسي او اخطأ ، ولم يعلم المأموم بحاله ، فلا اعادة على المأموم ، للحديث المتقدم ، وقد صلى عمر رضي الله عنه وغيره وهو جُنُب ناسيا ، فاعاد الصلاة ، ولم يأمر المأمومين بالاعادة ، ولو علم ان امامه بعد فراغه كان على غير طهارة ، اعاد عند ابي حنيفة ، خلافا لمالك والشافعي واحمد في المشهور عنه . وكذلك لو فعل الامام ما لا يسوغ عند المأموم ، وفيه تفاصيل موضعها كتب الفروع . ولو علم ان امامه يصلي على غير وضوء فليس له ان يصلي خلفه ، لانه لاعِبٌ ، وليس بمُصَلٍّ .

وقد دلّت نصوص الكتاب والسُنة واجماع سلف الامة ان ولي الامر ، وامام الصلاة ، والحاكم ، واميرالحرب ، وعامل الصَدَقة : يُطاع في مواضع الاجتهاد ، وليس عليه ان يطيع اتباعه في موارد الاجتهاد ، بل عليهم طاعته في ذلك ، وترك رأيهم لرأيه ، فان مصلحة الجماعة والائتلاف ، ومفسدة الفرقة والاختلاف : اعظم من امر المسائل الجزئية ، ولهذا لم يَجزْ للحكام ان ينقض بعضهم حكم بعض ، والصواب المقطوع به : صحة صلاة بعض هؤلاء خلف بعض .

والحديث الذي رواه البخاري ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يُصَلّون لكم ، فان اصابوا فلكم ولهم ، وان اخطاوا فلكم وعليهم » : نص صحيح صريح في ان الامام اذا اخطأ فخطؤه عليه ، لا على المأموم ، والمجتهد غايته انه اخطأ بترك واجب اعتقد انه ليس واجبا ، او فَعَلَ محظورا اعتقد انه ليس محظورا ، ولا يحل لمن يؤمن بالله واليوم الآخر ان يخالف هذا الحديث الصريح الصحيح بعد ان يبلغه ، وهو حجة على من يُطلق من الحنفية والشافعية والحنبلية ان الامام اذا ترك ما يعتقد المأموم وجوبه : لم يصح الاقتداء به !! فان الاجتماع والائتلاف مما يجب رعايته وترك الخلاف المفضي الى الفساد .

وقوله : « وعلى من مات منهم » : اي : ونرى الصلاة على من مات من الابرار والفجار ، وان كان يستثنى من هذا العموم : البُغاة وقطاع الطريق ، وكذا قاتل نفسه ، خلافا لابي يوسف ، لا الشهيد ، خلافا لمالك والشافعي رحمهما الله ، على ما عرف في موضعه ، لكن الشيخ انما ساق هذا لبيان أنّا لا نترك الصلاة على من مات من اهل البدع والفجور ، لا للعموم الكلي ، ولكن الكلام لاهل الاسلام قسمان : اما مؤمن ، واما منافق ، فمن علم نفاقه : لم تجز الصلاة عليه والاستغفار له ، ومن لم يعلم ذلك منه : صُلي عليه . فاذا علم شخص نفاق شخص : لم يصل هو عليه ، وصلى عليه من لم يَعلم نفاقه . وكان عمر رضي الله عنه لا يصلي على من لم يصل عليه حذيفة ، لأنه كان في غزوة تبوك قد عرف المنافقين ، وقد نهى الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة على المنافقين ، واخبر انه لا يغفر لهم باستغفاره ، وعلّل ذلك بكفرهم بالله ورسوله ، فمن كان مؤمنا بالله ورسوله : لم ينه عن الصلاة عليه ، ولو كان له من الذنوب الاعتقادية البدعية او العملية الفجورية ما له ، بل قد امره الله تعالى بالاستغفار للمؤمنين ، فقال تعالى :

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ) ١٩/محمد .

فالتوحيد اصل الدين ،والاستغفار عام وخاص ،اما العام فظاهر، كما في هذه الآية ، واما الخاص : فالصلاة على الميت ، فما من مؤمن يموت الا وقد امر

المؤمنون ان يصلوا عليه صلاة الجنازة ، وهم مأمورون في صلاتهم عليه ان يدعوا له ، كما روى ابو داود وابن ماجة عن ابي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « **اذا صليتم على الميت فاخلصوا له الدعاء** » .

● **قال : (ولا نُنَزِّلُ احداً منهم جنة ولا نارا) .**

ويريد بذلك انا لا نقول عن احد معين من اهل القبلة انه من اهل الجنة أو من أهل النار ، الا من اخبر الصادق صلى الله عليه وسلم انه من اهل الجنة ، كالعشرة رضي الله عنهم ، وان كنا نقول : انه لا بد ان يدخل النار من اهل الكبائر من يشاء الله ادخاله النار ، ثم يخرج منها بشفاعة الشافعين ، ولكنا نقف في الشخص المعيّن ، فلا نشهد له بجنة ولا نار ، الا عن علم ، لأن الحقيقة باطنة ، والحال التي يموت عليها كل شخص لا نحيط بها ، لكن نرجو للمحسنين ، ونخاف على المسيء .

وقد يشهد بالجنة لمن شهد له المؤمنون ، كما في الصحيحين انه : « **مُرَّ بجنازة ، فاثنوا عليها بخير ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : وَجَبَت . ومرّ باخرى ، فأُثنِيَ عليها بشرٌ ، فقال : وَجَبَت** » وفي رواية انه كرر « وَجَبَت » ثلاث مرات ، « **فقالَ عمر : يا رسول الله : ما وَجَبت ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا اثنيتم عليه خيراً وجبت له الجنة ، وهذا اثنيتم عليه شراً وجبت له النار ، انتم شهداء الله في الارض** » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « **توشكون ان تعلموا اهل الجنة من اهل النار . قالوا : بِمَ يا رسول الله ؟ قال : بالثناء الحسن والثناء السيء** » فاخبر ان ذلك مما يُعلم به اهل الجنة واهل النار .

● **قال : (ولا نشهد عليهم بكفر ولا بشرك ولا بنفاق ، ما لم يظهر منهم شيء من ذلك ، ونَذَرُ سرائرهم الى الله تعالى).**

لأنا قد أُمِرنا بالحكم بالظاهر ، ونهينا عن الظن واتباع ما ليس لنا به علم . قال تعالى :

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ) ١٢ / الحجرات .

● **قال : (ولا نرى القتل على احد من امة محمد صلى الله عليه وسلم ، إلا مَن وَجَبَ عليه السيف) .**

ففي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « **لا يحل دم امرىء مسلم يشهد ان لا اله الا الله واني رسول الله الا باحدى ثلاث :**

الثيّب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » .

● قال : (ولا نرى الخروج على ائمتنا وولاة امورنا ، وان جاروا ، ولا ندعو عليهم ، ولا ننزع يدا من طاعتهم ، ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة ، ما لم يأمروا بمعصية ، وندعو لهم بالصلاح والمعافاة) .

وذلك لقوله تعالى :

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ) ٥٩/ النساء .

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال . « **من اطاعني فقد اطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله . ومن يطع الامير فقد اطاعني ، ومن عصى الامير فقد عصاني** » .

وعن ابي ذر رضي الله عنه : « **ان خليلي اوصاني ان اسمع واطيع وان كان عبدا حبشيا مجدع الاطراف** » .

وفي الصحيحين : « **على المرء المسلم السمع والطاعة فيما احب وكره ، الا ان يؤمر بمعصية ، فان امر بمعصية فلا سمع ولا طاعة** » .

وعن عوف بن مالك رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « **خيار ائمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ، وتصلون عليهم ويصلون عليكم وشرار ائمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم . فقلنا : يا رسول الله ، افلا ننابذهم بالسيف عند ذلك ؟ قال : لا ، ما اقاموا فيكم الصلاة ، الا من ولي عليه وال ؛ فرآه يأتي شيئا من معصية الله ، فليكره ما يأتي من معصية الله ، ولا ينزع يدا من طاعة** » .

فقد دلّ الكتاب والسنة على وجوب طاعة اولي الامر ، ما لم يأمروا بمعصية .

وتأمّل قوله تعالى : (اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم) كيف قال : واطيعوا الرسول ، ولم يقل : واطيعوا اولي الامر منكم !! لأن اولي الامر لا يفردون بالطاعة ، بل يُطاعون فيما هو طاعة لله ورسوله .

واما لزوم طاعتهم وان جاروا فلأنه يترتب على الخروج من طاعتهم من المفاسد اضعاف ما يحصل من جَورهم ، بل في الصبر على جورهم تكفير السيئات ومضاعفة الاجور ، فان الله تعالى ما سلطهم علينا الا لفساد اعمالنا ،

والجزاء من جنس العمل ، فعلينا الاجتهاد بالاستغفار والتوبة واصلاح العمل[1] .

● **قال : (ونتبع السنة والجماعة ، ونجتنب الشذوذ والخلاف والفُرقة) .**

والسنة : طريقة الرسول صلى الله عليه وسلم . والجماعة : المسلمون ، وهم الصحابة والتابعون لهم باحسان الى يوم الدين ، فاتباعهم هدى ، وخلافهم ضلال .

وثبت في السنن الحديث الذي صححه الترمذي ، عن العِرباض بن سارية قال : وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة بليغة ذَرفت منها العيون ، ووَجِلت منها القلوب ، فقال قائل : يا رسول الله ، كأن هذه مُوعظة مُوَدِّع ؟ فماذاَ تعهد الينا ؟ قال : « **اوصيكم بالسمع والطاعة ، فانه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، تمسكوا بها ، وعضّوا عليها بالنواجِذ ، واياكم ومُحْدَثات الامور ، فان كل بدعة ضلالة** » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « **ان اهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين مِلّة ، وان هذه الامة ستفترق على ثلاثة وسبعين ملة ، يعني : الأهواء ، كلها في النار الا واحدة، وهي الجماعة** » وفي رواية : قالوا : من هي يا رسول الله ؟ قال : « **ما انا عليه واصحابي** » . فبين صلى الله عليه وسلم ان عامة المختلفين هالكون من الجانبين ، الا اهل السنة والجماعة .

وما احسن قول عبدالله بن مسعود رضي الله عنه حيث قال : مَن كان منكم مُسْتَنّاً فليستنّ بمن قد مات ، فان الحي لا تؤمن عليه الفتنة . اولئك اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، كانوا افضل هذه الامة ، ابرّها قلوبا ، واعمقها علما ، واقلها تكلّفا . قوم اختارهم الله لصحبة نبيه واقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم في آثارهم ، وتمسكوا بما استطعتم من اخلاقهم ودينهم ، فانهم كانوا على الهدى المستقيم .

---

(١) هذا في الحاكم المسلم الذي يحكم بالشريعة ولكن فيه نوع ظلم ، اذا جاء الى الحكم ببيعة شرعية ، اهل الحل والعقد ، واما الذي تحل قوانينه الحرام وتحرم الحلال فان هذه النصوص لا تشمله ، بل يشمله قاله الطحاوي والشارح آنفا فيمن لا يحكم بما انزل الله .

● **قال الطحاوي : (ونحب اهل العدل والامانة ، ونبغض اهل الجور والخيانة) .**

وهذا من كمال الايمان وتمام العبودية ، فان العبادة تتضمن كمال المحبة ونهايتها ، وكمال الذل ونهايته . فمحبة رسل الله وانبيائه وعباده المؤمنين من محبة الله ، وان كانت المحبة لا يستحقها غيره ، فغير الله يُحَب في الله ، لا مع الله ، فان المحب يحب ما يحب محبوبه ، ويبغض ما يبغض ، ويوالي من يواليه ، ويعادي من يعاديه ، ويرضى لرضائه ، ويغضب لغضبه ، ويأمر بما يأمر به ، وينهى عما ينهى عنه ، فهو موافق لمحبوبه في كل حال . والله تعالى يحب المحسنين ، ويحب المتقين ، ويحب التوابين ، ويحب المتطهرين ، ونحن نحب من يحبه الله ، والله لا يحب الخائنين ، ولا يحب المفسدين ، ولا يحب المستكبرين ، ونحن لا نحبهم ايضا ، ونبغضهم ، موافقة له سبحانه وتعالى .

● **قال رحمه الله : (ونقول : « الله اعلم » فيما اشتبه علينا عامه) .**

وقد تقدم في كلام الشيخ رحمه الله انه ما سلم في دينه الا مَن سلّم لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وردّ علم ما اشتبه عليه الى عالمه .

وقال تعالى :

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) ٣٣/الاعراف .

وقد امر الله نبيّه صلى الله عليه وسلم ان يَرُد علم ما لم يعلم اليه ، فقال تعالى : (قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) ٢٦/الكهف .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لما سئل عن اطفال المشركين « **الله اعلم بما كانوا عاملين** ».

● **قال : (ونرى المسح على الخُفَّين ، في السفر والحَضَر ، كما جاء في الاثر).**

فقد تواترت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسح على الخفين ، وبغسل الرجلين ، والرافضة تخالف هذه السنة المتواترة .

وفي آية الوضوء قراءتان مشهورتان : النصب والخفض ،

وتوجيه اعرابهما مبسوط في موضعه ، وقراءة النصب نص في وجوب الغَسل ، لأن العطف على المحل انما يكون اذا كان المعنى واحدا .

● قال : (والحج والجهاد ماضيان مع اولي الامر من المسلمين ، بَرِّهم وفاجرهم ، الى قيام الساعة ، لا يبطلها شيء ولا ينقضها) .

لأن الحج والجهاد فرضان يتعلقان بالسفر ، فلا بد من سائس يسوس فيهما ، ويقاوم فيها هذا العدو ، وهذا المعنى كما يحصل بالامام البَر : يحصل بالامام الفاجر .

● قال : (ونؤمن بالكرام الكاتبين ، فان الله قد جعلهم علينا حافظين) .

فقد قال تعالى : (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ⑩ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ⑪ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ) ١٠ و١١ و١٢/ الانفطار .

وقال سبحانه : (إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ⑰ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) ١٧ و١٨/ق .

وقال عز وجل : (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) ٨٠/ الزخرف .

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر ، فيصعد اليه الذين كانوا فيكم ، فيسألهم ــ والله اعلم بهم ــ: كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : اتيناهم وهم يصلون ، وفارقناهم وهم يصلون** » .

وقد ثبت بالنصوص المذكورة ان الملائكة تكتب القول والفعل ، وكذلك النية ، لانها فعل القلب ، فدخلت في عموم (يعلمون ما تفعلون) . ويشهد لذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : « **قال الله عز وجل : اذا هَمَّ عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه ، فان عملها فاكتبوها عليه سيئة . واذا هَمَّ عبدي بحسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة ، فان عملها فاكتبوها عشرا** » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **قالت الملائكة : ذاك عبد يريد ان يعمل سيئة ، وهو ابصر به . فقال : ارقبُوه ، فان عملها فاكتبوها بمثلها ، وان تركها فاكتبوها له حسنة ، انما تركها من جرائي** » . خرجاهما في الصحيحين ، واللفظ لمسلم .

● قال : (ونؤمن بمَلَك الموت ، الموكل بقبض ارواح العالمين) .

فقد قال تعالى
(قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ) ١١/السجدة .
ولا تعارض هذه الآية قوله تعالى
(حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ) ٦١/الانعام
ولا قوله تعالى: (ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى) ٤٢/الزمر .

لأن ملك الموت يتولى قبضها واستخراجها ، ثم تأخذها منه ملائكة الرحمة او ملائكة العذاب ويتولونها بعده ، كل ذلك باذن الله وقضائه وقدره ، وحكمه وامره . فصحت اضافة التوفي الى كل بحسبه .

● قال ابو جعفر : (وبعذاب القبر لمن كان له اهلا ، وسؤال منكر ونكير في قبره عن ربه ودينه ونبيه ، على ما جاءت به الاخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن الصحابة رضوان الله عليهم . والقبر روضة من رياض الجنة ، او حفرة من حفر النيران) .

ومصداق ذلك ما رواه البخاري رحمه الله عن انس رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « العبد اذا وُضع في قبره وتُوُلِّي وذهب اصحابه حتى انه ليسمع قَرعَ نعالهم : اتاه مَلَكان فاقعداه فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل ، محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فيقول : اشهد انه عبدالله ورسوله ، فيقال : انظر الى مقعدك من النار ابدلك الله به مقعدا من الجنة . قال النبي صلى الله عليه وسلم : فيراهما جميعا . واما الكافر – او المنافق – فيقول : لا ادري ، كنت اقول ما يقول الناس . فيقال : لا دريتَ ولا تليتَ . ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين اذنيه ، فيصيح صيحة يسمعها مَن يليه ، الا الثقلين » .

وقال قتادة روي لنا انه يفسح له في قبره
وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم « انه مرّ بقبرين يعذبان ، فقال : انهما ليعذبان ، وما يعذبان في كبير . اما احدهما فكان لا يستتر من البول ، واما الآخر فكان يمشي بالنميمة . ثم اخذ جَريدة رَطبة ، فشقها بنصفين ، ثم غرز في كل قبر واحدة ، فقالوا : يا رسول الله ، لم صنعت هذا ؟ فقال : لعله أن يُخفف عنهما ما لم ييبسا » .

وقد تواترت الاخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثبوت عذاب

القبر ونعيمه لمن كان لذلك اهلا ، وسؤال الملكين ، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والايمان به ، ولا يتكلم عن كيفيته ، اذ ليس للعقل وقوف على كيفيته ، لكونه لا عهد له به في هذا الدار ، والشرع لا يأتي بما تحيله العقول ، ولكنه قد يأتي بما تحار فيه العقول ، فان عود الروح الى الجسد ليس على الوجه المعهود في الدنيا ، بل تعاد الروح اليه اعادة غير الاعادة المألوفة في الدنيا .

وليس السؤال في القبر للروح وحدها ، كما قال ابن حزم وغيره ، وافسد منه قول من قال : انه للبدن بلا روح ، والاحاديث الصحيحة ترد القولين ، وكذلك عذاب القبر يكون للنفس والبدن جميعا ، باتفاق اهل السنة والجماعة ، تنعم النفس وتعذب مفردة عن البدن ومتصلة به .

واعلم ان عذاب القبر هو عذاب البرزخ ، فكل من مات وهو مستحق للعذاب : ناله نصيب منه ، قُبِرَ او لم يُقبر ، اكلته السباع او احترق حتى صار رمادا ونسف في الهواء ، او صُلب او غرق في البحر ، وصل الى روحه وبدنه من العذاب ما يصل الى المقبور ، وما ورد من اجلاسه واختلاف اضلاعه ونحو ذلك فيجب ان يفهم عن الرسول صلى الله عليه وسلم مراده عن غير غلوٍّ ولا تقصير ، فلا يُحَمَّل كلامه ما لا يحتمله ، ولا يقصر به عن مراد ما قصده من الهدى والبيان ، فكم حصل باهمال ذلك والعدول عنه من الضلال والعدول عن الصواب ما لا يعلمه الا الله ، بل سوء الفهم عن الله ورسوله اصل كل بدعة وضلالة نشأت في الإسلام ، وهو اصل كل خطأ في الفروع والاصول ، ولا سيما ان اضيف اليه سوء القصد ، والله المستعان .

فالحاصل : ان الدُور ثلاث : دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار . وقد جعل الله لكل دار احكاما تخصها ، وركب هذا الانسان من بدن ونفس ، وجعل احكام الدنيا على الابدان ، والارواح تبع لها . وجعل احكام البرزخ على الارواح ، والابدان تبع لها . فاذا جاء يوم حشر الاجساد وقيام الناس من قبورهم . صار الحكم والنعيم والعذاب على الارواح والاجساد جميعا . فاذا تأملت هذا المعنى حق التأمل : ظهر لك ان كون القبر روضة من رياض الجنة او حفرة من حفر النار · مطابق للعقل ، وانه حق لا مرية فيه ، وبذلك يتميز المؤمنون بالغيب من غيرهم .

ويجب ان يُعلم ان النار التي في القبر والنعيم ليست من جنس نار الدنيا ولا نعيمها ، وان كان الله تعالى يحمي عليه التراب والحجارة التي فوقه وتحته حتى تكون اعظم حرا من جمر الدنيا ، ولو مسها اهل الدنيا · لم يحسوا بها . بل اعجب من هذا ان الرجلين يُدفن احدهما الى جنب صاحبه ، وهذا في حفرة من النار ، وهذا في روضة من رياض الجنة ، لا يصل من هذا الى جاره شيء من

حر ناره ، ولا من هذا الى جاره شيء من نعيمه . وقدرة الله اوسع من ذلك واعجب ، ولكن النفوس مولعة بالتكذيب بما لم تحط به علما ، وقد ارانا الله في هذه الدار من عجائب قدرته ما هو ابلغ من هذا بكثير واذا شاء الله ان يطلع على ذلك بعض عباده : اطلعه وغيّبه عن غيره . ولو اطلع الله على ذلك العبادَ كلهم لزالت حكمة التكليف والايمان بالغيب ، ولما تدافن الناس ، كما في صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم : « **لولا ان لا تَدافنوا لدعوتُ الله ان يسمعكم من عذاب القبر** ».

وهل يدوم عذاب القبر او ينقطع ؟

جوابه : انه نوعان : منه ما هو دائم ، كما قال تعالى :

(ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ) ٤٦/غافر .

وكذا في حديث البراء بن عازب في قصة الكافر : « **ثم يفتح له باب الى النار فينظر الى مقعده فيها حتى تقوم الساعة** » . رواه الامام احمد .

والنوع الثاني : انه مدة ثم ينقطع ، وهو عذاب بعض العصاة الذين خفت جرائمهم .

وقد اختلف في مُستقرّ الارواح ما بين الموت الى قيام الساعة ، ويتلخص من مجموع الادلة ان الارواح في البرزخ متفاوتة اعظم تفاوت ، فمنها : ارواح في اعلى عليين ، في الملأ الاعلى ، وهي ارواح الانبياء صلوات الله عليهم وسلامه ، وهم متفاوتون في منازلهم . ومنها ارواح في حواصل طير خُضر ، تسرح في الجنة حيث شاءت ، وهي ارواح بعض الشهداء لا كلهم ، بل من الشهداء من تُحبس روحه عن دخول الجنة ، لدَين عليه ، كما في مسند احمد عن عبدالله بن جحش : « **ان رجلا جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله : مالي ان قُتلت في سبيل الله ؟ قال : الجنة . فلما وَلّى قال : الا الدَين ، سارّني به جبريل آنفا** » .

ومن الارواح من يكون محبوسا على باب الجنة ، كما في الحديث الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم «**رايت صاحبكم محبوسا على باب الجنة** » . ومنهم من يكون محبوسا في قبره ، ومنهم من يكون في الارض ، ومنها ارواح تكون في تَنّور الزُناة والزواني ، وارواح في نهر الدم تسبح فيه وتلقم الحجارة . كل ذلك تشهد له السنة ، والله اعلم .

وأما الشهداء فقد قال الله تعالى فيهم :

(وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) ١٦٩/آل عمران.

وه حياة اختصوا بها ، فان الله تعالى جعل ارواحهم في اجواف طير خضر ، كما في حديث ابن عباس انه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « **لما اصيب اخوانكم ـ يعني يوم احد ـ جعل الله ارواحهم في اجواف طير خضر ، ترد انهار الجنة ، وتاكل من ثمارها ، وتاوي الى قناديل من ذهب مظللة في ظل العرش** » . رواه الامام احمد وابو داود ، وبمعناه حديث آخر عن عبدالله بن مسعود في صحيح مسلم .

● **قال الطحاوي : (ونؤمن بالبعث وجزاء الاعمال يوم القيامة ، والعرض والحساب ، وقراءة الكتاب ، والثواب والعقاب . والصراط والميزان) .**

لأن الايمان بالمعاد مما دلّ عليه الكتاب والسنة ، والعقل والفطر السليمة ، فاخبر الله سبحانه في كتابه العزيز عنه ، واقام الدليل عليه ، ورد على المنكرين ، في غالب سور القرآن . وذلك ان الايمان بالرب عام في بني آدم ، وهو فطري ، بخلاف الايمان باليوم الآخر ، فان منكريه كثيرون ، ومحمد صلى الله عليه وسلم لما كان خاتم الانبياء ، وكان قد بعث عند اقتراب الساعة ، بيّن تفصيل الآخرة بياناً لا يوجد في شيء من كتب الانبياء .

والقرآن بيّن معاد النفس عند الموت ، ومعاد البدن عند القيامة الكبرى ، وزعم الفلاسفة ان الانبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم لم يخبروا بالآخرة ، وقد كذبوا ، فان القرآن ذكر معرفة الانبياء بالآخرة ، واولهم آدم عليه السلام ، اذ قال له ربه : (قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ) ٢٤/الاعراف .

وقال ابراهيم عليه السلام :

(وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ) ٨٢/الشعراء .

وقال موسى عليه السلام : (وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ) ١٥٦/الاعراف .

وقول الطحاوي : « وجزاء الاعمال » هو من قوله تعالى :

(جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) ١٧/السجدة .

وقوله تعالى : (مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) ٨٤/القصص.

وقوله « والعرض والحساب ، وقراءة الكتاب ، والثواب والعقاب » هو من قوله تعالى :

فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ) ١٥ ــ ٢٠/ الحاقة .

وروى البخاري رحمه الله في صحيحه عن عائشة ، ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **ليس احد يُحاسَب يوم القيامة الا هلك . فقلت : يا رسول الله : اليس قد قال الله تعالى : فاما مَن أُوتيَ كتابَه بيمينه فسوف يحاسَب حسابا يسيرا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : انما ذلك العرض ، وليس احد يُناقَش الحساب يوم القيام إلا عُذِب** » . يعني انه لو ناقش في حسابه لعبيده لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولكنه تعالى يعفو ويصفح .

وقوله « والصراط » اي ونؤمن بالصراط ، وهو جسر على جهنم ، اذا انتهى الناس بعد مفارقتهم مكان الموقف الى الظلمة التي دون الصراط ، كما قالت عائشة رضي الله عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل : « **اين الناس يوم تُبدّل الارض غير الارض والسموات ؟ فقال : هم في الظلمة دون الجسر** » .

وفي هذا الموضع يفترق المنافقون عن المؤمنين ، ويتخلفون عنهم ، ويسبقهم المؤمنون ، ويحال بينهم بسوْر يمنعهم من الوصول اليهم .

واختلف المفسرون في المراد بالورود المذكور في قوله تعالى . (وان منكم الا واردها) ما هو ؟

والاظهر والاقوى انه المرور على الصراط . قال تعالى :

(ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا) ٧٢/مريم .

وفي الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قال : « **والذي نفسي بيده : لا يَلج النارَ احدٌ بايعَ تحت الشجرة . قالت حفصة : فقلت يا رسول الله : اليس الله يقول : وان منكم الا واردها ؟ فقال الم تسمعيه قال : ثم نُنَجّي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جِثِيًّا ؟** » .

اشار صلى الله عليه وسلم الى ان ورود النار لا يستلزم دخولها ، وان النجاة من الشر لا تستلزم حصوله ، بل تستلزم انعقاد سببه ، فمن طلبه اعداؤه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه يقال نجاه الله منهم ، ولهذا قال تعالى : (ولما جاء امرنا نجينا هودا) وقال : (فلما جاء امرنا نجينا صالحا) وقال (ولما جاء امرنا نجينا شعيبا) ولم يكن العذاب اصابهم ، ولكن اصاب غيرهم . ولولا ما خصهم الله به من اسباب النجاة لاصابهم ما اصاب اولئك . وكذلك حال الوارد في النار ، يمرون فوقها على الصراط ، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جِثيا .

وقوله : « والميزان » اي ونؤمن بالميزان . قال تعالى .

(وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ) ٤٧/الانبياء .

وقال تعالى :

(فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ) ١٠٢و١٠٣/ المؤمنون.

قال القرطبي : قال العلماء : اذا انقضى الحساب كان بعده وزن الاعمال ، لأن الوزن للجزاء ، فينبغي ان يكون بعد المحاسبة ، فان المحاسبة لتقرير الاعمال ، والوزن لاظهار مقاديرها ، ليكون الجزاء بحسبها .

والذي دلّت عليه السُنّة . ان ميزان الاعمال له كفتان حسيتان مشاهدتان ، وان العامل يوزن مع عمله . ويشهد له ما روى البخاري عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **انه لياتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزنُ عند الله جناح بعوضة . قال : اقراوا ان شئتم : فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا** » .

وروى الامام احمد عن ابن مسعود انه كان يجني سواكا من الاراك ، وكان دقيق الساقين ، فجعلت الريح تكفؤه ، فضحك القوم منه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **مِمّ تضحكون ؟ قالوا : يا نبي الله : من دِقة ساقيه . فقال : والذي نفسي بيده لهما اثقل في الميزان من أُحُد** » .

وقد وردت الاحاديث ايضا بوزن الاعمال انفسها ، كما في صحيح مسلم عن ابي مالك الاشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **الطهور شطر الايمان ، والحمد لله تملأ الميزان** » .

وفي الصحيح ــ وهو خاتمة كتاب البخاري ــ قوله صلى الله عليه وسلم : « **كلمتان خفيفتان على اللسان ، حبيبتان الى الرحمن ، ثقيلتان في الميزان : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم** » .

فلا يُلتفت الى ملحد معاند يقول : الاعمال اعراض لا تقبل الوزن ، وانما يقبل الوزنَ الاجسام !! فان الله يقلب الاعراض اجساما ، كما تقدم .

فعلينا الايمان بالغيب ، كما اخبرنا الصادق صلى الله عليه وسلم ، من غير زيادة ولا نقصان .

● **قال الامام ابو جعفر الطحاوي : (والجنة والنار مخلوقتان ، لا تفنيان ابدا ولا تبيدان ، فان الله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق ، وخلق لهما اهلا ، فمَن شاء منهم الى الجنة فضلا منه ، ومَن شاء منهم الى النار عدلاً منه ، وكلٌ يعمل لما قد فرغ له ، وصائر الى ما خُلِق له ، والخير والشر مُقدّران على العباد) .**

اما قوله « والجنة والنار مخلوقتان » فاتفق اهل السنة على ان الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن ، ولم يزل على ذلك اهل السنة ، حتى نبغت نابغة من المعتزلة والقدرية ، فانكرت ذلك ، وقالت بل ينشئهما الله يوم القيامة '' وحملهم على ذلك اصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة لما يفعله الله ، وانه ينبغي ان يفعل كذا ، ولا ينبغي ان يفعل كذا '' وقاسوه على خلقه في افعالهم . فهم مشبهة في الافعال ، ودخل التجهم فيهم ، فصاروا مع ذلك مُعَطِلة . وقالوا خلقُ الجنةِ قبل الجزاء عَبَث ' لانها تصير مُعَطّلة مُددا متطاولة '' فردوا من النصوص ما خالف هذه الشريعة الباطلة التي وضعوها للرب تعالى ، وحرفوا النصوص عن مواضعها ، وضللوا من خالف شريعتهم

فمن نصوص الكتاب قوله تعالى عن الجنة (أُعدت للمتقين) وعن النار (اعدت للكافرين)

وقال تعالى

(ولقد رآه نزلة أخرى (١٣) عند سدرة المنتهى (١٤) عندها جنة المأوى) ١٢ ــ ١٥ / النجم

وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم سدرة المنتهى ، ورأى عندها جنة المأوى . كما في الصحيحين ، في حديث انس رضي الله عنه في قصة الاسراء ، وفي آخره « **ثم انطلق بي جبرائيل حتى اتى سِدرة المنتهى ، فغشيها الوان لا ادري ما هي . قال : ثم دخلت الجنة ، فاذا هي جنابذ اللؤلؤ ، واذا ترابها المسك** » .

واما شُبهة من قال انها لم تخلق بعد وهي انها لو كانت مخلوقة الآن لوجب اضطرارا ان تفنى يوم القيامة وان يهلك كل من فيها ويموت . لقوله تعالى (كل شيء هالك الا وجهه) وقد قال تعالى عن امراة فرعون انها قالت (رب ابن لي عندك بيتا في الجنة) فالجواب انكم ان اردتم بقولكم انها الآن معدومة بمنزلة النفخ في الصور وقيام الناس من القبور فهذا باطل . يرده ما تقدم من الادلة وامثالها مما لم يذكر وان اردتم انها لم يكمل خلق جميع ما اعدّ الله فيها لاهلها وانها لا يزال الله يُحدث فيها شيئا بعد شيء واذا دخلها المؤمنون احدث الله فيها عند دخولهم امورا اخرى فهذا حق لا يمكن ردّه .

وادلتكم هذه انما تدل على هذا القدر . واما احتجاجكم بقوله تعالى : (كل شيء هالك الا وجهه) فاثبتم سوء فهمكم معنى الآية ، واحتجاجكم بها على عدم وجود الجنة والنار الآن ، نظير احتجاج اخوانكم بها على فنائهما وخرابهما وموت اهلهما !! فلم توفقوا انتم ولا اخوانكم لفهم معنى الآية ، وانما وُفق لذلك ائمة الاسلام . فمن كلامهم : ان المراد « كل شيء » مما كتب الله عليه الفناء والهلاك « هالك » والجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء ، وكذا العرش ، فانه سقف الجنة ، والنصوص محكمة دالة على بقاء الجنة وعلى بقاء النار ايضا .

وقوله : « لا تفنيان ابدا ولا تبيدان » : هذا قول جمهور الائمة من السَلَف والخَلَف . وقال ببقاء الجنة وقال بفناء النار جماعة من السلف والخلف ، والقولان مذكوران في كثير من كتب التفسير وغيرها . وقال بفناء الجنة والنار الجَهم بن صفوان امام المعطِّلة ، وليس له سلف قط ، لا من الصحابة ولا من التابعين لهم باحسان ، ولا من أئمة المسلمين ، ولا من اهل السنة ، وكفّروه به ، وصاحوا به .

فاما ابَدُية الجنة ، وانها لا تفنى ولا تبيد ، فهذا مما يُعلم بالضرورة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اخبر به .

قال تعالى : (إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ) ٥٤/ص

وقال سبحانه : (أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا) ٣٥/ الرعد .

والادلة من السنة على ابدية الجنة ودوامها كثيرة ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « **ينادي مناد : يا اهل الجنة : ان لكم ان تصحّوا فلا تسقموا ابدا ، وان تشبّوا فلا تهرموا ابدا ، وان تحيوا فلا تموتوا ابدا** » .

واما ابدية النار ودوامها فللناس في ذلك اقوال ، والقول بفناء النار دون الجنة منقول عن عمر ، وابن مسعود ، وابي هريرة ، وابي سعيد الخدري ، وغيرهم ، قالوا : والنار موجب غضبه ، والجنة موجب رحمته ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « **لما قضى الله الخلق كتب كتابا ، فهو عنده فوق العرش : ان رحمتي سبقت غضبي** » . رواه البخاري قالوا : والله سبحانه يخبر عن العذاب انه عذاب يوم عظيم ، واليم ، وعقيم ، ولم يخبر ولا في موضع واحد عن النعيم انه نعيم يوم وقد قال تعالى : (عذابي اصيب به مَن اشاء ، ورحمتي وَسِعت كل شيء) فلا بد ان تَسَع رحمته هؤلاء المعذبين ، فلو بقوا في العذاب لا الى غاية : لم تسعهم رحمته ، وليس في حكمة احكم الحاكمين ، ان يخلق خلقا يعذبهم ابد الآباد ، واما انه يخلق خلقا ينعم اليهم ويحسن اليهم نعيما سرمدا فمن مقتضى الحكمة . قالوا : وما ورد من الخلود فيها وعدم الخروج : كله حق

لا نزاع فيه . وذلك يقتضي الخلود في دار العذاب ما دامت باقية ، وانما يخرج منها في حال بقائها اهل التوحيد ، ففرق بين من يخرج من الحبس وهو حبس على حاله ، وبين من يبطل حبسه بخراب الحبس .

ومن ادلة القائلين ببقائها وعدم فنائها قوله : (ولهم عذاب مقيم) (خالدين فيها ابدا) . وقد دلت السنة انه يخرج من النار من قال : لا اله الا الله ، واحاديث الشفاعة صريحة في خروج عصاة الموحدين من النار ، وان هذا حكم مختص بهم ، فلو خرج الكفار منها لكانوا بمنزلتهم .

وقول الطحاوي « وخلق لهما اهلا » هو من قوله تعالى :
(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ) ١٧٩/الاعراف .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « **ان الله خلق للجنة اهلا ، خلقهم لها وهم في اصلاب ابائهم ، وخلق للنار اهلا ، خلقهم لها وهم في اصلاب ابائهم** » . رواه مسلم وابو داود .

واما قوله : « فمَن شاء منهم الى الجنة فضلا منه ، ومن شاء منهم الى النار عدلا منه » فان مما يجب ان يعلم : ان الله تعالى لا يمنع الثواب الا اذا منع سببه ، وهو العمل الصالح ، فانه:
(مَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا) ١١٢/طه .

وكذلك لا يعاقب احدا الا بعد حصول سبب العقاب ، فان الله تعالى يقول (وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ) ٣٠/الشورى .

وهو سبحانه المعطي المانع ، لا مانع لما اعطى ، ولا معطي لما منع ، لكن اذا مَنَّ على الانسان بالايمان والعمل الصالح فلا يمنعه موجب ذلك اصلا ، بل يعطيه من الثواب والقُرَب ما لا عَين رأت ولا اذن سمعت ، وحيث منعه ذلك فلانتفاء سببه ، وهو العمل الصالح ، ولا ريب انه يهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، لكنْ ذلك كله حكمةٌ منه وعدل ، فمنعه للاسباب التي هي الاعمال الصالحة من حكمته وعدله ، واما المسببات بعد وجود اسبابها فلا يمنعها بحال اذا لم تكن اسبابا غير صالحة ، اما لفساد في العمل ، واما لسبب يعارض موجبه ومقتضاه ، فيكون ذلك لعدم المقتضى ، او لوجود المانع ، واذا كان منعه وعقوبته من عدم الايمان والعمل الصالح ، وهو لم يعط ذلك ابتلاء وابتداء الا حكمة منه وعدلا ، فله الحمد في الحالين ، وهو المحمود على كل حال ، كل عطاء منه فضل ، وكل عقوبة منه عدل ، فان الله تعالى حكيم يضع الاشياء في مواضعها التي تصلح لها ، كما قال تعالى .

(وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ) ١٢٤/الانعام .

● **قال الطحاوي : (الاستطاعة التي يجب بها الفعل من نحو التوفيق الذي لا يجوز ان يوصَف المخلوق به ـ: تكون مع الفعل . واما الاستطاعة من جهة الصحة والوُسْع ، والتمكن وسلامة الآلات ، فهي قبل الفعل ، وبها يتعلق الخطاب ، وهو كما قال تعالى : لا يُكلف اللهُ نفساً الا وُسعها) .**

الاستطاعة والطاقة والقدرة والوسع الفاظ متقاربة ، وتنقسم الاستطاعة الى قسمين ، كما ذكره الشيخ رحمه الله ، وهو قول عامة اهل السنة ، وهو الوسط ، وقالت القَدَرية والمعتزلة ، لا تكون القدرة الا قبل الفعل ، وقابلهم طائفة من اهل السنة فقالوا لا تكون الا مع الفعل .

والذي قاله عامةُ اهل السنة ان للعبد قدرةً هي مناط الامر والنهي ، وهذه قد تكون قبله ، لا يجب ان تكون معه ، والقدرة التي بها الفعل لا بد ان تكون مع الفعل ، لا يجوز ان يوجد الفعل بقدرة معدومة .

واما القدرة التي من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلات فقد تتقدم الافعال ، وهذه القدرة المذكورة في قوله تعالى

(وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا) ٩٧/آل عمران

فاوجبَ الحجَ على المستطيع ، فلو لم يستطع الا من حج لم يكن الحج قد وجب الا على من حجَ ، ولم يعاقب احدا على ترك الحج ، وهذا خلاف المعلوم بالضرورة من دين الاسلام .

وكذا قوله تعالى : (فمن لم يستطع فاطعام ستين مسكينا) والمراد منه استطاعة الاسباب والآلات .

واما ثبوت الاستطاعة التي هي حقيقة القدرة ، فقد ذكروا فيها قوله تعالى : (مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ) ٢٠/هود .

والمراد في هذه الآية : نفي حقيقة القدرة ، لا نفي الاسباب والآلات لأنها كانت ثابتة .

وكذلك قول صاحب موسى

(إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا) ٦٧/الكهف .

اذ المراد ، حقيقة قدرة الصبر ، لا أسباب الصبر وآلاته فان تلك كانت ثابتة له .

والقدرية يقولون ان اقدار الله للمؤمن والكافر سواء ولا يقولون : ان اللـه خص المؤمن المطيع باعانة حصل بها الايمان ، بل هذا بنفسه رَجّح الطاعة ، وهذا بنفسه رجح المعصية ، كالوالد الذي اعطى كل واحد من بنيه سيفاً ، فهذا جاهد به في سبيل الله ، وهذا قطع به الطريق .

وهذا القول فاسد باتفاق اهل السنة والجماعة المثبتين للقَدَر ، فانهم متفقون على ان لله على عبده المطيع نعمةً دينية ، خصّه بها دون الكافر ، وانه اعانه على الطاعة اعانة لم يعن بها الكافر ، كما قال تعالى :

(وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ) ٧/ الحجرات .

وقال تعالى

(فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ)١٢٥/ الانعام.

● قال ابو جعفر رحمه الله : (وافعال العباد هي خلق الله وكسبٌ من العباد) .

وقال الشارح القاضي ابن ابي العِز الاذرُعي . اختلف الناس في افعال العباد الاختيارية ، فزعمت الجبرية ـ ورئيسهم الجهم بن صفوان ـ ان التدبير في افعال الخلق كلها لله تعالى ، وهي كلها اضطرارية ، كحركات المرتعِش ، والعروق النابضة ، وحركات الاشجار ، واضافتها الى الخلق مجاز ، وهي على حسب ما يضاف الشيء الى محله دون ما يضاف الى محصله ! وقابلتهم المعتزلة ، فقالوا ان جميع الافعال الاختيارية من جميع الحيوانات بخَلْقِها ، لا تَعلّقَ لها بخلق الله لها ، واختلفوا فيما بينهم . ان الله يقدر على افعال العباد ام لا ؟

وقال اهل الحق افعال العباد بها صاروا مطيعين وعصاة ، وهي مخلوقة لله تعالى ، والحق سبحانه وتعالى منفرد بخلق المخلوقات ، لا خالق لها سواه . فالجبرية غلوا في اثبات القدر ، فنفوا صنع العبد اصلا ، كما عملت المشبهة في اثبات الصفات ، فشبهوا . والقَدَرية نُفاة القَدَر جعلوا العباد خالقين مع الله تعالى ، ولهذا كانوا : « مجوس هذه الامة » بل اردأ من المجوس ، من حيث ان المجوس اثبتوا خالقَين ، وهم اثبتوا خالقِين !! وهدى الله المؤمنين اهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق باذنه ، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم ، فكل دليل صحيح تقيمه الجَبْرية فانما يدل على ان الله خالق كل شيء ، وانه على كل شيء قدير ، وان افعال العباد من جملة مخلوقاته ، وانه ما شاء الله كان وما

لم يشأ لم يكن ولا يدل على ان العبد ليس بفاعل في الحقيقة ولا مريد ولا مختار ، وان حركاته الاختيارية بمنزلة حركة المرتعش وهبوب الرياح . وكل دليل يقيمه القَدَري فانما يدل على ان العبد فاعل لفعله حقيقة ، وانه مريدٌ له مختارٌ له حقيقةً ، وان اضافته ونسبته اليه اضافة حق ، ولا يدل على انه غير مقدور لله تعالى وانه واقع بغير مشيئته وقدرته . فاذا ضممت ما مع كل طائفة منهما من الحق الى حق الاخرى : فانما يدل ذلك على ما دلّ عليه القرآن وسائر كتب الله المنزلة ، من عموم قدرة الله ومشيئته لجميع ما في الكون من الاعيان والافعال ، وان العباد فاعلون لافعالهم حقيقة ، وانهم يستوجبون عليها المدح والذم .

وهذا هو الواقع في نفس الامر ، فان ادلة الحق لا تتعارض ، والحق يُصدِّق بعضه بعضا . ويضيق هذا المختصر عن ذكر ادلة الفريقين ، ولكنها تتكافأ ، وتتساقط ، ويُستفاد من دليل كل فريق بطلانَ قول الآخرين ، ولكن أذكرُ شيئا مما استَدَلّ به كل من الفريقين ، ثم أبيّن انه لا يدل على ما استُدِلَّ عليه من الباطل .

فمما استدلت به الجبرية : قوله تعالى :

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ) ١٧/الانفال .

فنفى الله عن نبيه الرمي ، واثبته لنفسه سبحانه ، فدل على انه لا صنع للعبد . قالوا : والجزاء غير مُرَتَّب على الاعمال ، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم : « **لن يدخل احدٌ الجنةَ بعمله . قالوا : ولا انت يا رسول الله ؟ قال : ولا انا ، الا ان يتغمدني الله برحمة منه وفضل** » .

ومما استدل به القدرية : قوله تعالى :

(فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ) ١٤/المؤمنون .

قالوا : والجزاء مرتب على الاعمال ترتب العوض ، كما قال تعالى :

(وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) ٧٢/الزخرف .

فأما ما استدلت به الجبرية من قوله تعالى : وما رميت اذ رميت ، فهو دليل عليهم ، لأنه تعالى اثبت لرسوله صلى الله عليه وسلم رميا ، بقوله : اذ رميت ، فعُلِم ان المثبَتَ غير المنفي ، وذلك ان الرمي له ابتداءٌ وانتهاء ، فابتداؤه : الحذف ، وانتهاؤه : الاصابة ، وكل منهما يسمى رميا ، فالمعنى حينئذ ــ والله تعالى اعلم ــ: وما اصبت اذ حذفت ولكن الله اصاب ، والا فطَرْدُ قولهم : وما صليتَ اذ صليت ولكن الله صلى ، وما صمت اذ صمت ، وفساد هذا ظاهر .

واما ترتيب الجزاء على الاعمال فقد ضلت فيه الجبرية والقدرية ، وهدى الله اهل السنة ،.وله الحمد والمِنّة ، فان الباء التي في النفي غير الباء التي في الاثبات ، فالمنفي في قوله صلى الله عليه وسلم : لن يدخل الجنة احد بعمله : باء العوَض ، وهو ان يكون العمل كالثمن لدخول الرجل الجنة ، كما زعمت المعتزلة ان العامل يستحق دخول الجنة على ربه بعمله ! بل ذلك برحمة الله وفضله . والباء التي في قوله تعالى : بما كنتم تعملون : باء السبب ، اي بسبب عملكم ، والله تعالى خالق الاسباب والمسببات ، فرجع الكل الى محض فضل الله ورحمته .

واما استدلال المعتزلة بقوله تعالى : (فتبارك الله احسن الخالقين) فمعنى الآية : احسن المصورين المقدرين ، و « الخلق » يذكر ويراد به التقدير ، وهو المراد هنا ، بدليل قوله تعالى : (الله خالق كل شيء) اي الله خالق كل شيء مخلوق ، قد خلق افعال العباد في عموم « كل » .

واعلم انه لا منافاة بين كون العبد مُحْدِثاً لفعله ، وكون هذا الاحداث وَجَب وجوده بمشيئة الله تعالى ، كما قال تعالى :

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا) ٧ و٨/ الشمس .

ففيها اثبات للقدر بقوله : فألهمها ، واثبات لفعل العبد باضافة الفجور والتقوى الى نفسه ، ليعلم انها هي الفاجرة والمتقية .

وهذه شُبهة اخرى من شُبهِ القوم التي فرّقتهم ، بل مزّقتهم كل مُمَزَّق ، وهي : انهم قالوا : كيف يستقيم الحكم على قولكم بان الله يعذب المكلّفين على ذنوبهم وهو خلقها فيهم ؟ فاين العدل في تعذيبهم على ما هو خالقه وفاعله فيهم ؟.

وهذا السؤال لم يزل مطروقا على السنة الناس ، وكل منهم يتكلم في جوابه بحسب علمه ومعرفته ، وعنه تفرقت بهم الطرق . فطائفة اخرجت افعالهم عن قدرة الله تعالى ، وطائفة انكرت التعليل وسدت باب السؤال ، وطائفة التزمت الجبر وان الله يعذبهم على ما لا يقدرون عليه .

والجواب الصحيح ان يُقال : ان ما يبتلى به العبد من الذنوب الوجودية ــ وان كانت خلقا لله تعالى ــ فهي عقوبة له على ذنوب قبلها ، فالذنب يكسب الذنب ، ومن عقاب السيئة : السيئةُ بعدَها ، فالذنوب كالامراض يورث بعضها بعضا . يبقى ان يقال : فالكلام في الذنب الاول الجالب لما بعده من الذنوب ؟

يقال : هو عقوبة ايضا على عدم فعل ما خلق له وفُطِر عليه ، فان الله سبحانه خلقه لعبادته وحده لا شريك له ، وفطره على محبته وتأليهه والانابة اليه ، كما قال تعالى .

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) ٣٠/الروم .

فلما لم يفعل ما خُلِق له وفطر عليه ، من محبة الله وعبوديته : عوقب على ذلك بان زين له الشيطان ما يفعله من الشرك والمعاصي ، فانه صادف قلباً خاليا قابلا للخير والشر ، ولو كان فيه الخير الذي يمنع ضده . لم يتمكن منه الشر ، كما قال الله على لسان ابليس :

(فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) ٨٢ و٨٣/ص .

والاخلاص : خلوص القلب من تأليه ما سوى الله تعالى ، فخلص لله ، فلم يتمكن منه الشيطان ، واما اذا صادفه فارغا من ذلك : تمكن منه بحسب فراغه ، فيكون جعله مذنبا مسيئا في هذه الحال : عقوبة له على عدم الاخلاص ، وهي محض العدل .

● قال الامام : (ولم يكلفهم الله تعالى الا ما يطيقون ، ولا يطيقون الا ما كلفهم،وهو تفسير: لاحول ولاقوة الابالله نقول : لا حيلة لاحد ، ولا تَحوّل لأحد ، ولا حركة لأحد عن معصية الله ، الا بمعونة الله ، ولا قوة لأحد على اقامة طاعة الله والثبات عليها الا بتوفيق الله ، وكل شيء يجري بمشيئة الله تعالى وعلمه وقضائه وقدرته ، غلبت مشيئتُه المشيئاتِ كلها ، وعكست ارادتُه الاراداتِ كلها ، وغلب قضاؤه الحيلَ كلها . يفعل ما يشاء ، وهو غير ظالم ابدا ، « لا يُسأل عما يفعل وهم يُسالون » » .

وذلك لقوله تعالى : (لا يكلف الله نفسا الا وسعها) ولا يلزم قوله تعالى للملائكة : (انبئوني باسماء هؤلاء) مع عدم علمهم بذلك، لأنه ليس بتكليف ، بل هو خطاب تعجيز .

وكذا لا يلزم دعاء المؤمنين في قوله تعالى : (ربنا ولا تُحَمِّلنا ما لا طاقة لنا به) قال ابن الانباري : اي لا تحملنا ما يثقل علينا اداؤه وان كنا مطيقين له على تَجَشّم وتَحَمّل مكروه . قال : فخاطب العرب على حسب ما تعقل ، فان الرجل منهم يقول للرجل يبغضه : ما اطيق النظر اليك ، وهو مطيق لذلك ، لكنه يثقل عليه .

وقوله « ولا يطيقون الا ما كلفهم به » الى آخر كلامه ، اي ولا يطيقون الا ما اقدرهم عليه . وهذه الطاقة هي التي من نحو التوفيق ، لا التي من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلات . و « لا حول ولا قوة الا بالله » . دليل على اثبات القدر ، وقد فسرها الشيخ بعدها ، ولكن في كلام الشيخ اشكال : فان التكليف لا يستعمل بمعنى الاقدار ، وانما يستعمل بمعنى الامر والنهي ، وهو قال : « لا يكلفهم الا ما يطيقون ولا يطيقون الا ما كلفهم » وظاهره انه يرجع الى معنى واحد ، ولا يصح ذلك ، لأنهم يطيقون فوق ما كلفهم به ، لكنه سبحانه يريد بعباده اليُسر والتخفيف ، كما قال تعالى :

(يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) ١٨٥/البقرة .

وقال تعالى : (يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ) ٢٨/النساء .

فلو زاد فيما كلفنا به لاطقناه ، ولكنه تفضّل علينا ورحمنا وخفف عنا .

ويجاب عن هذا الاشكال بما تقدم : ان المراد : الطاقة التي من نحو التوفيق ، لا من جهة التمكن وسلامة الآلات ، لكن في العبارة قَلَق ، فتأمله .

وقوله : « وكل شيء يجري بمشيئة الله وعلمه وقضائه وقدره » : يريد بقضائه : القضاء الكوني ، لا الشرعي ، فان القضاء يكون كونيا وشرعيا ، وكذلك الارادة والامر ، والاذن والكتاب ، والحكم والتحريم والكلمات ، ونحو ذلك . اما القضاء الكوني ففي قوله تعالى :

(فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ) ١٢/فصلت .

والقضاء الديني الشرعي في قوله تعالى :

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ) ٢٣/الاسراء .

واما الاذن الكوني ففي قوله تعالى :

(وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) ١٠٢/البقرة .

والاذن الشرعي في قوله تعالى :

(مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ) ٥/الحشر .

واما الكتاب الكوني ففي قوله تعالى :

(وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) ١١/فاطر .

والكتاب الشرعي الديني في قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ) ١٨٣/البقرة .

واما الحكم الكوني ففي قوله تعالى

(قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ) ١١٢/الانبياء .

والحكم الشرعي في قوله تعالى

(ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ) ١٠/الممتحنة .

واما التحريم الكوني ففي قوله تعالى

(قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ) ٢٦/المائدة .

والتحريم الشرعي في قوله سبحانه :

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ) ٣/المائدة .

● **قال ابو جعفر رحمه الله : (وفي دعاء الاحياء وصدقاتهم منفعة للاموات) .**

اذ قد اتفق اهل السنة ان الاموات ينتفعون من سعي الاحياء بامرين احدهما : ما تسبب اليه الميت في حياته . والثاني : دعاء المسلمين واستغفارهم له ، والصدقة والحج على نزاع فيما يصل من ثواب الحج ، فعن محمد بن الحسن الشيباني صاحب ابي حنيفة : انه انما يصل الى الميت ثواب النفقة ، والحج للحاج . وعند عامة العلماء : ثواب الحج للمحجوج عنه ، وهو الصحيح .

واختلف في العبادات البدنية ، كالصوم والصلاة وقراءة القرآن والذكر ، فذهب ابو حنيفة واحمد وجمهور السلف الى وصولها ، والمشهور من مذهب الشافعي ومالك : عدم وصولها .

والدليل على انتفاع الميت بغير ما تسبب فيه : الكتاب والسنة والاجماع والقياس الصحيح . اما الكتاب فقال تعالى :

(وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ) ١٠/الحشر .

فاثنى عليهم باستغفارهم للمؤمنين قبلهم ، فدل على انتفاعهم باستغفار الاحياء .

وقد دل على انتفاع الميت بالدعاء : اجماع الامة على الدعاء في صلاة الجنازة ، وكذلك الدعاء لهم عند زيارة قبورهم ، كما في صحيح مسلم من حديث بريدة بن الحصيب قال : « **كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمهم اذا خرجوا الى المقابر ان يقولوا : السلام عليكم اهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، وانا ان شاء الله بكم لاحقون ، نسأل الله لنا ولكم العافية** » .

واما وصول ثواب الصدقة ، ففي صحيح البخاري ان رجلا اتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال « **يا رسول الله : ان امي توفيت وانا غائب عنها ، فهل ينفعها ان تصدقت عنها ؟ قال : نعم . قال : فاني أشهدك ان**

حائطي : المخراف : صدقة عنها » .

واما وصول ثواب الصوم ، ففي الصحيحين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال . « **من مات وعليه صيام : صام عنه وَليُّه** » .

واما وصول ثواب الحج ، ففي صحيح البخاري : « **ان امراة من جُهينة جاءت الى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : ان أمي نذرت ان تحج حتى ماتت فلم تحج ، افأحج عنها ؟ قال : حجي عنها ، أرأيت لو كان على امك دين ، أكنتِ قاضيَتَه ؟ اقضوا الله ، فالله احق بالوفاء** » .

واجمع المسلمون على ان قضاء الدين يُسقِطه من ذمّة الميت ولو كان من اجنبي ومن غير تركته ، وقد دل على ذلك حديث ابي قتادة ، حيث ضمِن الدينارين عن الميت ، فلما قضاهما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « **الآن بردت عليه جلدته** » وكل ذلك جار على قواعد الشرع ، وهو محض القياس ، فان الثواب حق العامل ، فاذا وهبه لاخيه المسلم لم يمنع من ذلك .

وقد نبه الشارع بوصول ثواب الصوم على وصول ثواب القراءة ونحوها من العبادات البدنية . يوضحه : ان الصوم كف النفس عن المفطرات بالنية ، وقد نص الشارع على وصول ثوابه الى الميت ، فكيف بالقراءة التي هي عمل ونية ؟

وقد استشكل البعض وصول هذه الانواع من الثواب ، وذلك بسبب قوله تعالى (وان ليس للانسان الا ما سعى) وقد اجاب العلماء باجوبة ، اصحها جوابان

احدهما : ان الانسان بسعيه وحسن عشرته : اكتسب الاصدقاء ، فترحموا عليه ، واهدوا له ثواب الطاعات ، فكان ذلك اثر سعيه .

الثاني . ان القرآن لم ينف انتفاع الرجل بسعي غيره ، وانما نفى ملكه لغير سعيه ، وسعي غيره ملك لساعيه ، فان شاء ان يبذله لغيره ، وان شاء ان يبقيه لنفسه .

[illegible]ا استئجار قوم يقرأون القرآن ويهدونه للميت فهذا لم يفعله احد من السلف ولا امر به احد من ائمة الدين ، ولا رخص فيه ، والاستئجار عن نفس التلاوة غير جائز بلا خلاف ، وانما اختلفوا في جواز الاستئجار لتعليم ونحوه ، فاذا أعطى لمن يقرأ القرآن ويتعلمه ويعلمه معونة لاهل القرآن على ذلك : كان هذا من جنس الصدقة عنه ، فيجوز . وفي كتاب الاختيار : لو اوصى بان يُعطى شيء من ماله لمن يقرأ القرآن على قبره ، فالوصية باطلة ، لأنه في معنى الاجرة .

وذكر الزاهدي في الغنية انه لو اوقف وقفا على من يقرأ القرآن عند قبره . فالتعيين باطل

واما قراءة القرآن واهداؤها له طوعا بغير اجرة فهذا يصل اليه ، كما يصل ثواب الحج والصوم ، فان قيل هذا لم يكن معروفا في السلف ، ولا ارشدهم النبي صلى الله عليه وسلم اليه ، فالجواب ان كان مُورد هذا السؤال معترفا بوصول ثواب الحج والصيام والدعاء ، قيل له ما الفرق بين ذلك وبين وصول ثواب قراءة القرآن ؟ وليس كون السلف لم يفعلوه حجة في عدم الوصول . ومن اين لنا هذا النفي العام ؟ فان قيل فرسول الله صلى الله عليه وسلم ارشدهم الى الصوم والحج والصدقة ، دون القراءة . قيل هو صلى الله عليه وسلم لم يبتدئهم بذلك ، بل خرج ذلك منه مخرج الجواب لهم ، فهذا سأله عن الحج عن ميته فاذن له فيه ، وهذا سأله عن الصوم عنه فاذن له فيه ، ولم يمنعهم مما سوى ذلك

ومن قال ان الميت ينتفع بقراءة القرآن عنده ـ باعتبار سماعه كلام الله ـ فهذا لم يصح عن احد من الائمة المشهورين . واختلف العلماء في قراءة القرآن عند القبور على ثلاثة اقوال هل تكره ، ام لا بأس بها وقت الدفن ، وتكره بعده ؟ فمن قال بكراهتها ـ كأبي حنيفة ومالك واحمد في رواية ـ قالوا لأنه مُحدَث لم تَرِدْ به السنة ، والقراءة تشبه الصلاة ، والصلاة عند القبور منهي عنها ، فكذلك القراءة . ومن قال لا بأس بها ـ كمحمد بن الحسن الشيباني واحمد في رواية ـ استدلوا بما نقل عن ابن عمر رضي الله عنه انه اوصى ان يُقرأ على قبره وقت الدفن بفواتح سورة البقرة وخواتمها . ونُقل ايضا عن بعض المهاجرين قراءة سورة البقرة . ومن قال لا بأس بها وقت الدفن فقط ـ وهو رواية عن احمد ـ اخذ بما نقل عن ابن عمر وبعض المهاجرين واما بعد ذلك ، كالذين يتناوبون القبر للقراءة عنده ، فهذا مكروه ، فانه لم تأت به السنة ، ولم ينقل عن احد من السلف مثل ذلك اصلا . وهذا القول لعله اقوى من غيره ، لما فيه من التوفيق بين الدليلين .

● قال : (والله تعالى يستجيب الدعوات ، ويقضي الحاجات) .

وذلك في قوله الله تعالى (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) ٦٠/ غافر

وقوله سبحانه (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) ١٨٦ / البقرة

والذي عليه اكثر الخلق من المسلمين وسائر اهل الملل ان الدعاء من اقوى الاسباب في جلب المنافع ودفع المضار ، وقد اخبر تعالى عن الكفار انهم اذا مَسّهم الضر في البحر دَعَوا الله مخلصين له الدين

واجابة الله لدعاء العبد ، مسلما كان او كافرا من جنس رزقه لهم ، وهو مما توجبه الربوبية للعبد مطلقا ، ثم قد يكون ذلك فتنة في حقه ومضرة عليه ، اذ كان كفره وفسوقه يقتضي ذلك .

قال ابن عقيل : قد ندب الله تعالى الى الدعاء وفي ذلك معان

اولها : الوجود ، فان من ليس بموجود لا يدعى .

الثاني : الغنى ، فان الفقير لا يُدعى .

الثالث : السمع ، فان الاصم لا يُدعى .

الرابع : الكرم ، فان البخيل لا يُدعى .

الخامس : الرحمة ، فان القاسي لا يُدعى .

السادس : القدرة ، فان العاجز لا يُدعى .

والرب سبحانه هو الذي حرّك العبد الى دعائه ، فهذا الخير منه ، وتمامه عليه ، كما قال عمر رضي الله عنه : « اني لا احمل هَمّ الاجابة ، وانما احمل هَمّ الدعاء ، ولكن اذا الهمتُ الدعاءَ فان الاجابة معه » .

وعلى هذا قول الله تعالى :

(يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ)
٥/ السجدة .

فاخبر سبحانه انه يبتدىء بتدبير الامر ، ثم يصعد اليه الامر الذي دبّره ، فالله سبحانه هو الذي يقذف في قلب العبد حركة الدعاء ، ويجعلها سببا للخير الذي يعطيه إيّاه ، كما في العمل والثواب ، فهو الذي وفّق العبد للتوبة ثم قبلها ، وهو الذي وفقه للعمل ثم اثابه ، وهو الذي وفقه للدعاء ثم اجابه .

وهنا سؤال معروف ، وهو : ان من الناس من قد يسأل اللهَ فلا يُعطى ، او يُعطى غير ما سأل ؟

وقد أُجيبَ عنه باجوبة ، فيها اجوبة مُحقّقة :

منها : ان اجابة دعاء السؤال اعم من اعطاء المسؤول ، كما فسره النبي صلى الله عليه وسلم في قوله . « ما من رجل يدعو الله بدعوة ليس فيها اثم ولا قطيعة رحم الا اعطاه بها احدى ثلاث خصال : اما ان يُعَجِّلَ دعوته ، او يَدّخِرَ له من الخير مثلها ، او يصرفَ عنه من الشر مثلها . قالوا : يا رسول الله ، اذن نُكثِر . قال : اللهُ أَكثَر » . رواه احمد بنحو هذا اللفظ واصله في صحيح مسلم .

ومنها : ان الدعاء سبب مقتض لنيل المطلوب ، والسبب له شروط وموانع ، فاذا حصلت شروطه وانتفت موانعه : حصل المطلوب ، والا فلا يحصل ذلك المطلوب ، بل قد يحصل غيره ، وهكذا سائر الكلمات الطيبات من الاذكار المأثورة المعلّق عليها جلبُ منافعَ او دفع مضار ، فان الكلمات بمنزلة الآلة في يد الفاعل ، تختلف باختلاف قوته وما يُعينها ، وقد يعارضها مانع من الموانع ، ونصوص الوعد والوعيد المتعارضة في الظاهر من هذا الباب ، وكثيرا ما نجد ادعيةً دعا بها قوم فاستجيب لهم ، ويكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه واقباله على الله ، او حَسَنة تقدمت منه ، جعل الله سبحانه اجابة دعوته شكرَ الحسنة ، او صادف وقت اجابة ، ونحو ذلك ، فاجيبت دعوته ، فيظن ان السر في ذلك الدعاء ، فياخذه مجرداً عن تلك الامور التي قارنته من ذلك الداعي .

● قال الطحاوي : (ويملك كل شيء ، ولا يملكه شيء ، ولا غنى عن الله تعالى طَرْفَةَ عَينٍ ، ومن استغنى عن الله طرفة عين فقد كفر وصار من اهل الحَيْن . والله يغضب ويرضى ، لا كاحد من الورى) .

والحَين : الهلاك .

ومذهب السلف وسائر الائمة : اثبات صفة الغضب ، والرضا ، والعداوة ، والولاية ، والحب ، والبغض ، ونحو ذلك من الصفات التي ورد بها الكتاب والسنة ، ومنع التأويل الذي يصرفها عن حقائقها اللائقة بالله تعالى .

قال تعالى :

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ) ١٨ / الفتح .

وقال سبحانه : (وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ) ٩٣ / النساء .

وفي قول الشيخ رحمه الله : « لا كاحد من الورى » : نفي التشبيه .

ولا يقال : ان الرضا : ارادة الاحسان ، والغضب : ارادة الانتقام ، فان هذا نفيٌ للصفة .

ويقال لمن تأول الغضب والرضا بارادة الاحسان : لِمَ تأولتَ ذلك ؟ فلا بد ان يقول : لأن الغضب : غليان دم القلب ، والرضا : الميل والشهوة ، وذلك لا يليق بالله تعالى . فيقال له : غليان دم القلب في الآدمي امر ينشأ عن صفة الغضب ، ويقال له ايضا : وكذلك الارادة والمشيئة فينا ، وهي ميل الحي الى الشيء او الى ما يلائمه ويناسبه ، فان الحي منا لا يريد الا ما يجلب له منفعةً او

يدفع عنه مضرة ، وهو محتاج الى ما يريده ومفتقر اليه ، يزداد بوجوده ، وينقص بعدمه ، فالمعنى الذي صرفت اليه اللفظ كالمعنى الذي صرفته عنه ، سواء،فان جاز هذا : جاز ذاك ، وان امتنع هذا : امتنع ذاك .

فان قالوا : الارادة التي يوصف الله بها مخالفةٌ للارادة التي يوصف بها العبد ، وان كان كل منهما حقيقة ، قيل له : فقل : ان الغضب والرضا الذي يوصف الله به مخالف لما يوصف به العبد ، وان كان كل منهما حقيقة ، فاذا كان ما يقوله في الارادة يمكن ان يقال في هذه الصفات : لم يتعين التأويل ، بل يجب تركه ، لانك تسلم من التناقض ، وتسلم ايضا من تعطيل معنى اسماء الله تعالى وصفاته بلا موجب ، فان صرف القرآن عن ظاهره وحقيقته بغير موجب : حرام ، ولا يكون الموجب للصرف ما دلّ عليه عقله ، اذ العقول مختلفة ، فكلٌ يقول : ان عقله دَلّه على خلاف ما يقوله الآخر .

وهذا الكلام يقال لكل من نفى صفةً من صفات الله تعالى ، لامتناع مسمى ذلك في المخلوق ، فانه لا بد ان يثبت شيئا لله تعالى على خلاف ما يعهده ، حتى في صفة الوجود ، فان وجود العبد كما يليق به ، ووجود الباري تعالى كما يليق به ، فوجوده تعالى يستحيل عليه العدم ، ووجود المخلوق لا يستحيل عليه العدم ، وما سمى به الرب نفسه وسَمَّى به مخلوقاته ، مثل الحي ، والعليم ، والقدير ، اوسمى به بعضَ صفاته ، كالغضب والرضا ، وسمى به بعض صفات عباده : فنحن نعقل بقلوبنا معاني هذه الاسماء في حق الله تعالى ، وانه حق ثابت موجود ، ونعقل ان بين المعنيين قدرا مشتركا ، لكن هذا المعنى لا يوجد في الخارج مشتركا ، اذ المعنى المشتركُ الكلّي لا يوجد مشتركا الا في الاذهان ، ولا يوجد في الخارج الا مُعَيَّنا مختصا ، فيثبت في كل منهما كما يليق به .

● **قال ابو جعفر : (ونحب اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا نُفَرِّط في حب احد منهم ، ولا نتبرأ من احد منهم ، ونبغض من يبغضهم ، وبغير الخير يذكرهم ، ولا نذكرهم الا بخير ، وحبهم : دين وايمان واحسان ، وبُغضهم : كفر ونفاق وطغيان) .**

وذلك لأن الله تعالى اثنى على الصحابة هو ورسوله ورضي عنهم ، ووعدهم الحسنى كما قال تعالى

(وَالسَّٰبِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَٰجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) ١٠٠ / التوبة .

وقال تعالى :

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا) ٢٩ / الفتح .

وفي الصحيحين عن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه قال . كان بين خالد ابن الوليد وبين عبدالرحمن بن عوف شيء ، فسَبّه خالد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تَسبّوا احداً من اصحابي ، فان احدَكم لو انفقَ مثل أُحُدٍ ذهباً ما ادركَ مُدَّ احدِهِم ولا نَصيفَه » . فنهى مَن له صحبة اخرى ان يسبَّ من له صحبة اولى ، وهذا حال خالد الذي اسلم قبل فتح مكة ، فكيف حال من ليس من الصحابة مع الصحابة ؟

واما ما يُروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « اصحابي كالنجوم ، بايهم اقتديتم : اهتديتم » فهو حديث ضعيف لا يصح ، وليس هو في كتب الحديث المعتمدة .

وقد ثبت في صحيح مسلم عن جابر ، ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا يدخل النار احدٌ بايَعَ تحت الشجرة » .

ولقد صدق عبدالله بن مسعود رضي الله عنه في وصفهم ، حيث قال : « ان الله نظر في قلوب العباد ، فوجد قلب محمد خيرَ قلوب العباد ، فاصطفاه لنفسه ، وابتعثه برسالته،ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد صلى الله عليه وسلم ، فوجد قلوب اصحابه خير قلوب العباد ، فجعلهم وزراء نبيه » .

وقول الطحاوي : « ويغضهم كفر ونفاق » تقدم الكلام في تكفير اهل البدع ، وهذا الكفر نظير الكفر المذكور في قوله تعالى : (ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الكافرون) .

● قال الطحاوي : (ونُثبتُ الخلافةَ بعدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم اولاً لابي بكرٍ الصِدّيق رضي الله عنه ، تفضيلاً له وتقديماً على جميع الامة) .

لكن اختلف اهل السنة في خلافة الصديق رضي الله عنه : هل كانت بالنص ، او بالاختيار ؟ فذهب الحسن البصري وجماعة من اهل الحديث الى انها ثبتت بالنص الخفي والاشارة ، ومنهم مَن قال : بالنص الجَلي . وذهب جماعة من اهل الحديث والمعتزلة والاشعرية الى انها ثبتت بالاختيار .

والدليل على اثباتها بالنص اخبار :

من ذلك ما اسنده البخاري عن جُبير بن مُطعم قال : « اتت امراةٌ النبيَ

صلى الله عليه وسلم ، فامرها ان ترجع اليه . قالت : أرأيتَ ان جئتُ فلم أجدْك ؟ ـ كأنها تريد الموت ـ قال : ان لم تجديني فاتي ابا بكر » . وذكر له سياق آخر ، واحاديث اخر ، وذلك نص على امامته .

وحديثِ حذيفة بن اليمان ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اقتدوا باللَذَين مِن بعدي : ابي بكر وعمر » . رواه اهل السنن .

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها وعن ابيها ، قالت : « دخل عليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم في اليوم الذي بُدِىءَ فيه ، فقال : ادعي لي اباكِ واخاكِ ، حتى اكتبَ لابي بكر كتابا ، ثم قال : يابى اللهُ والمسلمونَ الا ابا بكر » .

واحاديث تقديمه في الصلاة مشهورة معروفة ، وهو يقول : « مُروا ابا بكر فليُصَلِّ بالناس » .

وفي الصحيح انه صلى الله عليه وسلم قال على منبره : « لو كنتُ مُتَّخِذاً من اهل الارض خليلاً لاتخذت ابا بكر خليلا . لا يَبْقَيَنَّ في المسجد خوخة الا سُدَّت ، الا خوخة ابي بكر » .

واحتج من قال : لم يستخلف ، بالخبر المأثور ، عن عبدالله بن عمر ، عن عمر ، رضي الله عنهما ، انه قال : « إن أستخلِفْ فقد استخلَفَ مَن هو خير مني ، يعني ابا بكر ، وان لا استخلف فلم يستخلف مَن هو خير مني ، يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال عبدالله : فعرفت انه حين ذكر رسولَ الله صلى الله عليه وسلم غيرُ مستخلِف » .

والظاهر ـ والله اعلم ـ ان المراد انه لم يستخلف بعهد مكتوب ، ولو كتب عهدا لكتبه لابي بكر ، بل قد اراد كتابته ثم تركه وقال : « يابى اللهُ والمسلمون الا ابا بكر » فكان هذا ابلغ من مجرد العهد ، فان النبي صلى الله عليه وسلم دل المسلمين على استخلاف ابي بكر ، وارشدهم اليه بامور متعددة من اقواله وافعاله ، واخبر بخلافته اخبار راضٍ بذلك ، حامدٍ له ، فلو كان التعيين مما يشتبه على الامة لبينه بيانا قاطعا للعذر .

وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « ان الله بعثني اليكم ، فقلتم : كذبتَ ، وقال ابو بكر : صَدَق ، وواساني بنفسه وماله » .

● قال الطحاوي : (ثم لعُمرَ بن الخطاب رضي الله عنه) .

اي ونثبت الخلافة بعد ابي بكر رضي الله عنه لعمر رضي الله عنه ، وذلك بتفويض ابي بكر الخلافة اليه ، واتفاق الامة بعده عليه ، وفضائله رضي الله عنه اشهر من ان تنكر ، واكثر من ان تذكر ، فقد روي عن محمد بن الحنفية انه قال لابيه علي بن ابي طالب رضي الله عنه « يا ابت مَن خيرُ الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال يا بني ، او ما تعرف ؟ فقلت لا ، قال ابو بكر . قلت ثم مَن ؟ قال عمر . وخشيتُ ان يقول ثم عثمان ، فقلت ثم انت . فقال ما انا الا رجل من المسلمين » .

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : وُضِع عمر على سريره ، فتكنّفه الناسُ يَدعون ويُثنون ويصلون عليه ، قبل ان يُرفع ، وانا فيهم ، فلم يَرُعْني الا برجل قد اخذ بمنكبي من ورائي ، فالتفت اليه ، فاذا هو علي ، فترحّم على عمر ، وقال ما خلّفتَ احدا احبّ اليّ ان القى اللهَ بمثل عمله منكَ . وأيْم الله ان كنتُ لاظنُ ان يجعلك اللهُ مع صاحبَيك ، وذلك اني كنتُ اكثر ما اسمعُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يقول : « **جئتُ انا وابو بكر وعمر ، ودخلت انا وابو بكر وعمر ، وخرجتُ انا وابو بكر وعمر** » ، فان كنت لأرجو ــ او لأظنّ ــ ان يجعلكَ الله معهما .

وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « **إيْهٍ يا ابن الخطاب ، والذي نفسي بيده ، ما لقيك الشيطان سالكا فَجّاً إلا سَلكَ فجّاً غير فَجك** » .

● قال : (ثم لعثمان رضي الله عنه) .

اي ونُثبت الخلافة بعد عمر لعثمان رضي الله عنهما ، وقد ساق البخاري رحمه الله قصةَ قتل عمر رضي الله عنه ، وامرَ الشورى والمبايعة لعثمان ، في صحيحه ، فاحببت ان اسردها كما رواها بسنده عن عمرو بن ميمون قال . رأيتُ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل ان يصابَ بأيام بالمدينة وقف على حُذيفة بن اليمان وعثمان بن حُنيف ، فقال : كيف فعلتما ؟ اتخافانِ ان تكونا قد حَملتما الارضَ ما لا تطيق ؟

قالا حملناها امرا هي له مطيقة ، ما فيها كبيرُ فضْل .

قال انظرا ان تكونا حملتما الارض مالا تطيق .

قالا لا .

فقال عمر لئن سلمني الله لأدَعَنَّ اراملَ اهل العراق لا يَحْتَجْنَ الى رجل بعدي ابدا

قال عمرو بن ميمون : فما اتت عليه الا اربعة حتى اصيب .

قال : اني لقائم ما بيني وبينه الا عبدالله بن عباس غداة اصيب ، وكان اذا مَرَّ بين الصفين قال : استووا ، حتى اذا لم يَرَ فيهن خللا تقدم فكبّر ، وربما قرأ سورة يوسف ، او النحل ، او نحو ذلك في الركعة الاولى ، حتى يجتمع الناس ، فما هو الا ان كبّر فسمعته يقول : قتلني ـ او اكلني ـ الكلب ، حين طعنه ، حتى طعن ثلاثةَ عشر رجلا ، مات منهم سبعة ، فلما رأى ذلك رجل من المسلمين ، طرحَ عليه بُرْنُساً ، فلما ظن العلجُ انه مأخوذ : نَحَر نفسه ، وتناول عمرُ يدَ عبدالرحمن بن عوف ، فقدّمه ، فمن يلي عمر فقد رأى الذي ارى ، واما نواحي المسجد فانهم لا يدرون غير انهم قد فقدوا صوتَ عمر ، وهم يقولون سبحان الله ، سبحان الله ، فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة ، فلما انصرفوا قال : يا ابن عباس : أنظر من قتلني ؟

فجالَ ساعةً ثُم جاء فقال : غلام المغيرة .

قال : الصنَع ؟

قال : نعم .

قال : قاتله الله ، لقد أمرتُ به معروفا ! الحمد لله الذي لم يجعل منيّتي بيد رجل يدّعي الاسلام ، قد كنتَ انت وابوكَ تحبان ان تكثر العُلوج بالمدينة ـ وكان العباس اكثرهم رقيقا ـ فقال : ان شئتَ فعلتُ ؟ اي : ان شئت قتلنا ، قال : كذبت ، بعدما تكلموا بلسانكم ، وصَلّوا قبلتكم ، وحَجّوا حجكم ؟

فاحتُمِلَ الى بيته ، فانطلقنا معه ، وكأنّ الناسَ لم تُصِبهم مصيبة قبل يومئذ ، فقائل يقول : لا بأس ، وقائل يقول : اخاف عليه ، فأُتِيَ بنبيذ فشربه ، فخرج من جوفه ، ثم أُتي بلبن فشربه ، فخرج من جوفه ، فعرفوا انه ميت ، فدخلنا عليه ، وجاء الناس يثنون عليه ، وجاء رجل شاب فقال : أبشِر يا امير المؤمنين ببشرى الله لك ، من صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقدَم في الاسلام ما قد علمت ، ثم وليت فعدلت ، ثم شهادة .

قال : وددت ان ذلك كفاف ، لا عليّ ولا لي .

فلما ادبرَ اذا إزاره يمس الارض ، قال : ردوا عليّ الغلام ، قال : يا ابن اخي : ارفع ثوبك ، فانه ابقى لثوبك ، واتقى لربك . يا عبدالله بن عمر : انظر ما عليّ من الدّين ؟

فحسبوه ، فوجدوه ستة وثمانين الفا او نحوه .

قال . إنْ وَفَى له مال آل عمر فأدِّه من اموالهم ، والا فَسَلْ في بني عدي بن كعب ، فان لم تف اموالهم فَسَل في قريش ، ولا تَعْدُهم الى غيرهم ، فأدِّ عني هذا المال . انطلق الى عائشة ام المؤمنين ، فقل . يقرأ عليك عمر السلام ، ولا تقل امير المؤمنين ، فاني لست اليوم للمؤمنين اميرا ، وقل يستأذن عمرُ بن الخطاب ان يدفن مع صاحبيه .

فسلّم واستأذنَ ، ثم دخل عليها ، فوجدها قاعدة تبكي ، فقال يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ، ويستأذن ان يدفن مع صاحبيه .

فقالت : كنتُ أُريده لنفسي ، ولأُوثِرنَّه به اليوم على نفسي .

فلما اقبلَ ، قيلَ هذا عبدالله بن عمر قد جاء .

قال : ارفعوني .

فاسنده رجل اليه .

قال : ما لديك ؟

قال : الذي تحب يا امير المؤمنين ، أَذِنَتْ .

قال . الحمد لله ، ما كان شيءٌ اهمّ اليّ من ذلك ، فاذا انا قضيتُ فاحملوني ، ثم سلّم فقل : يستأذنُ عمر بن الخطاب ، فان اذِنتْ لي فادخلوني ، وان ردّتني : ردوني الى مقابر المسلمين .

وجاءت ام المؤمنين حفصةُ ــ والنساءُ يسترنها ــ فلما رأيناها قمنا ، فولجت عليه ، فبكت عنده ساعة ، واستأذنَ الرجال ، فولجت داخلا لهم ، فسمعنا بكاءها من الداخل ، فقالوا : اوصِ يا امير المؤمنين ، استخلف ؟

قال : ما اجد احق بهذا الامر من هؤلاء النَفر ــ او الرهط ــ الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، فسمّى علياً ، وعثمانَ ، والزبير ، وطلحة ، وسعدا ، وعبدالرحمن . وقال : يشهدكم عبدالله بن عمر ، وليس له من الامر شيء ، كهيئة التعزية له ، فان اصابت الامارة سعدا فهو ذاك ، والا فليستعِن به ايكم ما امِّر ، فاني لم اعزله من عجز ولا خيانة . وقال اوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الاولين ، ان يعرف لهم حقهم ، ويحفظ لهم حُرمتهم ، واوصيه بالانصار خيرا ، الذين تبوؤا الدار والايمان من قبلهم ، ان يُقبل من محسنهم ، وان يُعفى عن مسيئهم ، واوصيه باهل الامصار خيرا ، فانهم رِدْء الاسلام ، وجباة الاموال ، وغيظ العدو ، وان لا يأخذ منهم الا فضلهم ، عن رضاهم ، واوصيه بالاعراب خيرا ، فانهم اصل العرب ، ومادة الاسلام ، ان يأخذ من حواشي اموالهم ، وتُردُّ على فقرائهم ، واوصيه بذمة الله

وذمة رسوله ، ان يوفى لهم بعهدهم ، وان يقاتل من ورائهم ، ولا يكلفوا الا طاقتهم .

فلما قُبض : خرجنا به ، فانطلقنا نمشي ، فسلم عبدالله بن عمر ، قال يستأذن عمر بن الخطاب .

قالت : ادخلوه .

فأُدخل ، فوضع هنالك مع صاحبيه . فلما فُرِغَ من دفنه : اجتمع هؤلاء الرهط ، فقال عبدالرحمن : اجعلوا امركم الى ثلاثة منكم .

قال الزبير : قد جعلت امري الى علي .

فقال طلحة : قد جعلت امري الى عثمان .

وقال سعد : قد جعلت امري الى عبدالرحمن بن عوف .

فقال عبدالرحمن : ايكما تَبَرَّأ من هذا الامر فنجعله اليه ؟ والله عليه والاسلامُ لينظرنَّ افضلهم في نفسه .

فاسكت الشيخان .

فقال عبدالرحمن : افتجعلونه اليَّ ؟ والله علي ان لا آلو عن افضلكم .

قالا : نعم .

فاخذ بيد احدهما ، فقال : لك قرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والقَدَم في الاسلام ما قد علمت ، فالله عليك لئن امَّرتك لتعدلن ، ولئن امَّرت عثمانَ لتسمعنَّ ولتطيعن .

ثم خلا بالآخر فقال له مثل ذلك .

فلما اخذ الميثاق قال : ارفع يدك يا عثمان ، فبايعه ، فبايع له علي ، وولج اهل الدار فبايعوه .

وروى البخاري ايضا عن حُميد بن عبدالرحمن بن عوف : ان المِسْوَر بن مَخرمة اخبره : ان الرهط الذين ولّاهم عمر اجتمعوا فتشاوروا ، فقال لهم عبدالرحمن : لست بالذي أنافسكم عن هذا الامر ، ولكنكم ان شئتم اخترت لكم منكم ؟

فجعلوا ذلك الى عبدالرحمن ، فلما ولّوا عبدالرحمن أمرهم ، فمال الناس على عبدالرحمن ، حتى ما ارى احدا من الناس يتبع اولئك الرهط ولا يطأ

عقبه . ومال الناس على عبدالرحمن يشاورونه تلك الليالي ، حتى اذا كانت تلك الليلة التي اصبحنا فيها فبايعنا عثمان .

قال المِسوَر بن مَخرمة . طرقني عبدالرحمن بعد هَجْعٍ من الليل ، فضرب الباب حتى استيقظت ، فقال : اراك نائما ! فوالله ما اكتحلتُ هذه الثلاث بكبير نوم ، انطلق فادع الزبيرَ وسعدا .

فدعوتهما له ، فشاورهما ، ثم دعاني ، فقال : ادع لي عليا ، فدعوته ، فناجاه حتى ابْهارّ الليل ، ثم قام علي من عنده وهو على طمع ، وقد كان عبدالرحمن يخشى من علي شيئا . ثم قال : ادع لي عثمان ، فدعوته ، فناجاه حتى فرّق بينهما المؤذن بالصبح ، فلما صلى الناس الصبح ، واجتمع اولئك الرهط عند المنبر ، فارسل الى من كان حاضرا من المهاجرين والانصار ، وارسل الى امراء الاجناد ، وكانوا وافوا تلك الحَجّة مع عمر ، فلما اجتمعوا : تشهّد عبدالرحمن ثم قال : اما بعد ، يا علي : اني قد نظرت في امر الناس ، فلم ارهم يعدلون بعثمان ، فلا تجعلن على نفسك سبيلا . فقال : ابايعك على سنة الله ورسوله والخليفتين من بعده . فبايعه عبدالرحمن ، وبايعه الناس ، والمهاجرون والانصار ، وامراء الاجناد ، والمسلمون .

ومن فضائل عثمان رضي الله عنه الخاصة : كونه خُتَن رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابنتيه .

وفي صحيح مسلم ، عن عائشة قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مضطجعا في بيته ، كاشفا عن فخذيه – او ساقيه – فاستاذن ابو بكر ، فاذن له وهو على تلك الحال ، فتحدث . ثم استاذن عمر ، فاذن له وهو كذلك ، فتحدث . ثم استاذن عثمان ، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسوّى ثيابه ، فدخل فتحدث ، فلما خرج قالت عائشة : دخل ابو بكر فلم تهتش له ولم تباله ، ثم دخل عمر فلم تهتش ولم تُباله ، ثم دخل عثمان فجلستَ وسويت ثيابك ؟ فقال : الا استحي من رجل تستحي منه الملائكة ؟» .

● **قال : (ثم لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه) .**

اي : وتُثبت الخلافة بعد عثمان لعلي رضي الله عنه ، لما قُتل وبايع الناس عليا : صار اماما حقا واجب الطاعة ، وهو الخليفة في زمانه خلافة نبوة ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم . « خلافة النبوة ثلاثون سنة ، ثم يؤتي الله مُلكه من يشاء » .

وكانت خلافة ابي بكر الصديق سنتين وثلاثة اشهر ، وخلافة عمر عشر سنين ونصفا ، وخلافة عثمان اثنتي عشر سنة ، وخلافة علي اربع سنين وتسعة اشهر . واول ملوك المسلمين : معاوية ، لكنه انما صار اماما حقا لما فوّض اليه الحسن بن علي رضي الله عنه الخلافة ، فان الحسن رضي الله عنه بايعه اهل العراق بعد موت ابيه ، ثم بعد ستة اشهر فوّض الامر الى معاوية ، وظهر صدق قول النبي صلى الله عليه وسلم :

« ان ابني هذا سيد ، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتــين من المسلمين » .

فالخلافة ثبتت لامير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه بعد عثمان رضي الله عنه ، بمبايعة الصحابة ، سوى معاوية مع اهل الشام ، والحق مع علي رضي الله عنه . فان عثمان رضي الله عنه لما قُتل : كثر الكذب والافتراء على عثمان وعلي ، وعظمت الشبهة عند من لم يعرف الحال ، وقويت الشهوة في نفوس ذوي الاهواء والاغراض ، ممن بعدت داره من اهل الشام ، وكان في عسكر علي رضي الله عنه ــ من اولئك الطغاة الخوارج ، الذين قتلوا عثمان ــ مَن لم يُعرف بعينه ، ومن تنتصر له قبيلته ، ومن لم يقم عليه حُجّة بما فعله ، ومن في قلبه نفاق لم يتمكن من اظهاره كله ، ورأى طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام رضي الله عنهما ، انه ان لم يُنتصَر للشهيد المظلوم ويُقمع اهل الفساد والعدوان والا استوجبوا غضب الله وعقابه ، فجرت فتنة الجَمَل على غير اختيار من علي ، ولا من طلحة والزبير ، وانما اثارها المفسدون بغير اختيار السابقين ، ثم جرت فتنة صِفّين ، لرأي ، وهو ان اهل الشام لم يُعدل عليهم ، او لا يمكن من العدل عليهم ــ وهم كافّون ــ حتى تجتمع الامة ، وانهم يخافون طغيان مَن في العسكر ، كما طغوا على الشهيد المظلوم ، وعليّ رضي الله عنه هو الخليفة الراشد المهدي الذي تجب طاعته ، ويجب ان يكونوا مجتمعين عليه ، فاعتقدَ ان الطاعة والجماعة الواجبتين عليهم تحصل بقتالهم ، ولم يعتقد ان التأليف لهم كتأليف المؤلفة قلوبهم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم والخليفتين من بعده مما يسُوغ ، فحمله ما رآه ــ من ان الدين : اقامة الحدّ عليهم ومنعهم من الاثارة دون تأليفهم ــ على القتال ، وقعدَ عن القتال اكثر الاكابر ، لما سمعوه من النصوص في الامر بالقعود في الفتنة ، ولما رأوه من الفتنة التي تربو مفسدتها على مصلحتها .

ونقول في الجميع بالحسنى .

(رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) ١٠/ الحشر .

والفتن التي كانت في ايام علي رضي الله عنه قد صان الله عنها ايدينا ، فنسأل الله ان يصون عنها السنتنا ، بمنه وكرمه

ومن فضائل امير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه ما في الصحيحين عن سعد بن ابي وقاص رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم لعلي « **اما ترضى ان تكون مِنّي بمَنزِلة هارون من موسى** » .

وفي صحيح البخاري ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « **لأعطين الراية غداً رجلا يفتح الله على يديه** » قال سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه « **فبات الناس يَدوكون ليلَتَهم ، أيّهم يُعطاها ؟ فلما اصبح الناس غَدَوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كلهم يرجو ان يُعطاها ، فقال : اين علي بن ابي طالب ؟ فقالوا : يشتكي عينيه يا رسول الله . قال : فأرسِلوا اليه فاتوني به ، فلما جاء : بَصَق في عينيه ودعا له ، فبرا حتى كان لم يكن به وجع ، فاعطاه الراية ، فقال علي : يا رسول الله : اقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ فقال : أنفذ على رِسْلِك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم الى الاسلام ، واخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خيرٌ لك من ان يكون لك حُمر النَعَم** » « **ففتحَ الله عليه** » .

● **قال : (وهُم الخلفاءُ الراشدون ، والائمةُ المهديّون) .**

لقول النبي صلى الله عليه وسلم : » **عليكم بسُنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومُحْدَثات الامور ، فان كل بِدعة ضلالة** » .

رواه اصحاب السنن الاربعة ، وصحّحه الترمذي .

وترتيب الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم اجمعين في الفضل كترتيبهم في الخلافة ، وعلى هذا عامة اهل السنة ، وفي صحيح البخاري عن ابن عمر قال : كنا نقول ورسول الله صلى الله عليه وسلم حي : افضل امة النبي صلى الله عليه وسلم بعده ابو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان .

● **قال الطحاوي : (وأن العشرة الذين سمّاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبشّرهم بالجنة : نشهد لهم بالجنة ، على ما شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقوله الحق ، وهم : ابو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وطلحة ، والزبير ، وسعد ، وسعيد ، وعبدالرحمن بن عوف ، وابوعبيدة بن الجرّاح ، وهو**

امين هذه الامة ، رضي الله عنهم اجمعين) .

وقد تقدم ذكر بعض فضائل الخلفاء الاربعة . ومن فضائل الستة الباقين ما رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت :

« أرِقَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ، فقال : ليتَ رجلا صالحا من اصحابي يحرسني الليلة . قالت : وسمعنا صوت السلاح ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : مَن هذا ؟ فقال سعد بن ابي وقاص : يا رسول الله : جئت لاحرسك » « فدَعَا له رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نام » . وفي الصحيحين **« ان رسول الله صلى الله عليه وسلم جَمَعَ لسعد بن ابي وقاص ابويه يوم أُحُد ، فقال : إرم فداكَ ابي وامي »** .

وفي صحيح البخاري عن قيس بن ابي حازم قال رأيت يد طلحة التي وقى بها النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد قد شُلَّت .

وفي الصحيحين عن ابي عثمان النهدي قال لم يبق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض تلك الايام التي فيها النبي صلى الله عليه وسلم غير طلحة وسعد .

وفي الصحيحين ـ واللفظ لمسلم ـ عن جابر بن عبدالله قال **« نَدَبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم الناسَ يوم الخندق ، فانتدبَ الزبيرُ ، ثم ندبهم ، فانتدب الزبيرُ ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لكل نبيٍ حَواريّ ، وحواريي الزبير »** .

وفي صحيح مسلم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال **« ان لكل امة امينا ، وان امينا ـ ايتها الامة ـ ابو عبيدة بن الجراح »** .

وفي مسند احمد وجامع الترمذي ان النبي صلى الله عليه وسلم قال

« ابو بكر في الجنة ، وعمر في الجنة ، وعلي في الجنة ، وعثمان في الجنة ، وطلحة في الجنة ، والزبير بن العوام في الجنة ، وعبدالرحمن بن عوف في الجنة ، وسعيد بن زيد في الجنة ، وابو عبيدة بن الجراح في الجنة » .

وسعيد هو ابن زيد بن عُمرو بن نُفَيل القرشي . وكان ابوه على مِلّة ابراهيم من الاحناف .

وقد اتفق اهل السنة على تعظيم هؤلاء العشرة وتقديمهم ، لما اشتهر من فضائلهم ومناقبهم

● **قال الطحاوي : (ومَن احسنَ القولَ في اصحابِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وازواجِه الطاهرات من كل دَنس ، وذُرياته المقدسين من كل رِجْس : فقد بَرِىء من النفاق) .**

وذلك لقول النبي صلى الله عليه وسلم في صَحيح مسلم :

« انا تارك فيكم ثقلين : اولهما كتاب الله ، فيه الهدى والنور ، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به ، فحث على كتاب الله ورَغّب فيه ، ثم قال : واهل بيتي ، اذكركم الله في اهل بيتي » .

● **قال : (وعلماء السَلَف من السابقين ، ومَن بَعدَهم من التابعين ـ اهلِ الخَبَرِ والاثَر، واهل الفقه والنَظَر ـ لا يُذكرون الا بالجميل ، ومَن ذَكَرهم بسوء فهو على غير السبيل) .**

لقول الله تعالى : (وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا) ١١٥/ النساء .

فيجب على كل مسلم بعد موالاة الله ورسوله : موالاة المؤمنين ، كما نطق به القرآن ، خصوصا الذين هم ورثة الانبياء ، وهم متفقون اتفاقا يقينا على وجوب اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن اذا وُجِد لواحد منهم قول قد جاء حديثٌ صحيح بخِلافه : فلا بُدّ له في تركه من عذر . وجماع الاعذار ثلاثة اصناف :

احدها : عدم اعتقاده ان النبي صلى الله عليه وسلم قاله

والثاني : عدم اعتقاده انه اراد تلك المسألة بذلك القول .

والثالث : اعتقاده ان ذلك الحكم منسوخ .

فلهم الفضل علينا والمِنّة بالسبق ، وتبليغ ما ارسل به الرسول صلى الله عليه وسلم الينا ، وايضاح ما كان منه يخفى علينا ، فرضي الله عنهم وارضاهم .

● **قال : (ولا نُفَضّل احداً من الاولياء على احدٍ من الانبياء عليهم السلام ، ونقول : نبي واحد افضل من جميعِ الاولياء) .**

اذ ان مقام النبوة هو اعلى المقامات باتفاق اهل السنة .

● قال : (ونؤمن بما جاء من كراماتهم ، وصَحّ عن الثِقات من رُواياتهم) .

والمعجزة في اللغة تعم كل خارقة ، وكذلك الكرامة في عُرف ائمة اهل العلم المتقدمين ، ولكن كثيرا من المتأخرين يفرقون في اللفظ بينهما ، فيجعلون المعجزة للنبي ، والكرامة للولي ، وجماعها : الامر الخارق للعادة .

والكمال يرجع الى ثلاثة : العلم ، والقدرة ، والغِنى ، وهذه الثلاثة لا تصلح على الكمال الا لله وحده ، فانه الذي احاط بكل شيء علما ، وهو على كل شيء قدير ، وهو غني عن العالمين . ولهذا امرَ النبيَ صلى الله عليه وسلم ان يتبرأ من دعوى هذه الثلاثة بقوله (قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ) ٥٠/الانعام .

وكذلك قال نوح عليه السلام ، فهذا اول اولي العزم ، واول رسول بعثه الله الى اهل الارض ، وهذا خاتم الرسل ، وخاتم اولي العزم ، وكلاهما تبرأ من ذلك،وهذا لأنهم يطالبونهم تارة بعلم الغيب ، كقوله تعالى :

(يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا) ١٨٧/الاعراف .

وتارة بالتأثير ، كقوله تعالى :

(وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا) ٩٠/الاسراء .

وتارة يعيبون عليهم الحاجة البشرية ، كقوله تعالى :

(وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ) ٧/الفرقان .

فأمِر الرسول ان يخبرهم بأنه لا يملك ذلك ، وانما ينال من تلك الثلاثة بقدر ما يعطيه الله ، فيعلم ما علمه الله اياه ، ويستغني عما اغناه الله عنه ، ويقدر على ما اقدره عليه من الامور المخالفة للعادة المطردة ، او عادة اغلب الناس .

فجميع المعجزات والكرامات ما تخرج عَن هذه الانواع .

ثم الخارق ان حصل به فائدة مطلوبة في الدين : كان من الاعمال الصالحة المأمور بها دينا وشرعا ، اما واجب او مستحب ، وان حصل به امر مباح كان من نعم الله الدنيوية التي تقتضي شكرا ، وان كان على وجه يتضمن ما هو منهيٌ عنه نَهيَ تحريم او نَهيَ تنزيه : كان سببا للعذاب او البغض .

فالخارق ثلاثة انواع محمود في الدين ، ومذموم ، ومباح ، فان كان المباح فيه منفعة كان نعمة ، والا فهو كسائر المباحات التي لا منفعة فيها .

قال ابو علي الجوزجاني كن طالبا للاستقامة ، لا طالبا الكرامة ،فان نفسك متحركة في طلب الكرامة ، وربك يطلب منك الاستقامة .

قال الشيخ السهروردي في عوارفه . ولهذا ضلَّ كثير في هذا الباب ، فان كثيرا من المجتهدين المعتدين سمعوا سلف الصالحين المتقدمين ، وما مُنحوا من الكرامات وخوارق العادات ، فنفوسهم لا تزال تتطلع الى شيء من ذلك ، ويحبون ان يُرزقوا شيئا منه ، ولعل احدهم يبقى منكسر القلب متهما لنفسه في صحة عمله ، حيث لم يحصل له خارق ، ولو علموا بسِرّ ذلك لهان عليهم الامر ، فيعلم ان الله يفتح على بعض المجاهدين الصادقين من ذلك بابا ، ليزداد بما جرى من خوارق العادات وآثار القدرة يقينا ، فيقوى عزمه على الزهد في الدنيا ، والخروج عن دواعي الهوى . فسبيل الصادق مطالبة النفس بالاستقامة ، فهي كل الكرامة .

واعلم ان المسلم اذا لم ينكشف له شيء من المغيبات ، ولم يُسَخّر له شيء من الكونيات . لا ينقصه ذلك في مرتبته عند الله ، بل قد يكون عدم ذلك انفع له ، فانه ان اقترن به الدين والا هلك صاحبه في الدنيا والآخرة ، فان الخارق قد يكون مع الدين ، وقد يكون مع عدمه او نقصه ، فالخوارق النافعة تابعة للدين ، خادمة له ، كما ان الرياسة النافعة هي النافعة للدين ، وكذلك المال النافع ، فمن جعلها هي المقصودة ، وجعل الدين تابعا لها ووسيلة اليها فهو شبيه بمن يأكل الدنيا بالدين ، وليست حاله كحال من تَدَيّن خوفَ العذاب او رجاء الجنة .

ثم ان الدين اذا صح علما وعملا فلا بد ان يوجب خرق العادة اذا احتاج الى ذلك صاحبه . قال تعالى :

(وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) ٢ و٣/الطلاق .

وقال تعالى : (إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا) ٢٩/الانفال .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **إتقوا فِراسة المؤمن ، فانه ينظر بنور الله . ثم قرأ قوله تعالى : ان في ذلك لآيات للمتوسمين** » . رواه الترمذي .

وفي الحديث القدسي الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى قال : « **مَن عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ، وما تقرّب اليّ عبدي بمِثل اداء ما افترضتُ عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى احبه ، فاذا احببته كنتُ سمعَه الذي يسمع به ، وبصرَه الذي يبصر به ، ويدَه التي يبطش بها ، ورجلَه التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنّه** » .

● قال الطحاوي رحمه الله : (ونؤمن باشراط الساعة ، من خروج الدَجّال ، ونزول عيسى بن مريم عليه السلام من السماء ونؤمن بطلوع الشمس من مغربها ، وخروج دابّة الارض من موضعها) .

فعن حُذيفة بن أُسِيد الغِفاري رضي الله عنه قال :

« اطلع النبي صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر الساعة ، فقال : ما تذاكرون ؟ قالوا : نذكر الساعة . فقال : انها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات ، فذكر : الدخان ، والدجّال ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى بن مريم ، وياجوج وماجوج ، وثلاثة خُسوف : خَسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناسَ الى محشرهم » رواه مسلم .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من نبي الا انذر قومَه الاعورَ الدجال ، الا انه اعور ، وربكم ليس باعور ، ومكتوب بين عينيه : ك ف ر » وفسّره في رواية : « اي : كافر » حديث صحيح .

وروى البخاري عن ابي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيده ، ليوشِكنّ ان ينزل فيكم ابنُ مريم حَكَماً عَدلا ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله احد ، حتى تكون السجدة خيرا من الدنيا وما فيها » .

واما خروج الدابة وطلوع الشمس من المغرب ، فقال تعالى :

(وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ) ٨٢/النمل .

وروى البخاري عن ابي هريرة قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فاذا راها الناس : آمن من عليها ، فذلك حين لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل » .

● قال ابو جعفر : (ولا نُصَدِّقُ كاهنا ولا عَرّافا ، ولا من يَدّعي شيئا يخالف الكتاب والسنة وإجماع الامة) .

لقول النبي صلى الله عليه وسلم

« مَن أتى عَرّافا فسأله عن شيء : لم يقبل له صلاة اربعين ليلة » رواه مسلم .

وفي حديث آخر

« مَن اتى عرافا او كاهِنا فصدقه بما يقول : فقد كَفَرَ بما أُنزل على محمد » رواه الامام احمد بن حنبل .

والمنجّم يدخل في اسم العَراف .
فاذا كانت هذه حال السائل ، فكيف بالمسؤول ؟

وفي الصحيحين عن عائشة قالت . « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكُهان فقال : ليسوا بشيء . فقالوا : يا رسول الله ، انهم يُحَدثون احيانا بالشيء يكون حقا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تلك الكلمة من الحق يخطِفها الجِني فيقرها في أذن وليه ، فيخلطون فيها اكثر من مائة كذبة » .

ويدخل في هذا المعنى ايضا : صاحب الازلام التي يُستَقسَم بها ، والضارب بالحَصى ، والذي يَخط في الرمل ، وما تعاطاه هؤلاء حرام ، بالاجماع ، كما قال البَغوي والقاضي عِياض .

وفي صحيح البخاري انه كان لابي بكر غلام ، فجاء يوما بشيء ، فاكل منه ابو بكر ، فقال له الغلام ، تدري مِمَّ هذا ؟ قال : وما هو ؟ قال : كنت تكهنت لانسان في الجاهلية ، وما أُحسِن الكهانة ، الا إني خدعته ، فلقيني ، فاعطاني بذلك ، فهذا الذي اكلت منه ، فادخل ابو بكر يده فقاءَ كل شيء في بطنه .

والواجب على ولي الامر وكل قادر ان يسعى في ازالة هؤلاء المنجمين والكهان والعرافين ، واصحاب الضرب بالرمل والحصى ، ومنعهم من الجلوس في الحوانيت والطرقات ، او يدخلوا على الناس في منازلهم .

وهؤلاء الذين يفعلون هذه الافعال الخارجة عن الكتاب والسنة انوا نوع منهم اهل تلبيس وخداع ، الذين يظهر احدهم طاعة الجن له من المشائخ النصّابين ، والطُرُقية الكاذبين ، فهولاء يستحقون العقوبة البليغة التي تردعهم وامثالهم عن التلبيس . وقد يكون في هؤلاء من يستحق القتل ، كمن يدعي النبوة . ونوع يتكلم في هذه الامور على سبيل الجد ، بانواع السحر ، وجمهور العلماء يوجبون قتل الساحر ، كما هو مذهب ابي حنيفة ومالك واحمد ، وهذا هو المأثور عن الصحابة ، كعمر وعثمان وغيرهم .

وقد تنازع العلماء في حقيقة السحر وانواعه ، والاكثرون يقولون : انه قد يؤثر في موت المسحور ومرضه من غير وصول شيء ظاهر اليه . وزعم بعضهم انه مجرد تخييل . واتفقوا كلهم على ان ما كان من جنس دعوة الكواكب السبعة ، او السجود لها ، والتقرب اليها بما يناسبها من اللباس والخواتم والبخور ، ونحو ذلك ، فانه كفر وهو من اعظم انواع الشرك ، فيجب غلقه .

واتفقوا كلهم ايضا على ان كل رُقية وتعزيم او قَسَم ، فيه شرك بالله ، فانه لا يجوز التكلم به ، وان اطاعته به الجن . وكذلك كل كلام فيه كفر لا يجوز التكلم به ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « **لا باس بالرُّقى ما لم تكن شركا** » .

ولا يجوز الاستعاذة بالجن ، فقد ذمّ الله الكافرين على ذلك ، فقال تعالى :

(وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا) ٦/ الجن .

قالوا : كان الانسي اذا نزل بالوادي يقول : اعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهائه .

وقد قال الله تعالى :

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾
قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ)
٤٠ و٤١/سبأ .

فهؤلاء الذين يزعمون انهم يدعون الملائكة ضالون ، وانما تنزل عليهم الشياطين .

والواجب عرض افعال الجميع على الشريعة المحمدية ، فما وافقها : قبل ، وما خالفها رد ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « **مَن أَحْدَثَ في امرنا هذا ما ليس منه فهو رَد**». فلا طريقة الا طريقة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا حقيقة الا حقيقته ، ولا عقيدة الا عقيدته ، ولا يصل احد من الخلق بعده الى الله والى رضوانه وجنته الا بمتابعته ظاهرا وباطنا ، ومن لم يكن له مصدقا فيما اخبر ، ملتزما لطاعته فيما امر ، في الامور الباطنة التي في القلوب ، والاعمال الظاهرة التي على الابدان : لم يكن مؤمنا ، فضلا عن ان يكون وليًا لله تعالى ، ولو طار في الهواء ، واخرج الذهب من الخشب ، وحصل له من الخوارق ماذا عسى ان يحصل ، فانه لا يكون ــ مع تركه الفعل المأمور ــ الا من اهل الاحوال الشيطانية .

وكذلك الذين يُصعقون عند سماع الانغام الحسنة ، مبتدعون ضالون ، ولم يكن في الصحابة والتابعين من يفعل ذلك ، ولو عند سماع القرآن ، بل كانوا كما وصفهم الله تعالى : (إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) ٢/الانفال .

وما يحصل لبعضهم عند سماع الانغام المطربة ، من الهذيان ، والتكلم ببعض اللغات المخالفة للسان المعروف منه ، فذلك شيطان يتكلم على لسانه .

واما الذين ذكرهم العلماء بخير من عقلاء المجانين ، فاولئك كان فيهم خير ، ثم زالت عقولهم ، فاذا حصل في جنونهم نوع من الصحو تكلموا بما كان في قلوبهم من الايمان .

واما الذين يتعبدون بالرياضات ، من الجوع والتعري وتعذيب الجسد ، وبالخلوات والعُزلة ، ويتركون الجُمَع والجماعات ، فهم الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا ، وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا ، كما قد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « من ترك ثلاث جُمَع تهاونا من غير عذر : طبع الله على قلبه » وكل من عدل عن اتباع سنة الرسول ، ان كان عالما بها ، فهو مغضوب عليه ، والا فهو ضال ، ولهذا شرع الله لنا ان نسأله كل صلاة ان يهدينا الصراط المستقيم ، صراط الذين انعم عليهم ، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحَسُن اولئك رفيقا .

واما ما يتعلق بقصة موسى مع الخضر عليه السلام ، في تجويز الاستغناء عن الوحي بالعلم اللّدُني ، الذي يدّعيه بعض من عدم التوفيق : فهو ملحد زنديق ، فان موسى عليه السلام لم يكن مبعوثا الى الخضر ، ولم يكن الخضر مأمورا بمتابعته ، ولهذا قال له : انت موسى بني اسرائيل ؟ قال : نعم ، كما في صحيح البخاري ، ومحمد صلى الله عليه وسلم مبعوث الى جميع الثقلين ، ولو كان موسى وعيسى حيّين لكانا من اتباعه ، واذا نزل عيسى عليه السلام الى الارض انما يحكم بشريعة محمد ، فمن ادعى انه مع محمد صلى الله عليه وسلم كالخضر مع موسى ، او جوز ذلك لأحد من الامة : فليجدد اسلامه ، فانه مفارق لدين الاسلام بالكلّية ، فضلا عن ان يكون من اولياء الله ، وانما هو من اولياء الشيطان .

● **قال الطحاوي : (ونرى الجماعة حقا وصوابا ، والفُرقة زَيغا وعذابا) .**

وذلك لقوله تعالى

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا) ١٠٣/ ال

وقال تعالى :

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) ١٠٥/ آل عمران .

وقال سبحانه : (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) ١٥٩/ الانعام .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ان اهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة ، وان هذه الامة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة — يعني الاهواء — كلها في النار الا واحدة ، وهي الجماعة». وفي رواية : « قالوا : مَن هي يا رسول الله ؟ قال : ما انا عليه واصحابي». فبيّن ان عامة المختلفين هالكون الا اهل السنة والجماعة ، وان الاختلاف واقع لا محالة .

وروى الامام احمد عن معاذ بن جبل ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ان الشيطان ذئب الانسان ، كذئب الغنم[1] ، ياخذ الشاة القاصية والناحية ، فاياكم والشِعاب ، وعليكم بالجماعة ، والعامة ، والمسجد » .

والامور التي تتنازع فيها الامة — في الاصول والفروع — اذا لم ترد الى الله والرسول : لم يتبين فيها الحق ، بل يصير فيها المتنازعون على غير بينة من امرهم ، فانهم — ان رحمهم الله — أقرّ بعضهم بعضا ، ولم يبغ بعضهم على بعض ، كما كان الصحابة في خلافة عمر وعثمان يتنازعون في بعض مسائل الاجتهاد ، فيقر بعضهم بعضا ، ولا يَعتدي ولا يُعتدى عليه ، وان لم يرحموا : وقع بينهم الاختلاف المذموم ، فبغى بعضهم على بعض ، اما بالقول : مثل تكفيره وتفسيقه ، واما بالفعل ، مثل حبسه وضربه وقتله . والذين امتحنوا الناس بخلق القران كانوا من هؤلاء ، ابتدعوا بدعة ، وكفّروا من خالفهم فيها ، واستحلوا منـ حقه وعقوبته .

فالناس اذا خفي عليهم بعضٌ ما بعث الله به الرسول : اما عادلون واما ظالمون . فالعادل فيهم : الذي يعمل بما وصل اليه من آثار الانبياء ، ولا يظلم غيره . والظالم : الذي يعتدي على غيره ، واكثرهم انما يظلمون مع علمهم بانهم يظلمون ، كما قال الله تعالى :

(وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ) ١٩/ آل عمران .

والا فلو سلكوا ما علموه من العدل : أقر بعضهم بعضا ، كالمقلدين لائمة العلم ، الذين يعرفون من انفسهم انهم عاجزون عن معرفة حكم الله ورسوله في تلك المسائل ، فجعلوا ائمتهم نوابا عن الرسول ، وقالوا : هذا غاية ما قدرنا

عليه . فالعادل منهم لا يظلم الآخر ، ولا يعتدي عليه بقول ولا فعل ، مثل ان يدعي ان قول مقلَّده هو الصحيح ، بلا حجة يبديها ، ويذم من خالفه ، مع انه معذور .

ثم ان انواع الافتراق والاختلاف في الاصل قسمان : اختلاف تَنَوُّع ، واختلاف تَضادّ .

واختلاف التنوع على وجوه : منه ما يكون كل واحد من القولين او الفعلين حقا مشروعا ، كما في القراءات التي اختلف فيها الصحابة رضي الله عنهم ، حتى زجرهم النبي صلى الله عليه وسلم وقال : « **كِلاكما محسن** » . ومثله اختلاف الانواع في صفة الأذان ، والاقامة ، والاستفتاح ، ومحل سجود السهو ، والتشهد ، وصلاة الخوف ، وتكبيرات العيدين ، ونحو ذلك مما قد شُرع جميعه ، وان كان بعض انواعه ارجح وافضل ، ثم تجد لكثير من الامة في ذلك من الاختلاف ما اوجب اقتتال طوائف منهم على شفع الاقامة وايتارها ، ونحو ذلك ، وهذا عين المحرم ، ومنه ما يكون كل من القولين هو في معنى القول الآخر ، لكن العبارتين مختلفتان ، كما قد يختلف كثير من الناس في التعبير عن المسميات .

واما اختلاف التضادّ : فهو القولان المتنافيان ، اما في الاصول ، واما في الفروع ، والخطب في هذا اشد ، لأن القولين يتنافيان ، لكن نجد كثيرا من هؤلاء قد يكون القول الباطل الذي مع منازعه فيه حق مّا ، او معه دليل يقتضي حقا ما ، فيردّ الحق مع الباطل ، حتى يبقى هذا مبطلا في البعض ، كما كان الاول مبطلا في الاصل ، وهذا يجري كثيرا لاهل السنة .

واما اهل البدعة : فالامر فيهم ظاهر ، ومن جعل الله له هداية ونورا رأى من هذا ما يبين له منفعةَ ما جاء في الكتاب والسنة من النهي عن هذا واشباهه ، وان كانت القلوب الصحيحة تنكر هذا ، لكن نور على نور .

والاختلاف الاول ــ الذي هو اختلاف التنوع ــ:الذم فيه واقع على من بغى على الآخر فيه ، وقد دل القرآن على حمد كل واحدة من الطائفتين في مثل ذلك اذا لم يحصل بغي ، كما في قوله تعالى :

(مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ) ٥/ الحشر .

وقد كانوا اختلفوا في قطع اشجار النخيل يوم غزوة بني النضير .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم « اذا اجتهد الحاكم فاصاب فله اجران ، واذا اجتهد فاخطأ فله اجر » .

والاختلاف الثاني هو ما حُمِد فيه احدى الطائفتين ، وذُمت الاخرى ، كما في قوله تعالى (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ) ٢٥٣/ البقرة .

واكثر الاختلاف في القرآن ، انما هو في تأويله ، والنجاة منه تكون باتباع ما ارشدنا اليه النبي صلى الله عليه وسلم في حديث عمرو بن شعيب ، عن ابيه ، عن جده قال

« خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على اصحابه ذات يوم وهم يختصمون في القَدَر ، هذا ينزع باية ، وهذا ينزع باية ، فكانما فقيء في وجهه حَبّ الرمان ، فقال : ابهذا أُمرتم ؟ ام بهذا وُكلتم ؟ ان تضربوا كتاب الله بعضه ببعض ؟ انظروا ما أُمرتم به فاتبعوه ، وما نُهيتم عنه فانتهوا » . رواه الامام احمد في المسند .

وفي رواية : « **يا قوم : بهذا ضلّت الامم قبلكم ، باختلافهم على انبيائهم ، وضربهم الكتاب بعضه ببعض ، وان القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض ، ولكن نزل القرآن يصدق بعضه بعضا ، ما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه فامنوا به » .**

وفي رواية « **فان الامم قبلكم لم يُلعنوا حتى اختلفوا ، وان المِراء في القرآن : كفر » .**

وهو حديث مشهور ، مُخرَّج في المسانيد والسنن ، وقد روى اصل الحديث مسلم في صحيحه ، من حديث عبد الله بن رباح الانصاري ، ان عبد الله ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال :

« هَجَّرت الى النبي صلى الله عليه وسلم يوما ، فسمعَ اصواتَ رجلين اختلفا في اية ، فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعرف في وجهه الغضب فقال : انما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب » .

وجميع اهل البدع مختلفون في تأويله ، مؤمنون ببعضه دون بعض ، يقرون بما يوافق رأيهم من الآيات ، وما يخالفه : اما ان يتأوله تأويلا يحرفون به الكلم عن مواضعه ، واما ان يقول : هذا مما لا نفهم معانيه ، وهو في معنى الكفر بذلك ، لأن الايمان باللفظ بلا معنى هو من جنس ايمان اهل الكتاب ، كما قال الله تعالى : (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ) ٧٨/ البقرة .

اي الا تلاوة من غير فهم لمعناه ، وليس هذا كالمؤمن الذي فهم ما فهم من القرآن فعمل به ، واشتبه عليه بعضه ، فوكل علمه الى الله .

● قال ابو جعفر : (ودين الله في الارض والسماء واحد ، وهو دين الاسلام . قال تعالى : ان الدين عند الله الاسلام . وقال تعالى : ورضيت لكم الاسلام دينا ، وهو بين الغُلُوّ والتقصير ، وبين التشبيه والتعطيل ، وبين الجَبْر والقدر ، وبين الامن والأياس) .

كما ثبت في الصحيح عن ابي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « **إنا معاشر الانبياء ديننا واحد** » .

وقال تعالى : (وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ) ٨٥/آل عمران .

وهي آية حكمها عام في كل زمان ، ولكن الشرائع تتنوع ، كما قال تعالى : (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا) ٤٨/المائدة .

فالدين هو ما شرعه الله سبحانه وتعالى لعباده على ألسِنة رُسله ، وهو ظاهر غاية الظهور ، يمكن كل مميز ، من صغير وكبير ، وفصيح واعجمي ، ان يدخل فيه باقصر زمان ، وكان الوافد على المدينة يتعلمه ثم يولي في وقته الى موطنه يكفيه ما تعلمه

واختلاف تعليم النبي صلى الله عليه وسلم في بعض الالفاظ بحسب من يتعلم ، فان كان بعيد الوطن ، كضُمام بن ثعلبة النجدي ، ووفد عبد القيس الذين اتوا من البحرين : علّمهم ما لا يسعهم جهله ، مع علمه ان دينه سينتشر في الآفاق ، ويرسل اليهم مَن يُفقههم في سائر ما يحتاجون اليه . ومن كان قريب الوطن يمكنه الاتيان في كل وقت ، بحيث يتعلم على التدريج ، او كان قد علم فيه انه قد عرف ما لا بد منه : اجابه بحسب حاله وحاجته ، على ما تدل قرينة حال السائل ، كقوله صلى الله عليه وسلم : «**قل آمنت بالله ثم استقم** » .

ثم ان هذا الدين « بين الغلو والتقصير » كما قال الطحاوي ، فقد قال الله تعالى : (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ) ٧٧/المائدة .
وقال تعالى :
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ) ٨٧ و٨٨/المائدة .

وفي الصحيحين عن انس بن مالك رضي الله عنه « **ان ناسا من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سالوا ازواج رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عمله في السر ، فقال بعضهم : لا آكل اللحم . وقال بعضهم : لا اتزوج النساء . وقال بعضهم : لا انام على فراش . فبلغ ذلك**

النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما بال اقوام يقول احدكم كذا وكذا ؟ لكني اصوم وافطر ، وانام واقوم ، وآكل اللحم ، واتزوج النساء ، فمَن رغب عن سنتي فليس مني » .

ثم هذا الدين « بين الامن والاياس » وانه يجب ان يكون العبد خائفا من عذاب ربه ، راجيا رحمته ، وان الخوف والرجاء بمنزلة الجناحين للعبد في سيره الى الله تعالى .

● ولما انتهى الامامُ الاجلّ ابو جَعفر احمد بن سَلامة الازدي الطَحاوي رحمه الله الى هذا الموضع ، وقرّر فهمَه لاصول العقيدة الاسلامية وفروعها : اختتم كلامه قائلا : (فهذا ديننا واعتقادنا ، ظاهرا وباطنا ، ونحن بُرَآء الى الله تعالى مِن كل مَن خالف الذي ذكرناه وبيّناه ، ونسأل الله تعالى ان يُثبتَنا على الايمان ، ويختم لنا به ، ويعصمنا من الاهواء المختلفة ، والآراء المتفرقة ، والمذاهب الرَدِيّة ، مثل المشَبّهة ، والمعتزلة ، والجَهمية ، والجَبرية ، والقَدَرية وغيرهم ، من الذين خالفوا السُنة والجَماعة وحالفوا الضلالة ، ونحن منهم بُرَآء ، وهم عندنا ضُلّال وأردياء ، وبالله العِصمة والتوفيق).

وسبب ضلال هذه الفرق وامثالهم : عدولهم عن الصراط المستقيم ، الذي امرنا الله باتباعه .

قال تعالى : (قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى) ١٠٨/يوسف .

وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه :

« خَطّ لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا ، وقال : هذا سبيل الله . ثم خط خطوطا عن يمينه وعن يساره ، وقال : هذه سُبُل ، على كل سَبيل شيطان يدعو اليه ، ثم قرا : وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » .

ومن هاهنا يُعلم ان اضطرار العبد الى سؤال هداية الصراط المستقيم فوق كل ضرورة ، ولهذا شرع الله تعالى في الصلاة قراءة أمّ القرآن في كل ركعة ، لاحتياج العبد الى هذا الدعاء العظيم القدر ، المشتمل على اشرف المطالب واجلها ، فقد امرنا الله تعالى ان نقول :

(اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين انعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين) ٦ و٧/ الفاتحة .

وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال :

« اليهود : مغضوب عليهم ، والنصارى : ضالّون » .

وثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال :

« لتتبعُنَّ سَنَنَ مَن كان قبلَكم حَذوَ القُذّة بالقُذّة ؛ حتى لو دخلوا جُحرَ ضَبٍّ لدخلتموه . قالوا : يا رسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال : فمَن ؟؟ » .

قال طائفة من السَلف : من انحرف من العلماء ففيه شَبَه من اليهود ، ومن انحرف من العُباد ففيه شبه من النصارى .

نسأل الله السلامة والعافية ، وسبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .